بنك روما

والتمهيد للغزو الإيطالي لليبيا



وهبي البوري

مجلس الثقافة العام

بنك روما

والتمهيد للغزو الإيطالي لليبيا

بـنـك رومـــا

والتمهيد للغزو الإيطالي لليبيا

وهبي أحمد البوري

الناشر
مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب	بنك روما والتمهيد للغزو الإيطالي لليبيا
اسم المؤلف	وهبي أحمد البوري
سنة النشر	2006 م
رقم الإيداع	7241 / 2006 م
الترقيم الدولي	2 - 155 - 38 - 9959
تصميم الغلاف	علي العباني
التنفيذ الفني	عاطف الأطرش - نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فـرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فـرع بنغـازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005 @Yahoo.ca

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

تنفيذ الطباعة

القاهرة ت 0020123140315

التمهيد

ظاهـــرة الاســـتعمار الأوربي الحديث نجد جذورها في أحداث النصف الثاني من القرن الخامس عشر. ففي هذه الفترة اكتشف كريستوفور كولومبوس القارة الأمريكية (1492) واكتشف بارتولوميو دياز طريق الشرق عبر الرجاء الصـــالح (1487)، وســـقطت غـــرناطة بـــيد الأسبان وانتهي الوجود العربي بأوروبا (1492) وأرست البرتغال قواعد الاستعمار الحديث في أفريقيا وآسيا، واحتلـــت تركـــيا القسطنطنية (1453) ودمرت الإمبراطورية البيزنطية. فهذه الأحداث العظيمة التي تلاحقت في فترات متقاربة وما تولد عنها من متغيرات ومـــتطورات، في مجالات الجغرافيا والمواصلات وموازين القوى والاقتصاد والتقدم العلمي، قد عملت على إخراج أوربا من عزلتها الأوسطية ومن سجنها الفكـــري، ووفـــرت لها الرخاء والقوة والسيطرة على القارة الجديدة المكتشفة، والتوغل في آسيا، والسيطرة على ساحل أفريقيا الغربي. وكانت الدولتان اللتان حققتا جميع هذه الإنجازات هما أسبانيا والبرتغال، وقد خشيتا، أمام هذه الآفاق اللامتناهـــية المفـــتوحة أمامها، أن يحدث بينهما تصادم، فلجأتا إلى البابا ليحدد مواقع نفوذ كل من الدولتين، خاصة وأن البابا قد أصدر قراراً يعتبر فيه جميع البلاد التي لا تخضع لحاكم مسيحي أراضى شاغرة يحق لكل دولة مسيحية أن تحتلها أو تضعها تحت نفوذها.

وقـــام رئـــيس الكنيسة برسم خط يمتد من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبـــي مـــاراً على بعد مائة مرحلة غرب الرأس الأخضر بحيث تحصل إســـبانيا على كامل القارة الأمريكية المكتشفة حديثاً، ويحصل البرتغال على العالم الواقع شرق الخط أي أفريقيا وآسيا وما وراءهما. واعترضت البرتغال على القسمة، فأعيد النظر فيها وعدل الخط الفاصل بين الدولتين بحيث أصبح يمـــر علـــى بعـــد 370 مرحلة غرب الرأس الأخضر، وتحصلت البرتغال

بموجـــب القســـمة الجديدة على البرازيل. وتم اتفاق بين الدولتين عام 1494 علـــى هـــذا الأســـاس عرف باتفاق توردیسیلاس Tordessilas الذي حددت بموجـــبه ســـيادة إسبانيا والبرتغال على العالم غير المسيحي. غير أن الدول الأوربـــية الأخـــرى عـــندما اشتد ساعدها وأصبحت دولا قوية في أوروبا، اعترضـــت في عام 1560 على اقتسام العالم الشاغر بين إسبانيا والبرتغال، وطالبت بحقها في الأراضي الشاغرة التي لم تستول عليها دولة أوربية بعد. وتحركـــت بعـــد ذلـــك بريطانيا وفرنسا وهولندا صوب القارة الجديدة لأخذ نصيبها منها.

وقـــد استطاعت الدول الأوربية أن تبني إمبراطوريات استعمارية في القـــارة الجديـــدة واســـتعان المســـتوطنون الأوربيون بالرقيق الأفريقي لبناء ثرواتها، وازدهرت أوربا واقتصادها وصناعتها ومواصلاتها حيث أصبحت سفنها تعد بالآلاف.

وتدفقـــت علـــى أوربـــا الأموال والذهب والمواد الأولية والمنتوجات الأمريكـــية فمـــرت بفـــترة رخاء لم تعرفها في تاريخها، فطورت صناعتها وزراعتها ومواصلاتها وقواتها المسلحة ووسائل تقدمها العلمي.

* * * *

لم تهتم الدول الأوربية بأفريقيا إلا بصفتها مصدراً للرقيق الذي كان لا غنـــي للمســـتعمرات الأمريكية عنه. وكانت البرتغال رائدة أوربا في تجارة الرقـــيق فكانـــت لشبونا أكبر سوق للرقيق. وكلفت الدول الأوربية شركاتها بإقامة قواعد على ساحل أفريقيا الغربي وقلاع حيث يقيم الأوربيون في أمان ويحـــتفظ بالرقـــيق مقيداً بسلاسل ثابتة في الجدران. وقد أقامت بريطانيا هذه الحصون بدلا من القواعد زيادة في التوفير والأمن، وكانت تحتفظ بحصن في كـــل من ساحل الذهب وغامبيا وسيراليونى وغيرها، وكانت لفرنسا حصون

بمـــنطقة الســـنغال وغيرها. أما هولندا فقد ذهبت إلى جنوب أفريقيا بعد أن فشـــلت هـــي والدنمـــارك في الحصول على قواعد في غرب أفريقيا لتزويد مســـتعمراتها بما تحتاجه من رقيق، وقد استولت على منطقة الرجاء الصالح بعد أن تخلت عنها البرتغال، وحولتها إلى ميناء لتقديم الخدمات للسفن القادمة من الغرب أو الشرق. ووجد الهولنديون في جنوب أفريقيا سهولا ومرتفعات ومناخا شبيها ببلاد البحر الأبيض فأقاموا مستوطنة، وتكاثر المهاجرون إليها وتوسعت أطرافها بسهولة لأنها كانت خالية من أي حكومة أو قبيلة قوية.

والســـكان الموجـــودون كانوا ضعفاء وفضلوا التعاون مع الهولنديين. وعـــندما احتلت بريطانيا المنطقة عام 1795، وجدت بها خمسة عشر ألف أوربـــي و37000 أفريقـــي. وظلـــت فرنسا وبريطانيا تتنافسان على ساحل غرب أفريقيا دون التوغل في الأراضي الداخلية أو محاولة إقامة مستعمرات فـــيها، لقـــد كانتا تنظران إلى أفريقيا كمصدر لليد العاملة المسخرة وكسوق لتـــبادل تجـــاري محـــدود. لقد كانت القارة الأفريقية غير مغرية للاستيطان والتجارة والاستثمار مقارنة بالقارة الأمريكية وآسيا.

* * * *

كـــان شـــمال أفريقيا المنطقة الأفريقية الهامة التي ركزت عليها الدول الأوربية مطامعها منذ القرن السادس عشر وشجعها على ذلك خروج العرب من الأندلس، فقد كانت تطمع في ضم شمال أفريقيا إلى أوربا وإبعاد الإسلام عـــنه الذي يُكَوِّنُ خطرًا دائماً على جنوب أوربا. وقد قام الإمبراطور شارل الخـــامس في بداية القرن السادس عشر باحتلال مواني شمال أفريقيا العربية والســـيطرة عليها، غير أن الإمبراطورية العثمانية التي كانت في أوج قوتها بادرت بطرد الإسبان من هذه البلاد ووضعتها تحت إشرافها. وظل الصراع بيـــن الطرفيـــن محتداً في غرب البحر الأبيض المتوسط قرابة قرنين تخللته

فـــترات تعاون واتفاقيات وتبادل تجاري. وفي بعض الأحيان كانت الأساطيل الأوربـــية تقصـــف موانـي شمال أفريقيا عقابا لها لاعتدائها على مواصلاتها وتنتهي العملية باتفاق تدفع بموجبه الدولة الأوربية المعتدية إتاوة لدولة شمال أفريقية لضمان حرية مرور سفنها من البحر الأبيض المتوسط.

ومـــع بداية انهيار الدولة العثمانية في أواخر القرن الثامن عشر، بدأت الـــدول الأوربـــية، وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا وهولندا، مرحلة جديدة من الصراع والاستعمار الذي استهدف تقسيم العالم غير المسيحي إلى مستعمرات ومحميات وممتلكات ومناطق نفوذ، وذلك بإمكانات من القوى العسكرية التي لـــم تـــتوفر لهـــذا الصـــراع في أي مرحلة سابقة. وفكرة تقسيم العالم غير المســـيحي إلـــى مـــناطق نفـــوذ أوربية مستوحاة - بدون شك - من اتفاق توردیســـيلاس الـــذي قسم العالم الشاغر بين إسبانيا والبرتغال عام 1494 - والدليل على ذلك أن الدول الاستعمارية الأوربية عندما احتلت أفريقيا بأكملها فـــي بدايـــة القـــرن العشـــرين، تجنبت احتلال ليبريا وأثيوبيا لأنهما دولتان مسيحيتان. إلا أن إيطاليا أخلت بهذه القاعدة عندما احتلت أثيوبيا عام 1936 وظلت ليبيريا الدولة الأفريقية الوحيدة المستقلة باستثناء جنوب أفريقيا.

تزامـــن انهـــيار الإمبراطوريات الاستعمارية في أمريكا، مع توقف تجـــارة الرقـــيق وبدايـــة الثورة الصناعية التي كانت في حاجة إلى أسواق لتصـــريف الفـــائض من إنتاجها والى مصادر رخيصة للمواد الأولية التي تحتاجها الصناعة.

وقـــد اســـتطاعت أوروبـــا بفضل الثروات الأمريكية أن تطور قواتها المســـلحة وأساطيلها وصناعتها ومواصلاتها وأبحاثها العلمية بحيث أصبحت الأقـــوى والأشد والقادرة على احتلال أي بلد في أسيا أو أفريقيا أو أي جهة أخرى من العالم. وقد دفع غرور القوة والرغبة في التوسع والسيطرة وتأمين رفاهـــية شعوبها، دفع بالدول الأوربية إلى اقتفاء التجربة البرتغالية في القرن

السادس عشر والتوغل في بلاد آسيا الضعيفة، فاستولت بريطانيا على إمبراطورية الهند واستولت فرنسا على الهند الصينية واستولت هولندا على إندونيسيا، وتواصل التوسع الأوربي في آسيا إلى أن بلغ ما يقارب ثلاثة أرباع القارة الآسيوية ولم تنج من موجة التوسع هذه سوى إيران وأفغانستان واليابان وتايلاند وتركيا وولايتها.

أما بالنسبة لأفريقيا فقد احتلت البرتغال أنغولا وموزامبيك منذ القرن السادس عشر، وأسس الهولنديون مستعمرة استيطان في جنوب أفريقيا واقتسمت فرنسا وبريطانيا سواحل غرب أفريقيا وأقامتا فيها حصونا وقواعد لتأمين تجارة الرقيق، واتخذت الدولتان هذه القواعد، فيما بعد، منطلقاً للتغلغل إلى الداخل حيث الأرض الخصبة والمياه الوفيرة واليد العاملة الرخيصة أو المسخرة، فاستولت بريطانيا على نيجيريا وغانا وسيراليوني وغامبيا، واستولت فرنسا على السنغال وغينيا وساحل العاج والجابون وكونغو برازافيل، وانطلقت القوات الفرنسية من السنغال وبرازافيل في منتصف القرن التاسع عشر لتدمر الدول والإمارات الإسلامية القائمة في غرب وأواسط أفريقيا لاحتلالها وتكوين الإمبراطورية الفرنسية الأفريقية التي كانت تمتد من البحر الأبيض إلى خليج غينيا. واستولت ألمانيا وبريطانيا على أفريقيا الشرقية وبلجيكا على الكونغو وأورندي، وبوروندي، وظل شمال أفريقيا المطلب الذي كانت الدول الأوروبية ترنو إليه منذ طرد الأتراك للأسبان منه في منتصف القرن السادس عشر. وأثير في مؤتمر فيينا عام 1815 موضوع القرصنة وضرورة تدمير دول شمال أفريقيا. وتعهدت فرنسا بذلك عندما تتم استعداداتها العسكرية، وباركت أوروبا عملها هذا. ولم تستعد فرنسا لاحتلال الجزائر إلا بعد خمس عشرة سنة أي في عام 1830 بعد أن ضعفت قوى الجزائر وبعد أن بدأت تعصف بها الخلافات الداخلية وبعد أن أصبحت الإمبراطورية العثمانية عاجزة عن حمايتها. وكانت حملة الجزائر

عـــبارة عن تظاهرة صليبية شاركت فيها المؤسسات الدينية المسيحية وعدد مـــن كـــبار العســـكريين الإنكليز وغيرهم، وكان اعتداء صارخا على دولة مســـتقلة تطل على البحر الأبيض وترتبط بدول أوروبا بمعاهدات واتفاقيات. وكـــان أول عمل فعلته القوات الفرنسية بعد احتلالها لمدينة الجزائر، تحويل المســـجد الكبـــير إلى كنيسة. وظل معبدا مسيحيا إلى وقت استقلال الجزائر فأعيد إلى وضعه السابق كمسجد المدينة الرئيسي. وواجهت القوات الفرنسية مقاومة شديدة لم تكن تتوقعها، وفكرت الحكومة الفرنسية في الانسحاب، غير أن الجـــيش قـــرر الاستمرار في الحرب حرصا على سمعته. ومع ذلك فقد استغرقت فرنسا أربعين عاما قبل أن يستقر لها الأمر في الجزائر. وانتظرت أوروبا نصف قرن قبل أن تقدم على احتلال مصر وتونس .

أطلت إيطاليا على الساحة الدولية كدولة كبيرة مستقلة في الوقت الذي ســـيطرت فيه الدول الأوروبية الإمبريالية على معظم أراضي أفريقيا وآسيا والمحيطات وحولت ممالك وإمارات ودولا مستقلة إلى مستعمرات ومحميات ومناطق نفوذ. وقد ولدت إيطاليا كدولة ليبرالية حكمتها مجموعة من الأعيان كـــانوا يؤمنون بالحرية وحقوق الإنسان، ويكرهون فكرة الاستعمار بعد أن اســـتعمرهم الغـــير لعـــدة قـــرون. وقد عبر عن هذه المبادئ الكاتب الكبير كاســـتيلاني فكتـــب : " إن فكرة البعثات والتوسعات الاستعمارية لا يعتبرها الـــرأي العـــام الإيطالي ذات فائدة. فإيطاليا التي ظل يحكمها الأجانب إلى ما قبل سنوات لا يمكنها أن تفكر غداة تحريرها في استعمار الغير ولو كانوا من المتوحشـــين. فقـــد تحمس الإيطاليون لثورة عرابي باشا وهتفوا له باعتباره بطـــلا وطنـــيا مثل " غاريبالدي "[1]، غير أن موجة الإمبريالية والعنصرية وســـيادة الرجل الأبيض التي شغلت أوروبا في القرن التاسع عشر، كان لها

(1) G.B. NAITZA: IL COLONIALISMO NELLA STORIA D'ITALIA - FIRENZE 1975 .

انعكاســـاتها أيضا على إيطاليا حيث اشتد ساعد العناصر المطالبة بالاستعمار وبحق إيطاليا في أن يكون لها مستعمرات أسوة بالدول الكبرى. وشجع افتتاح قـــناة السويس العديد من شركات الملاحة وغيرها من أنصار الاستعمار على الضـــغط على الحكومات الإيطالية لتكون لإيطاليا ميناء بشرق أفريقيا لخدمة السفن الإيطالية. وصمَّت الحكومات الليبرالية الإيطالية آذانها عن فكرة حيازة مستعمرات. وكانت إيطاليا تمر بسلسلة من المشاكل الداخلية الناتجة عن ضم مقاطعـــات ودول عاشـــت قـــرونا منعزلة عن بعضها وتتفاوت في قدراتها الاقتصـــادية وتطورها الحضاري. لقد كان جنوب إيطاليا الذي حكمته أسبانيا والـــبوربون عـــدة قـــرون يعاني من التخلف والفقر والجريمة، وكان مئات الآلاف مـــن أبنائه يهاجرون في كل عام إلى أمريكا وغيرها من البلاد طلبا للعمـــل والـــرزق. وكـــان رجال وساسة الجنوب من أشد المطالبين بالتوسع الاستعماري ظنا منهم أنه سيحل مُشاكلهم. وأخيرا استطاعت شركة روباتينو للملاحـــة أن تـــنال موافقـــة الحكومـــة على شراء قطعة أرض من المشايخ المحلييـــن في عصب خاضعة للسيادة المصرية. وظلت إيطاليا تجاهد لعشر ســـنوات من أجل بسط سيادتها على قطعة الأرض المذكورة، ولم تحقق ذلك إلا بموافقـــة بريطانـــيا التي أوعزت إليها فيما بعد باحتلال مصوّع وتكوين مســـتعمرة إرتـــريا. وكـــان الغرض من مساعدة بريطانيا هذه، وجود دولة أوروبـــية مـــن الدرجـــة الثانية لمضايقة فرنسا في المنطقة وعرقلة توسعها. وتخلـــت إيطالـــيا بعد مؤتمر برلين عن مبادئها الليبرالية، وهو المؤتمر الذي وزعـــت فيه الممتلكات على الدول الأوروبية وخرجت منه إيطاليا بخيبة أمل شديدة بعد أن ضاعت منها تونس التي كانت تؤمل أن تكون من نصيبها.

وتولـــى كريســـبي الوزارة عام 1887 وهو من مواليد صقلية ومن أشد الساســـة الإيطالييـــن تمسكا بالتوسع الاستعماري كحق من حقوق إيطاليا وكان يحلـــم باحـــتلال أثيوبـــيا وليبيا وتكوين إمبراطورية إيطالية. فأرسل قواته إلى

الأولـــى لاحـــتلالها، وأرســـل جواسيسه وأعوانه إلي الثانية وأنشأ فيها مراكز تجاريـــة ومدارس تمهيداً للاحتلال. غير أنه أصيب بهزيمة عسكرية فادحة في الأولـــى قضـــت علـــى مســـتقبله السياسي، وفشل في الثانية فأغلقت مراكزه ومدارسه وانسحب جواسيسه وأعوانه. وأصيب أنصار الاستعمار بإحباط شديد إلا أن الدبلوماســـية الإيطالـــية واصلت مساعيها للحصول علي موافقة الدول الكبرى على إطلاق يدها في ليبيا. وفازت في نهاية القرن بموافقة فرنسا على احـــتلالها ليبـــيا مقابل احتلال الأخيرة للمغرب. ألا أن التمهيد الجدي لاحتلال ليبيا بدأ مع عودة جوليتي إلى الحكم للمرة الثانية عام 1903، فأرسل إلى ليبيا عمـــلاء لشراء الأعوان والذمم والاتصال بالعناصر المعادية لتركيا وتشجيعها ومساعدتها وإقناعها بالتعاون مع إيطاليا ضد الأتراك، وكذلك الاتصال بالقبائل المتـــنافرة وتحـــريكها لقتال بعضها البعض. ولم يحقق هذا البرنامج شيئاً مما أراده جوليتـــي بســـبب عدم الجدية وقلة الخبرة بهذه الأمور، وبسبب إصرار الشـــعب الليبـــي علـــى مقاومة الغزو. وأدرك جوليتي من التقارير التي كانت تصـــله أن السنوســـية التي كانت تواجه القوات الفرنسية في التشاد قد تقف في وجـــه الغـــزو الإيطالي باعتبارها القوة المنظمة في ليبيا وهي، وفقاً للتقارير، ليســـت علـــى علاقـــات طيبة مع الأتراك، ولذلك يجب استمالتها والدخول في حـــوار معها. وبما أن القناصل الإيطاليين في بنغازي وطرابلس لم يفلحوا في جـــر السنوســـية إلي الحوار، فقرر أن يرسل بعض أعوانه الذين يثق فيهم إلى القاهرة للقيام بهذه المهمة بعيداً عن القنوات الدبلوماسية المعتادة. وقد جاء في مذكـــرات جوليتـــي " وأثناء حكومتي السابقة، شغلت مباشرة بتوقع قرب قيام إيطالـــيا بحملـــة ليبـــيا. وانطلاقـــاً مـــن فكرة الإعداد المحلي، والاستفادة من الصـــراعات والانشقاقات وتذمر الزعماء المحليين من السلطة التركية، حركت فـــي بـــرقة وطرابلس غرب بعض عملائي، أذكر من بينهم محمد علي علوي بـــك، وهو مصري، سبق له أن قدم خدمات أخرى لإيطاليا. وقد أقام علاقات بشيخ السنوسية وشخصيات أخرى، لا يحسن ذكر أسمائها الآن لوجودها على

قـيد الحـياة، واحـتمال تعرضها للانتقام. وقد كانت هي أيضا من العناصر المنضـوية إلى السنوسية بالجامعة الأزهرية بالقاهرة"[2]. وقرر جوليتي أيضاً الاسـتفادة مـن الأربعيـن ألف إيطالي المقيمين في مصر ومن المستشرقين الإيطاليين الذين كانوا يُدَرِّسون بالجامعة المصرية لنشر اللغة والثقافة الإيطالية بيـن المصـريين ومحاولة إقناعهم بأن استيلاء إيطاليا على ليبيا هو من أجل تخليصـها مـن حالة التخلف والفقر والإهمال التي وصل إليها الشعب الليبي ومساعدته على التقدم الحضاري إسوة بجيرانه المسلمين.

* * * *

مـن المعروف أن الكتاب الإيطاليين الذين تعرضوا لأحداث ليبيا وقت الغـزو وفي الفترة التي سبقته وفي فترة المقاومة الطويلة، استندوا دائماً إلى المصـادر الرسمية وخاصة في العهد الفاشستي الذي كان لا يسمح بنشر أي شـيء لا يعكـس سياسية النظام. أما في العهد الذي سبق الفاشية فقد كانت الـرقابة علـى المطبوعات شديدة ويكفي القول بأن حاكم برقة العسكري – وقت الغزو – أمر بطرد جميع الصحافيين ومنع دخولهم البلاد كي لا ينشروا شيئاً عن المصاعب التي كانت تواجهها القوات الإيطالية وعن حجم الخسائر التـي منيت بها. وقد اعترف جوليتى أنه كان يزوّر البلاغات الرسمية خشية أن يعلـم الشـعب بحقـيقة الوضع في ليبيا. ومع أن الإنتاج العلمي والثقافي الإيطالي غزير حول موضوع المستعمرات، غير أنه من الملاحظ غياب أي عمـل تحليلـي نقدي للفكر الإيطالي في الفترة السابقة للاستعمار وفي فترة الاسـتعمار نفسـه، وذلـك بالنسـبة للإنـتاج الفرنسي والبريطاني في هذا الخصوص فالإيطاليون، بصورة عامة، أحجموا عن نقد ما كتبه أسلافهم.

اسـتعادت إيطاليا بعد الحرب حرية النشر والكلمة وحرية الفكر، وشرع

---

(2) خليفة التليسي – مذكرات جوليتي – طرابلس ص 47.

بعض المؤرخين الإيطاليين في إعادة كتابة قضية المستعمرات الإيطالية السابقة بشـــيء مـــن الموضوعية وعدم التحيز، وذكر الحقائق بقدر ما توفر لديهم من مـــراجع موضوعية، إلا أنهم اضطروا إلى استعانة بالمصادر الرسمية وأدبيات الاستعمار القديمة من أجل سرد الوقائع والأحداث دون التعرض لها بتحليل أو نقـــد مـــتعمق لاستخلاص الحقيقة. ومع ذلك، فقد قدم هؤلاء الكتاب مساهمة ثمينة في كتابة تاريخ تلك الحقبة الاستعمارية. وتعرضت فئة أخرى من الكتاب الإيطاليـــين لـــتاريخ الاستعمار الإيطالي في ليبيا وكانوا أكثر صراحة وجرأة وأقـــل حذراً، حيث هاجموا أعمال الحكومات الاستعمارية في ليبيا وتصرفات قادتها وانتقدوا أعمالها اللاإنسانية التي ارتكبتها في ليبيا طيلة فترة استعمارها.

ولـــم نعثر، رغم ما بذلنا من جهود محدودة، على أي كتاب أو دراسة يعـــتد بهـــا تتعلق بالنشاط الذي بذلته إيطاليا في بداية القرن العشرين للإعداد لاحـــتلال ليبـــيا. وقد نشر مركز جهاد الليبيين في عام 1980 ترجمة لكتاب صـــدر باللغـــة الإيطالـــية بعنوان "العلاقات العربية ـ الإيطالية " (3) تضمن مذكـــرات الدكـــتور إنـــريكو إنســـاباتو الذي قام بالدور الرئيسي في النشاط الإيطالـــي بمصـــر، والـــذي كان يدعي الاستشراق والخبرة بالعالم العربي والإســـلامي دون أن يعرف اللغة العربية. ونشر الكتاب بعد وفاته، والكتاب مشـــوش بـــه كثير من الأخطاء والمغالطات والمتناقضات وقد أورد ما كتبه إنســـاباتو عن نشاطه بالقاهرة مدعماً بالتقارير والرسائل التي كان يبعث بها إلي رئيس الوزراء جوليتي والمحفوظة بوزارة الخارجية الإيطالية في الوقت الحالـــي، ورسائل أخرى كانت تصل إلى شريكه في العمل محمد علي علوي الذي كان على علاقة ببعض أفراد العائلة السنوسية بالكفرة.

وفـــي عام 1997 نشرت الكاتبة الإيطالية أنا بالدينتي (4) كتاباً بعنوان

---

(3) كارلو فوتي بورشيناري ـ العلاقات العربية ـ الإيطالية ـ ترجمة عمر الباروني ـ مركز جهاد الليبيين ـ طرابلس 1980

(4) ANNA BALDINETTI : ORIENTALISMO E COLONIALISMO _ ROMA 1997.

الاستشـــراق والاســـتعمار اســـتندت فـــيه إلى وثائق بمحفوظات الحكومات الإيطالـــية والمصـــرية والبريطانية، وعلى وثائق السفارة الإيطالية بالقاهرة وعلـــي الصحافة العربية وغيرها من المصادر التي مكنتها من إعطاء فكرة واضـــحة عن نشاط الدكتور إنساباتو ومعاونيه بالقاهرة خلال العقد الأول من القرن العشرين، وكذلك دراسة قيمة عن دور المستشرقين الإيطاليين بجامعة القاهـــرة في إعداد الرأي العام المصري بعدم اتخاذ موقف عدائي من إيطاليا فـــي حالـــة غزوها لليبيا. وكانت الحكومة الإيطالية تتوقع أن تساهم الجالية الإيطالـــية والبيت المالك المصري في تحقيق هذه الفكرة التي تدل على جهل إيطاليا المطلق بأوضاع البلاد العربية والإسلامية ومشاعر شعوبها وتمسكها بالقومية العربية والرابطة الإسلامية والخلاص من المستعمر.

تـــاريخ ليبيا في فترة الاستعمار الإيطالي لا يزال في حاجة إلى المزيد مـــن البحث والدراسة وخاصة أن معظم ما كتب عن هذا التاريخ من وضع كتاب إيطاليين، والقلة من الكتب العربية التي تناولت تاريخ هذه الفترة، سواءً نشـــرت أعمالهـــا فـــي داخـــل ليبيا أم في خارجها، قد تغلبت على معظمها الحساســـيات السياســـية والإقليمـــية والقبلية والأسرية، ولم تستطع أن تعكس الواقع التاريخي الليبي الذي لا تزال بعض جوانبه غامضة. إلا أننا نرجو من جـــيل الكتاب الجديد الذي أصبح يتبع الأسلوب الأكاديمي التحليلي النقدي أن يوفق في تغطية الفراغ في تاريخ الفترة الاستعمارية.

والكـــتاب الذي بين يدي القراء محاولة متواضعة لإلقاء الضوء على بعض الجوانب التاريخية التي ظلت شبه منسية لفترة طويلة، والخاصة بالتمهيد الإيطالي لغزو ليبيا والذي كانت القاهرة مقرًا لـــه كما سبـــق وذكرنا. واستعانت إيطاليا في ســـبيل تحقيق أغراضها ببعض علماء الأزهر والمستشرقين والمثقفين الإيطاليين العامليـــن بالجامعـــة المصـــرية الوليدة، وببعض أعضاء البيت المالك المصري، والجالـــية الإيطالـــية بمصـــر، وعملاء كانت لهم في السابق علاقات بالسنوسية

ورجـــال الديـــن، والقناصـــل الإيطاليين في بنغازي وطرابلس والقاهرة. وتعتبر عملــيات التمهــيد التي جرت في القاهرة في بداية القرن من أهم عمليات التمهيد الإيطالية وأذكاها من حيث الوسائل والأساليب والأهداف. وقد اتخذت إيطاليا بعد الغزو من الأراضي المصرية مركزاً لمحاولات إيجاد صلح مع الليبيين وتفاهم مع السنوســـيين وكـــثر الوسطاء الذين عرضوا على إيطاليا خدماتهم للتوفيق ما بين الطرفيـــن. وفشـــلت جمـــيع الجهود لأن الإيطاليين كانوا مصرِّين على الاحتفاظ بسيادتهم والمجاهدين كانوا لا يريدون عن الاستقلال بديلاً.

وفـــي إطـــار التمهـــيد الإيطالـــي للاستيلاء على ليبيا يبرز بنك روما كالعـــامل الرئـــيس في سياسية التوغل السلمي الرامية إلى التغلغل التدريجي اقتصـــاديًا وسياســـيًا إلـــى أن يتم الاستيلاء على البلاد دون قتال أو حرب. ويعتـــبر الكثـــيرون مـــن السياسيين الإيطاليين أن بنك روما بدلاً من تهيئة الأجـــواء المحلية لتمكين إيطاليا من الاستيلاء على ليبيا سلمياً فقد عمل على دفـــع الحكومة إلى احتلالها عسكرياً. وقد أثار نشاط بنك روما في ليبيا جدلا حـــول فشـــله في مهمته وحول دوره في التعجيل بغزو ليبيا. وقد نشرت في الســـنوات الأخـــيرة بعض الدراسات والبحوث لكتاب إيطاليين تتعلق بأعمال البـــنك في ليبيا وإنجازاته وعلاقاته بالليبيين والسلطات المحلية وأسباب فشله وخســـائره، وقـــد اســـتندنا في هذا الصدد على مختلف هذه الآراء لكي نقدم للقارئ صورة شبه متكاملة لنشاطات بنك روما في ليبيا قبل الغزو وبعده.

وأرجـــو أن أكـــون قـــد تمكنت من المساهمة في التعريف بجانب من جوانب عمليات التمهيد التي قامت بها إيطاليا لاحتلال ليبيا.

وبالله التوفيق

وهـبـي البوري

الفصل الأول

إيطاليا والتوسع الاستعماري

1 – المطامع الإيطالية في تونس

2 – قناة السويس

3 – تكوين أول مستعمرة إيطالية

4 – مؤتمر برلين

5 – ردود الفعل الليبية والتركية

6 – التركيز على ليبيا

أطلت إيطاليا على العالم كدولة موحدة مستقلة عام 1860 بعد أن ظل معظمهـــا، بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية، مقسماً وخاضعاً لدول أخرى وقـــد لازمتها منذ ولادتها مشاكل الجنوب. فقد كان الشمال متقدماً ومزدهراً نســـبياً بصناعته واقتصاده وتقدمه، في حين كان الجنوب متخلفاً فقيراً تسيطر علـــيه عصــــابات المافـــيا وقطــــاع الطرق والبطالة. وتكفي الإشارة إلى أن التســـعين في المائة من سكانه في تلك الفترة كانوا من الأميين، وسبعين في المائـــة مـــن رجاله كانوا يحاولون الهجرة إلى خارج الوطن بحثاً عن العمل الـــذي لا توفـــره لهم بلادهم. وكان المهاجرون يعدون بمئات الآلاف في كل عـــام، وكـــان الجـــنوب في حاجة إلى المستشفيات والمدارس والمياه النقية والطـــرق والأمن والأهم من كلٍّ ذلك الحاجة إلى العمل. ومن المعروف أن فرنســـا وبريطانيا ساعدتا إيطاليا على تحرير أراضيها وتحقيق وحدتها، غير أن فرنســـا وقفـــت فـــي وجههـــا عندما حاولت احتلال روما وهزمت قوات غاريـــبالدي دفاعـــاً عـــن الـــبابا وظلت إيطاليا عشر سنوات لا تجرؤ على الاقـــتراب مـــن روما إلا بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا عام 1870، فانتهزت الفرصـــة واحتلت روما في نفس العام في حين اعتكف البابا داخل الفاتيكان رافضـــاً الاعتراف بسيادة المملكة الإيطالية على روما، وطلب من الكاثوليك عدم التعاون مع المملكة الإيطالية الجديدة.

وتزامـــن مولد الدولة الإيطالية الموحدة مع مرحلة التكالب الأوربي على اقتـــناء المســـتعمرات، وقـــد اكتســـحت رياح الإمبريالية في تلك الآونة أوربا، وتـــبلورت أســـطورة الـــرجل الأبيض وتفوقه وحقه في السيادة على الشعوب الأخـــرى. ووجـــدت هـــذه الظاهـــرة معتنقيها ومؤيديها في أوربا وكانت لها انعكاســـاتها على إيطاليا أيضاً حيث احتضنتها فئة صغيرة من الحالمين بأمجاد رومـــا والجمعـــيات الجغرافـــية والرحالة وشركات الملاحة، أما عامة الشعب

والحكومات فقد كانوا بعيدين عن فكرة التوسع الاستعماري، فالتخلف الاقتصادي والصناعي وقلة رؤوس الأموال كانت لا تشجع على أي توسع استعماري رغم زيـــادة عدد السكان الذي كان يبرر هذا التوسع، وقد كانت هناك أصوات ترتفع لـــتؤكد بـــأن علـــى إيطاليا قبل أن تستعمر بلاد الغير أن تستعمر مناطق كثيرة فـــيها[5]. وكتب الصحافي الكبير مونتانيللي أن فكرة التوسع الاستعماري كانت محدودة في بلد تعود على ترجمة الأحداث إلى البلاغة اللفظية [6].

وشـــاركت إيطالـــيا في معركة التكالب على المستعمرات نتيجة لعقدة الشـــعور بالنقص بالنسبة للدول الأوربية الأخرى التي لازمتها منذ تحريرها ووحدتهـــا، والشعور بتدني وضعها العسكري والاقتصادي. " وكان ما يزيد مـــن شـــعور إيطالـــيا بالعجـــز والنقص ويزيد من هبوط العزائم، المقارنة المســـتمرة مع ألمانيا التي تخلصت من الهيمنة النمساوية وتوحدت تقريباً في نفس الوقت الذي توحدت فيه إيطاليا " [7].

❖ المطامع الإيطالية في تونس

كانت علاقات إيطاليا بتونس سابقة على وحدتها، فعندما كانت تونس دولـــة قويـــة مســـتقلة تتعامل مع الدول الأوربية على قدم المساواة، كانت إيطالـــيا لا تزال ممزقة تخضع أغلب مناطقها لسيادة دول أخرى، وعندما تحررت وتوحدت وأصبحت دولة كبيرة وقارن بعض مفكريها بين وحدتها والتوســـع فـــي تونـــس وطـــرابلس، وكان على رأسهم السياسي المعروف جوزيبى ماتسيني Mazzini .

---

(5) وزارة الخارجية الإيطالية ـ إيطاليا في أفريقيا ـ أثيوبيا والبحر الأحمر روما 1952 ص 83 – 87 .

(6) IDRO MONTANELLI : L'ITALIA DI GIOLITTI _ MILANO _ 1975 _ P.136

ادرومونتانيللى – إيطاليا جوليتي – ميلانو 1945 ص 136 .

(7) BENEDETTO CROCE _ STORIA D'ITALIA-BARI _ 1975-P . 93

بنيد تو كروتشي وتاريخ إيطاليا ـ باري ـ 1975 – ص 93

ودفعــت هــذه الفــئات الحكومة على التفكير في احتلال تونس رغم مشــاكلها الكثيرة، واعتقدت أن الفرصة سانحة لاقتناء مستعمرة وخاصة أن تونــس تعيش فيها جالية إيطالية كبيرة واكتسبت فيها إيطاليا حقوقاً أكثر من أيــة دولــة أخــرى. وطلبت إيطاليا من فرنسا موافقتها على احتلال تونس فاشــترطت الأخــيرة تنازل إيطاليا عن روما لتظل عاصمة للفاتيكان مقابل استيلائها على تونس [8] .

وتــزايد الــنفوذ الإيطالي في تونس بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا عام 1870 وتــزايد عــدد أفــراد جاليتها حتى تجاوز العشرين ألف في حين لم يــتجاوز عــدد الفرنسيين السبعمائة نسمة. وكانت الدولة التونسية لا تخشى خطر إيطاليا بقدر ما كانت تخشى خطر فرنسا الذي كان يهددها منذ احتلال فرنســا للجزائــر عــام 1830 وتركــيز أطماعها على تونس وربما تتذرع بــتعاطف الشــعب التونسي مع الجزائر ومساندة القبائل التونسية للمجاهدين الجزائريين الذين تصدوا لفرنسا. وحاولت الحكومة التونسية أن يكون لإيطاليا وبريطانيا مصالح بتونس تدفع عنها الخطر الفرنسي، فشجعت بريطانيا على أن يكــون لهــا وجود بتونس، وكانت الحكومة البريطانية تدرك أهمية البحر الأبيض بالنسبة لمواصلاتها مع آسيا والمحيط الهادئ بعد شق قناة السويس، وكانــت تطمع في الحصول على ميزات لتأمين هذه المواصلات، وأوعزت بريطانيا إلى تونس بطلب الحماية التركية غير أن المسئولين التونسيين كانوا لا يؤمنون بتدخل تركي جاد في حالة اعتداء فرنسا على بلادهم، فقد حاولت تركــيا، بعــد احــتلال فرنسا للجزائر، أن تنقذ تونس وطرابلس من الخطر الفرنســي. فنجحــت في احتلال ليبيا عام 1835، في حين تصدت لها فرنسا

---

(8) ALESSANDRO LESSONA _ L'AFRICA SETTENTRLIONALE NELLA POLITICA MEDITERRANEA – ROMA 1942, P. 62.

أ. ليسونا -- شمال أفريقيا في سياسة البحر الأبيض – روما 1942 ص 62 .

وحالــت دونها ودون احتلال تونس وقد قام طاهر باشا، والي طرابلس، عام 1857 بإرســال قــوة بحرية لاحتلال تونس، غير أن الأسطول التركي وجد الأسطول الفرنسي في انتظاره بالمياه التونسية وعادت القوة البحرية التركية إلــى قواعدهــا تحاشياً للاصطدام بالقوات الفرنسية. وجاءت المحاولة الثانية عــام 1865 عــندما حاولــت تركيا من جديد احتلال تونس، ومهدت لذلك بإرســال بعض الشخصيات الهامة إلى تونس لإقناع المسئولين بضرورة ضم تونــس إلى الإمبراطورية العثمانية لإنقاذها من التهديد الفرنسي، وتجمّع لهذا الغــرض آلاف المتطوعين في غدامس وذلك إلى جانب قوات نظامية تركية قاربت على الخمسة وثلاثين ألف رجل. وضغطت أوربا ـ بطلب من فرنسا ـ علــى تركــيا لمنع الحرب بين البلدين خشية أن تتحول إلى حرب أوربية شــاملة. وكانت المحاولة التركية الثالثة عام 1871 عندما أصدرت الحكومة التركــية فــرمان من السلطان بتعيين بآي تونس بصفته تابعاً للدولة العثمانية وقامت قيامة [9] فرنسا وعملت على إفشال هذه المحاولة، وظل الفرمان حبراً علــى ورق، وتوطــدت العلاقــات الطيبة بين إيطاليا وتونس واستمر تغلغل النفوذ الإيطالي الاقتصادي والبشري، واعتقدت إيطاليا أنها اكتسبت حقوقاً في تونــس تحول دون أية دولة أوربية أخرى والتفكير في احتلالها وذلك إلى أن تسمح الظروف الدولية والداخلية لها ببسط نفوذها السياسي عليها.

وكانــت تونــس في تلك الفترة تمر بنهضة حضارية، بدأها الصادق بــآي، وقــد شــملت إنشــاء قوة عسكرية حديثة وإدارة متطورة، وتطوير الزراعة والاقتصاد والتعليم والقضاء وضمان حقوق الإنسان ووضع دستور عصري للبلاد، وغير ذلك من مقومات الدول المعاصرة. وقد وجدت تونس فــي المهاجريــن الإيطاليين الخبراء والفنيين واليد العاملة المدربة لتحقيق

(9) J.PICHON : LA QUESTIONE DE LIBYE – PARIS 1945, P. 43– 44 .
جان بيشون ـ المسالة الليبية ـ باريس 1945 – ص 43 – 44

طموحاتها وفتحت أبوابها لتتقبل المزيد منهم، وعمل الإيطاليون في مختلف مجـالات الحـياة التونسية وكانت مساهمتهم في بناء تونس الحديثة كبيرة وملموسة ولم يساور التونسيون آنذاك أي شكٍّ في أن تكون لإيطاليا مطامع للاستيلاء على بلادهم.

❖ قناة السويس

يعتـبر افتـتاح قـناة السويس عام 1869 نقطة تحول هامة في تاريخ الـبحر الأبيض المتوسط وتاريخ الاستعمار والمواصلات الدولية. فقد فتحت قـناة السـويس آفاقـا جديدة أمام التوسع الاستعماري وغذت عملية التوسع الإمبريالي في أفريقيا وآسيا، حيث شرعت الدول الإمبريالية في تأمين قواعد ومرافئ ومواقع استراتيجية على طول سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي لتأمين مصالحها وحماية مواصلاتها.

وبعـث هذا الحدث آمالاً كبيرة في الأوساط الملاحية الإيطالية وبعض الأوساط الرأسمالية التي وجدت فيه فرصة للتوسع التجاري والملاحي وإنشاء خطـوط ملاحة تربط الموانى الإيطالية بالشرق واستعادة نشاط الجمهوريات الـبحرية الإيطالية التي ازدهرت في الماضي وكانت الجسر الذي كان يربط بيـن الشـرق وأوربـا. وقد شكلت الحكومة الإيطالية في عام 1871 لجنة لدراسـة إمكانـية البحـث عن مستعمرة لاتخاذها مستعمرة منفى أو مركزاً تجاريـاً أو للغرضـين معاً، مع الأخذ بعين الاعتبار أوضاع إيطاليا الداخلية وطرق التجارة العالمية المفتوحة أو التي ستفتح قريبا [10].

وقصة البحث عن مستعمرة منفى كانت تبرز إلى الوجود كلما اكتظت السـجون بالـنزلاء وازدادت حوادث السطو والإجرام والفرار من السجون

(10) MINISTERO AFFARI ESTERI : L'ITALIA IN AFRICA – SERIA STORICA ETIOPIA –MAR ROSSO. ROMA 1959, p.12.

وكـــان بعض المبشرين والتجار الإيطاليين الموجودين بشرق أفريقيا يلحون علـــى الحكومـــة بشراء قطعة أرض على ساحل البحر الأحمر وتحويلها إلى مســتعمرة. وكانـــت مجموعة من الرهبان استوطنوا أثيوبيا منذ أوائل القرن التاســـع عشـــر وألقى بعضهم جانباً بملابس الرهبنة ومارسوا التجارة وكان همهم جميعًا أن تكون لإيطاليا بالمنطقة قاعدة تحميهم وتحمي مصالحهم.

وقـــد استطاعت شركة روباتينو RUBATTINO الملاحية شراء قطعة أرض بواســطة الرهـــبان المذكوريـــن، في خليج عصّب شمال أثيوبيا، يبلغ امـــتدادها علـــى ساحل البحر ستة كيلو مترات، وذلك بموافقة وعلم الحكومة الإيطالية التي أرادت أن تختفي وراء الشركة.

واحتجت الحكومة المصرية صاحبة السيادة على عصّب ومنعت شركة روباتينو من القيام بأي عمل في الموقع بدون موافقتها، ومن المعلوم أن تركيا بســـطت ســـيادتها علـــى البحر الأحمر وسواحل أفريقيا الشرقية منذ القرن الســـادس عشـــر عـــندما اســـتنجدت بها الإمارات الإسلامية لصد العدوان البرتغالي، غير أنه مع بداية انهيار تركيا أصبحت سيادتها على البحر الأحمر سيادة رمزية، في حين أخذت مختلف المشيخات والقبائل تمارس شبه استقلال ذاتـــي مكّـــنها مـــن بيع أو تأجير أجزاء من أراضيها للدول الإمبريالية. وقد احتلـــت مصـــر السودان عام 1820، وكانت تخشى التهام الدول الإمبريالية لســـواحل الـــبحر الأحمر، الأمر الذي يعرض السودان ومنابع النيل للخطر، ولذلـــك طلبت من السلطان العثماني التنازل لها عن سواكن و مصوع مقابل 750 ألـــف لـــيرة تركـــية، كمـــا تنازلت فيما بعد عن زيلع (1875) واعتبر الخديـــوي التنازل العثماني شاملاً لجميع الأراضي الواقعة على الساحل من مصوع إلى باب المندب بما في ذلك زيلع وبلهار وبربرة.

وأصـــرت إيطاليا على أن التنازل التركي لمصر عن سواكن ومصوع لا يشـــمل الأراضـــي الواقعـــة جـــنوب مصوع في حين تمسكت مصر بأن

ممتلكاتها تمتد من السويس إلى القرن الأفريقي، وأخيراً اقترحت إيطاليا تجميد الموضوع وظلت عصّب عشر سنوات على ما كانت عليه قبل شرائها. وكانت بريطانيا قد عقدت اتفاقا مع مصر عام 1877 اعترفت فيه بالسيادة المصرية على جميع أراضي الساحل الصومالي من زيلع حتى رأس حافون، وذلك في إطار السيادة العثمانية، وكانت بريطانيا تريد أن تتخذ من السيادة العثمانية على البحر الأحمر أداة لإيقاف التغلغل الفرنسي والإيطالي.

❖ تكوين أول مستعمرة إيطالية

لم تكن ولادة أول مستعمرة إيطالية سهلة وبدون عناء وإذلال وانتظار طويل، فمنذ شراء شركة روباتينو لعصّب (1869)، وحتى إعلان إيطاليا سيادتها عليها (1882)، واجهت إيطاليا مصاعب ومشاكل مع المشائخ ومع بريطانيا ومصر وفي داخل إيطاليا نفسها؛ فقد ظلت المعارضة البريطانية شديدة طيلة هذه السنوات، وظلت مصر متمسكة بسيادتها على المنطقة ولجأت إيطاليا إلى الكذب والتضليل لإخفاء حقيقة نواياها. وقد أكد رئيس الحكومة الإيطالية في رسالة إلى رئيس الحكومة البريطانية : " أن إيطاليا لا أهداف لها سياسية أو أية نوايا أخرى ترمي إليها من وراء احتلالها لأي جزء من ساحل البحر الأحمر" [(11)]. كما حاولت إيطاليا أن تضع بريطانيا ومصر أمام الأمر الواقع بإنشاء مخزن للسلع والوقود في عصّب بصفتها صاحبة السيادة على الأرض التي اشترتها من المشائخ المحليين، غير أن رد الفعل المصري أجبر إيطاليا على التراجع.

ووقعت في بداية عقد الثمانينات أحداث كان لها تأثيرها الواضح على سياسة بريطانيا في البحر الأحمر.

---

(11) وزارة الخارجية الإيطالية ـ إيطاليا في أفريقيا، المراجع السابقة الذكر ص 189.

فقــد قامـــت ثــورة عرابي في مصر وأدت إلى احتلال بريطانيا لها واحتلـــت فرنســـا تونـــس، وتفجرت ثورة المهدي في السودان وأخذت تهدد باكتساح شرق أفريقيا، فشعرت بريطانيا بالحاجة إلى وجود دولة أوربية من الدرجـــة الثانـــية كإيطاليا للمساهمة في إبعاد خطر ثورة المهدي عن ساحل البحر الأحمر وخاصة أن العداء المستحكم بين إيطاليا وفرنسا سيدفع بالأولى إلـــى رصـــد التحركات الفرنسية ومحاولات توسعها في المنطقة. واستغلت إيطالـــيا الظـــروف التـــي تمـــر بها المنطقة. فشددت الضغط على بريطانيا للاعتراف بسيادتها على عصب بعد أن فقدت مصر سيادتها عليها وأصبحت تابعة لبريطانيا. وتوصّلت إيطاليا إلى عقد اتفاق مع بريطانيا عام 1882 نص علـــى اعتراف خديوي مصر بشرعية الأراضي التي اشترتها إيطاليا ما بين عامـــي 1870 و 1880 الواقعـــة على ساحل البحر الأحمر الأفريقي بجميع حقوق الملكية والسيادة على هذه الأراضي وتعترف بريطانيا بسيادة مصر و الباب العالي على بقية الأراضي الخاضعة للسيادة المصرية، إلا أن بريطانيا ســـرعان مـــا تنكرت لهذا الاتفاق وتجاهلت مصر وحقوقها، وشجعت إيطاليا علـــى احـــتلال مصوع لتضمها إلى أراضيها السابقة وتكون بذلك مستعمرة أرتريا أولى مستعمراتها وممتلكاتها في أفريقيا.

ولـــم يحالف الحظ إيطاليا في أولى مغامراتها الاستعمارية؛ فقد حاولت أن تحـــتل أثيوبيا إلا أنها منيت بهزيمة نكراء في عدوة على يد الإمبراطور منليك في عام 1896.

❖ مؤتمر برلين

يعتبر مؤتمر برلين أكبر تجمع دولي يعقد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لتسوية أوضاع البلقان تمشياً مع اتفاق سان استيفانو الذي تم بعد هزيمة تركيا أمام روسيا عام 1877 – 1878، وتخليها عن معظم ممتلكاتها

فـــي البلقان والبحر الأسود. وكانت روسيا تطمع في احتلال اسطمبول إلا أن بريطانيا ساندت تركيا وحالت دون روسيا والاستيلاء على المضائق. وسيطر علـــى المؤتمـــر بسمارك مستشار ألمانيا كما سيطرت عليه الروح الصليبية حيث تقرر منح الاستقلال للولايات العثمانية المسيحية ومنح الاستقلال الذاتي للولايات العثمانية التي غالبية سكانها من المسيحيين في حين حرمت البوسنا والهرســـك وألبانيا من الاستقلال. وقسم مؤتمر برلين الأراضي التي انتزعت مـــن تركـــيا بيـــن الـــدول الأوربية ففازت فرنسا بتونس، وبريطانيا بمصر وقـــبرص، والنمســـا بالبوسنا والهرسك، وروسيا بباطوم وأردهان وغيرها. واستقلت صربيا والجبل الأسود ورومينيا وضمت أراضي إلى بلغاريا لتوسيع رقعتها، وظلت إيطاليا والنمسا تتنافسان على ألبانيا، وخرجت الدول الأوربية مـــن المؤتمـــر بنظرية المحافظة على كيان تركيا بعد أن مزقته ونهبت من أجـــزائه ما استطاعت. وخرجت إيطاليا من المؤتمر خالية الوفاض ولم تفز مـــن الغنيمة بشيء، ولم تعترض على حصول فرنسا على تونس ولم تطالب بحقـــوق جاليـــتها، وعندما سأل بسمارك وزير خارجية إيطاليا لماذا لم تحتل بلاده تونس، أجابه " نحن لا نرغب في معاداة فرنسا" [12].

وأحدث احتلال فرنسا لتونس موجة من الغضب في إيطاليا والاستنكار لمـــا فعلـــته فرنسا واستهانتها بإيطاليا والاعتداء على حقوقها و ازدادت حدة الـــتوتر بيـــن البلدين، إبان حكم كريسبى Crispi للبلاد، وأدى هذا التوتر إلى القطعـــية بيـــن البلدين التي طالت التبادل التجاري وكانت إيطاليا تصدر ثلث محصولها الزراعي إلى فرنسا. وكانت فرنسا عنيفة في ردود فعلها، فشعرت إيطاليا بالضيق والعزلة والإذلال فقررت الارتماء في أحضان ألمانيا والنمسا أو في ما كان يسمي بالحلف الثلاثي رغم أن عداء النمسا لها أشد وأقوى من عداء فرنسا، فهي تحتل أراضى يسكنها أكثر من مليون إيطالي.

(12) بارولومالطيزي، الأرض الموعدة ـ الترجمة العربية ـ طرابلس 1992 ص 33

❖ ردود الفعل التركية والليبية

لـــم تقف تركيا مكتوفة الأيدي إزاء احتلال فرنسا لتونس وقد اقترحت الدخول في مفاوضات مباشرة مع فرنسا للوصول إلى تفاهم حول الموضوع، أو قـــيام الـــدول الموقعة على معاهدة برلين بالوساطة، غير أن ردود الفعل التركـــية هذه لم يكن لها أي صدى لدى فرنسا أو الدول الأوروبية الأخرى، فعمـــدت حكومـــة استانبول إلى مساعدة الثوار التونسيين في مناطق الجنوب المـــتاخمة لليبـــيا وأقامت لهذا الغرض معسكرات قرب الحدود وحثت الناس على الجهاد، فاتسع نطاق الثورة وامتدت إلى مناطق أخرى.

ورفضـــت الحكومة التركية في نفس الوقت اعتبار التونسيين المقيمين فـــي أراضـــي الإمبراطورية من رعايا فرنسا، واتهمتها بأن لها مطامع في طـــرابلس، الأمـــر الذي أزعج كلا من إيطاليا وبريطانيا، ولم تعترف تركيا بحماية فرنسا على تونس إلا في عام 1910.

وكـــان رد فعل الليبيين في طرابلس على احتلال فرنسا لتونس غاضباً وفـــاعلاً وقـــد تعـــاطفوا مع إخوانهم التونسيين في محنتهم وشعروا في نفس الوقـــت بالخطـــر الـــذي كان يتهددهم، فقامت المظاهرات والمسيرات ضد الأوربييـــن تعبـــيراً عن غضبهم وعن مشاعر التضامن والتأييد لإخوانهم في تونـــس، وطالـــب رجـــال البلاد ووجهاؤها الحكومة التركية بتحصين البلاد وتعزيـــز وســـائل الدفاع عنها، كما طالبوا بالتطوع للدفاع عن تونس وتقديم المساعدات لها (13). وقامت الحكومة التركية، تحت ضغط المواطنين الليبيين باتخاذ بعض الاحتياطات العسكرية، منها إقامة نقاط عسكرية على الحدود مع تونـــس وتعزيز الحامية التركية في طرابلس. وذكر المؤرخ الطرابلسي أحمد النائب أنه في سنة 1297هـــ وصلت إلى مياه طرابلس عدة بواخر مشحونة

(13) L. FERRAUD : LES ANNALES TRIPOLITAINES – PARIS 1927, p. 442 .
د.فراود – حوليا طرابلس باريس 1927 ص 442

بمدافع كرور ومهمات وذخائر حربية، وشرع في إقامة الاستحكامات المتينة فـــي الأماكـــن المهمـــة على الطراز الحديث، وتم في مدة قصيرة بناء برج الـــتراب وســـانية الباشـــا ووضـــعت هذه المدافع الهائلة فيها ودعي الأهالي لمشاهدة برج سانية الباشا(14). أدركت فرنسا تأثير موجة الغضب الطرابلسية على وضعها في تونس والجزائر، فأرسل وزير خارجيتها ببرقية إلى السفير الفرنســـي بلندن بتاريخ 4 – 7 – 1881 طلب فيها منه أن يطمئن أوربا بأن فرنســـا لا مطـــامع لها في طرابلس وأن كل ما يهمها أن لا ينطلق التعصب الإسلامي من هذه الولاية فيشعل النار في تونس وقد يمتد لهيبه إلى الجزائر نفســـها. وطلب الوزير من سفيره أن يتصل ودياً بالباب العالي ويطلعه على مصـــدر القلق الفرنسي ويطلب منه أن يتخذ على أراضيه جميع الاحتياطات الكفيلة بإزالة هذا الخطر الكبير الذي يتهدد فرنسا وتركيا على السواء(15).

وتجاوبـــتْ تركيا مع فرنسا وتعاونت معها على تهدئة الأوضاع على الحدود وإعادة المهاجرين التونسيين الذين دخلوا طرابلس بعد احتلال بلادهم والذين قدر عددهم بأكثر من مائتي ألف نسمة (16).

وأدت تركـــيا هذه الخدمة إلى فرنسا دون مقابل، وذلك في الوقت الذي انطلقـــت فـــيه قواتها من السنغال؛ لتحتل وتستولي على العديد من الأراضـــي التابعة للسيادة العثمانية ومن بينها أراضي الجنوب الليبي.

❖ التركيز على ليبيا

كانـــت بداية التوجه الإيطالي نحو ليبيا قد ولدت في مؤتمر برلين بعد أن اقترح أحد أعضاء الوفد الفرنسي ترك طرابلس لإيطاليا تعويضاً لها عن

---

(14) أحمد النائب – المنهل العذب في تاريخ طرابلس – الغرب ص 405 .

(15) L. FERRAUD – LES ANNALES TRIPOLITAINES – PARIS 1927, p. 442 .

(16) أحمد صدقي الدجاني – ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي – القاهرة 1971 ص 63 .

خسارة تونس، وكانت هذه العبارة، التي صدرت عن عضو في الوفد الفرنسي لم يذكر اسمه ولا منصبه، بداية انطلاق مطامع إيطاليا ومطالبتها بليبيا. ودار نقاش في مجلس النواب الإيطالي حول هذا الاقتراح خلال مناقشة نتائج مؤتمر برلين، وقد أعرب النواب عن ضرورة حصول إيطاليا على موقع ودور في استراتيجية البحر الأبيض، وهذا الدور لا يتحقق إلا ببسط نفوذها على ليبيا.

وظل موضوع ليبيا يثار في مجلس النواب الإيطالي في كل مرة تقدم فيها الحكومة ميزانيتها إلى المجلس، وكان جدالا متواصلاً بين أنصار التوسع الاستعماري وبين الحكومات التي كانت تؤكد اهتمامها بالمحافظة على توازن البحر الأبيض وعلى كيان الإمبراطورية العثمانية، دون الالتزام بالقيام بعمل محدد لتحقيق أطماعها في ليبيا، غير أن إيطاليا، خلال الفترة من عام 1881 إلى نهاية القرن بذلت مساعيها للحصول على وعد صادق من الدول الاستعمارية الكبرى بعدم اعتراضها ومنافستها على ليبيا، وكانت ألمانيا أول الدول التي وافقت على إطلاق يدها في ليبيا واتبعتها بريطانيا والنمسا وأخيراً فرنسا التي ربطت بين احتلالها للمغرب واحتلال إيطاليا لليبيا.

وجاءت هزائم الجيش الإيطالي في الحبشة لتجمد حماس الاستعماريين وتسكت أصواتهم، وتعيد إيطاليا إلى حجمها الطبيعي، وتعزز التيار المعارض للتوسع الاستعماري وقد فرضت على الحكومات الإيطالية الالتزام بسياسة الانكماش وتركيز الجهود على المشاكل الداخلية غير أن الدبلوماسية الإيطالية واصلت تتبعها لتوسع القوات الفرنسية في جنوب ليبيا والوضع في البحر الأبيض المتوسط.

وازدادت أوضاع إيطاليا الاقتصادية والزراعية سوءاً في العقد الأخير من القرن التاسع عشر نتيجة للعداء والمقاطعة الفرنسية، وبدأ الشعور بسوء الحالة يسود الساحة الإيطالية، بعد اختفاء كريسبي، وبضرورة التقارب مع

فرنسا و إعادة العلاقات إلى سابق عهدها بين البلدين. وتجاوبت فرنسا معها نتيجة لتوتر العلاقات بينها وبين بريطانيا بسبب التوسع في أفريقيا، ولرغبتها فـــي إضـــعاف الحلف المركزي أو إخراج إيطاليا منه. و أسفرت بداية هذا التقارب عن صدور بيان أكدت فيه فرنسا عدم معارضتها للمطامع الإيطالية فـــي ليبـــيا وعدم رغبتها في الإخلال بالتوازن القائم بالبحر الأبيض وعزمها علـــى إيجـــاد صـــيغة تعاون بين البلدين الشقيقين [17]. وفتح هذا البيان قناة للاتصـــال والتحاور بين البلدين، وأدى هذا الاتصال والتحاور إلى اتفاق عام 1900 والـــذي عُدل عام 1902، وقد أزال هذا الاتفاق أكبر عقبة كانت تقف في وجه المطامع الإيطالية في ليبيا، وضمن لإيطاليا عدم معارضة فرنسا إذا مـــا قامـــت بالاســـتيلاء على ليبيا، مقابل موافقتها على إطلاق يد فرنسا في المغـــرب، كمـــا تعهـــدت فرنسا لإيطاليا باحترام حدود ليبيا الجنوبية وعدم تجاوزها دون أن تذكر أين تقع هذه الحدود.

حققـــت الدبلوماســـية الإيطالية نجاحاً كبيراً في استئناف العلاقات مع فرنســـا ورفع القيود الجمركية والمالية والاقتصادية التي وضعتها فرنسا ضد إيطالـــيا، واستطاعت حكومة روما، وهي على أبواب القرن الجديد، أن تؤمن موافقـــة الدول الأوروبية الكبرى على إطلاق يدها في آخر ولاية عثمانية في أفريقيا كما سبق وذكرنا.

---

(17) J. PICHON : LA QUESTIONNE DE LIBYE – PARIS, 1947 – p.81.

الفصل الثاني

بداية التمهيد للغزو الإيطالي

1- تحول المطامع إلى حقوق
2 - جوليتي وقضية ليبيا

بالـــرغم مـــن قرب الشواطيء الإيطالية من ليبيا، وبالرغم من العلاقات الـــتجارية المتواصـــلة مـــنذ قرون بين الجانبين إلا أن إيطاليا كانت أقل الدول الأوروبـــية معرفة بليبيا وبشعبها وطبيعتها وبأوضاعها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ومع بداية اهتمامها بليبيا شرعت الحكومات الإيطالية المختلفة، وعلى مدى ثلاثين عاماً، في عمل دبلوماسي للحصول على موافقة الدول الكبرى على احتلالها لليبيا، وفي عمل تجسسي لجمع المعلومات العسكرية والاتصال بزعماء البلاد لاكتسابهم إلى جانب إيطاليا ومحاولة وجود اقتصادي في ليبيا.

وكـــان الرحالة منفريدو كامبيريو M.CAMPERIO أول من افتتح هذا الاتجاه وهو رحالة ومؤسس جمعية الاستكشاف التجاري في أفريقيا وصاحب صـــحيفة المستكشف، وقد زار ليبيا عام 1880 وقام برحلة من طرابلس إلى الخمـــس عـــن طـــريق سوق الجمعة - تاجوراء - سوق النقازة وعاد إلى طرابلس عن طريق مسلاته وترهونة. وكان كامبيريو متأثرًا بما كتبه الرحالة الألمانـــي رولفـــس ROHLFS الـــذي دعا الإيطاليين إلى احتلال برقة لأن المـــنطقة الممـــتدة من توكره إلى الجبل الأخضر خصبة وشبيهة بالأراضي الإيطالـــية، وقد عمل عن طريق جمعية الاستكشاف التجارية الأفريقية على إرسال بعثتين إلى برقة في أوائل عام 1881 واحدة تجارية ترأسها كامبيريو والثانية علمية تراسها هايمان HAIMAN، وهو موظف سابق بوزارة العدل المصـــرية ويجيد اللغة العربية. وأسست البعثة الأولى مركزين تجاريين في بـــنغازي ودرنـــة، وكان من أغراض كامبيريو زيارة طبرق والبمبة وتقديم تقريـــر عـــن أهميتهما العسكرية غير أن السلطة التركية لم تسمح لـــه بهذه الـــزيارة وقـــد قام مساعده مامولى بمحاولة الوصول إلى طبرق متخفيا في ملابـــس عربـــية وقـــد اكتشفت الشرطة أمره وألقت عليه القبض ولم يطلق سراحه إلا بعد تدخل الحكومة الإيطالية.

وتوقف نشاط البعثتين في برقة وأغلق المركزان التجاريان في بنغازي ودرنـــة وعاد أعضاؤهما إلى إيطاليا بسبب غياب الدعم المالي وعدم اهتمام الحكومـــة الإيطالـــية [18] وكانـــت هذه أول رحلة يقوم بها إيطالي إلى ليبيا بغرض جمع المعلومات تمهيداً لاستيلاء إيطاليا عليها.

وعـــاد كامبـــيريو عـــام 1884 إلى بنغازي بفكرة شراء أراضٍ باسم الجمعية وإنشاء مستعمرات زراعية إيطالية، وطلب من الحكومة الإيطالية أن تتصـــل باستانبول للحصول على الأذن بشراء الأراضي وتسهيل مهمته. وقد رفضـــت حكومـــة روما التدخل في الأمر، ويبدو أن كامبيريو لم يتخل عن فكرته وحاول شراء بعض الأراضي بواسطة بعض السماسرة، وتشير إحدى الوثـــائق بـــدار المحفوظـــات الطرابلسية إلى " أن أحد الطرابلسيين من تبعة الدولة العلية كان سابقًا يدعي الحماية الفرنسية قد تدخل في ترويج بيع أرض جسيمة في نقطة مهمة حاوية ثلاث قرى ذات نخل كثير، إلى الأجانب، وكان وراءه مواطن آخر يعمل وكيلاً لشركة وابورات (شركة ملاحة) وكان وراء الاثنين القنصلية الإيطالية [19].

وتوجـــد وثيقة أخرى بدار المحفوظات، وهي رسالة من الشيخ إبراهيم أولاد رخيص إلى محمد المصراتي يشكو فيها أن السلطان باع برقة ومراده للإيطاليين ويريد أيضًا بيع بلدتنا زلة، وتاريخ الوثيقتين يعود إلى عام 1883 في عهد ولاية أحمد عزت وبداية محاولات الإيطاليين لشراء الأراضي. وقد وجـــه أعـــيان مصراته رسالة إلى الوالي يعربون فيها عن قلقهم من النشاط الـــذي يقوم به أحد الإيطاليين المقيم بمصراته منذ زمن طويل يدعي إدواردو

---

(18) MINISTERO AFFARI ESTERI: L'LTALIA IN AFRIKA - LE PRIME RICERCHE DI UNA COLONIA - ROMA, 1955 p.260 - 64 .

وزارة الخارجية ـ إيطاليا في أفريقيا ـ الأبحاث الأولى عن مستعمرة ـ روما 1955. ص 260 ـ 264 .

(19) أحمد صدقي الدجاني ـ ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي ـ طرابلس 1971 ص 338.

ويجيد اللغة العربية ويرتدي الملابس الليبية، وقد أخذ في الفترة الأخيرة يتصل بالناس ويقول لهم إنه سيصبح قنصلا لإيطاليا بمصراته وسوف يدخل من يشاء في حمايته ليتمتع بالامتيازات التي توفرها هذه الحماية [20].

وهذه الوثائق وغيرها تبرهن على وعي الليبيين وإحساسهم بالخطر الذي يتهدد بلادهم وكانوا يرصدون التحركات الأجنبية المريبة ويطالبون الحكومة بملاحقتها والسهر على سلامة بلادهم.

ولم تساند الحكومة الإيطالية، آنذاك ، هذه المبادرات الفردية والمؤسسية، فقد كانت مشغولة بالتوسع في شرق أفريقيا وتعرضت الحكومة الإيطالية لانتقادات مريرة من قبل أنصار احتلال ليبيا، الأمر الذي دفع بوزير الخارجية مانشيني Mancini إلى التصريح في مجلس النواب قائلاً: "إنكم تخشون أن عملنا في البحر الأحمر يصرفنا عن الاهتمام بالبحر الأبيض هدف السياسة الإيطالية الهام وأتساءل لماذا لا تعترفون بأننا قد نجد في البحر الأحمر المفتاح أي الطريق التي تؤدي إلى تأكيد حرصنا على عدم الإخلال بتوازن البحر الأبيض" [21]. وهذا يعني أنه في الإمكان الوصول إلى ليبيا عن طريق البحر الأحمر.

لم يقتنع أنصار الاستعمار بالتوسع المحدود في شرق أفريقيا وواصلوا ضغطهم على الحكومة من أجل الذهاب إلى ليبيا قبل أن تستولي عليها دولة أخرى كما حدث في تونس. فأرادت الحكومة أن تطمئنهم بأنها مهتمة بليبيا وبما يقع فيها وحولها، فانتحلت أعذاراً واهية كالاعتداء على حارس القنصلية الإيطالية بطرابلس أو تفتيش منزل يهودي من رعايا إيطاليا أو معاملة سيئة

---

(20) أحمد صدقي الدجاني والحاج عبدالسلام أدهم ـ وثائق تاريخ ليبيا الحديث منشورات جامعة بنغازي ـ 1974 وثيقة 62.

(21) ANGELO DEL B0CA : GLI ITALIANI IN LIBIA _ ROMA, 1993_ VOL. I , p. 16.
انجلو دلبوكا ـ الإيطاليون في ليبيا روما 1993 ص 16 الجزء الأول

لأحـــد الإيطاليـــن وابنته، لكي تقرر الحكومة إرسال باخرة حربية إلى مياه طرابلس في عام 1883 للتهديد والإرهاب. وكان الإيطاليون يشعرون آنذاك بـــأن الـــرعايا الإيطاليين في ليبيا لا يلقون نفس المعاملة المتميزة التي يلقاها رعايـــا الـــدول الأخرى. وبمجرد سماع استانبول بأن إيطاليا ستقوم بمظاهر بحـــرية فـــي مياه طرابلس، أسرعت إلى الاتصال بروما وقدمت الترضيات التـــي أرادتهـــا وذلـــك قـــبل أن تـــتحرك البارجة التي ظلت راسية في مينا سيراكوزا وقصدت إيطاليا من هذا التصرف بلوغ هدفين :

الأول: طمأنت الإيطاليين بأن الحكومة تدافع عن كرامة الإيطاليين وأن ليبيا في ذاكرتها.

الثانـــي : إشـــعار تركيا والدول الأوربية بأن لإيطاليا مصالح وحقوق لا تـــتهاون فـــي الدفـــاع عنها، والغريب في الأمر أن نفس وزير الخارجية الإيطالـــي عندما نوقش الحادث في مجلس النواب تحدث بتباهٍ عن الأسلوب الحـــازم الذي استعمل مع تركيا من جهة، وفند المزاعم التي رددتها الصحف الأجنبية المغرضة متهمة إيطاليا بأنها تفكر في تجهيز حملة لاحتلال ليبيا[22]. وكانـــت هـــذه المـــرة الأول التـــي تحرشت فيها إيطاليا بتركيا واتخذت من رعاياها في ليبيا مبرراً لتهديدها ومعرفة ردود فعلها.

نشـــطت الحـــركة الاستعمارية في إيطاليا بعد حصولها على مصوغ بموافقـــة وتشـــجيع الحكومـــة البريطانية. وأرسلت الحكومة الإيطالية قوات لاحـــتلال المزيد من أراضي الحبشة وحدث في هذه الأثناء أن قامت فرنسا عـــام 1884 بـــتهديد المغرب باحتلاله، وقد رأت إيطاليا أن الفرصة مواتية لاحـــتلال ليبـــيا، فبعث وزير الخارجية بتاريخ 21 نوفمبر برسالة إلى وزير الحربـــية يشعره فيها بأن الحكومة الإيطالية قررت احتلال بنغازي وطرابلس

---

(22) أ. ديلوبوكا السابق الذكر ص 13 الجزء الأول.

وبعــض النقاط على الحدود مع مصر وتونس، وطلب منه أن تكون القوة في حــدود ثلاثيــن ألــف رجــل مزودين بما يلزم للإنزال والاحتلال مع التأكد بالتغلــب علــى أي عائق. وأجابه وزير الحربية بأن الإعداد سيتم قريباً مع الأخــذ بعيــن الاعتبار بأن لا تعرقل الدول البحرية عملياتنا وأن العدو الذي سنقاتله تركيا وحدها [23].

وتمت الإعدادات الحربية على عجل للقيام بالحملة واستندت إيطاليا في مــبادرتها هــذه على قيام فرنسا باحتلال المغرب واختلال توازن القوى في البحر الأبيض المتوسط، وهو ما يبرر قيامها باحتلال ليبيا، غير أن فرنسا لم تحتل المغرب، والبحر الأبيض لم يحدث فيه أي اختلال. وتوقفت إيطاليا عن الســير في مخططها ومع ذلك لم تتوقف وزارة الحربية الإيطالية عن إرسال الجواســيس إلــى ليبيا، وفي هذه المرة كانوا ضباطاً من هيئة الأركان. ففي عام 1885 وصل طرابلس الكابتن بونافنتورا زاينللي BONAVENTURA ZANELI باســم مســتعار وأقــام عــدة أشهر جمع فيها معلومات عن القوات التركية المــرابطة فــي ليبــيا وغادر طرابلس بعد أن توقف مشروع الإنزال على شــواطيء ليبيا. وأرسل بعد بضعة سنوات الميجراندريا بدريتى وقد استطاع أن يصــل إلى طبرق والبمبة ويعد تقريراً عنهما. ووصل طرابلس في أوائل القرن الكابتن شيبوني روسي SIPIONE ROSSI بصفته مفتشاً على المدارس الإيطالية، ولحق به الكولونيل جانينى GIANNINI لنفس الغرض.

* * * *

يعتبر فرانسسكو كريسبي أشد الساسة الإيطاليين إيماناً بحق إيطاليا في التوسع الاستعماري، وكان يعتقد كغيره من الصقليين أن المستعمرات سوف تحل مشاكل الجنوب الإيطالي، وكان يؤمل أن يحتل أثيوبيا وجنوب السودان

---

(23) أ ديلبوكا المصدر الذكور ص22 الجزء الأول.

وليبيا ويربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض عن طريق البر دون المرور بقناة السويس، وعمل منذ أن تولي وزارته الأولى (1887) على فتح المدارس الإيطالية في مصر وسوريا وفلسطين وتركيا وعلى تعزيز مركز إيطاليا التجاري في هذه البلاد مستعيناً بالجاليات الإيطالية.

واستعان في وزارته الثانية (1893 - 1896) بجمعية الاستكشاف التجاري في أفريقيا على إعادة فتح مركزها التجاري في بنغازي مقدماً لها دعماً مالياً.

وأرسل في نفس الوقت عددًا من الجواسيس إلى طرابلس وبنغازي لجمع المعلومات الاقتصادية والزراعية والعسكرية والسياسية، وطلب منهم الاتصال بالسكان والأعيان، وكلف القنصل الإيطالي بطرابلس قراندى GRANDI أن يقوم بالتمهيد السياسي وذلك بمنح الوعود والإغراءات للأعيان والمشائخ مقابل تأييدهم لإيطاليا. وإرسل كريسبي في نفس الفترة المهندس ريبيكي REBRECCHI الذي دخل طرابلس بصفته تاجراً سويسريا يدعي أوتولينو نيوشتاتر وكان مكلفاً بالاتصال بالأعيان والمشائخ والشخصيات البارزة في البلاد غير أن الشرطة سرعان ما اكتشفت أمره واضطرت الحكومة الإيطالية إلى استدعائه [24].

وقد استطاع هذا التاجر المزور الوصول إلى مصراته واتصل بإيطالي كان يعيش بالمدنية منذ زمن طويل وقد اعتنق الإسلام وارتدى الملابس الليبية وتطبع بطباع أهل البلاد ويدعي ريجيني. وقد عيّن عام 1890 وكيلاً قنصلياً لإيطاليا في مصراته وهو منصب اسمي لأنه لم يستطع ممارسة العمل لقلة خبرته وربما لجهله وهو نفس أدواردو الذي جاء في الرسالة التي وجهها بعض أعيان مصراته إلى والي طرابلس يعلمونه بتصرفات هذا الرجل

---

(24) وزارة الخارجية ـ إيطاليا في أفريقيا ـ الأبحاث الأولى عن مستعمرة روما 1953 ص 156 .

المريـــبة، وأدواردو وهـــو اســـمه الأول. وحاول ربيكي عن طريق الإيطالي المذكـــور الاتصـــال بالزعماء والمشائخ بالمنطقة بقصد عقد اتفاق تجاري مع إيطاليا، وتقول المصادر الإيطالية إن ريبيكي قدم تصورًا لتوطيد مركز إيطاليا في ليبيا يتلخص في تطوير المعاهد الدراسية ونشر الوكالات التجارية وتعزيز المواصـــلات البحرية، وإنشاء قسم للفنون والصنائع يلحق بالمدرسة الابتدائية لجذب العنصر الوطني وإنشاء مدارس في الخمس ومصراته ومسلاته وسرت ودرنة وتوكره وطبرق بالإضافة إلى طرابلس وبنغازي[25].

واســـتمر القناصل الإيطاليون في طرابلس وبنغازي يحاولون الاتصال بالمشـــايخ والعناصـــر الوطنية المتنفذة لإقناعها بأن ليبيا ستتقدم مثل تونس ومصـــر إذا مـــا قـــبل الليبيون بسط سيادة إيطاليا عليها. ولم يكن لدى حكام إيطالـــيا تصـــوّر لوضع الليبيين بعد الغزو. لقد كانوا يعتقدون أنهم سيحلون محـــل الأتـــراك وأن العرب سوف يرضون بالتعهد باحترام دينهم وعاداتهم ونســـائهم وعـــدم المساس بممتلكاتهم ونيل بعضهم المناصب العامة وإعفاء التنظيمات الدينية من الضرائب.

ويبدو من تقارير القناصل أن اتصالاتهم ببعض أعيان المدن لم تحقق أية نتـــيجة إلا البعض من الذين كان لهم ارتباط سابق بإيطاليا والذين يعتبرون من العمـــلاء. وبالـــرغم من سياسة التجسس والتوغل الاقتصادي وتتبع ما يقع في داخل ليبيا منذ عام 1880 غير أن إيطاليا ظلت أجهل الدول الأوروبية بأوضاع ليبيا وظلت تتساءل حتى يوم الغزو هل عرب ليبيا سيكونون معها أم ضدها ؟

❖ تحول المطامع إلى حقوق

دخلـــت إيطالـــيا القرن العشرين وقد حققت الكثير من الإنجازات على

---

(25) وزارة الخارجية الإيطالية ـ إيطاليا في أفريقيا، السابق الذكر ص 266.

المستويين الداخلي والخارجي وعلى المستوى الاقتصادي بصورة خاصة، فقد تغلبت على الكثير من مشاكلها الداخلية وأعادت علاقاتها بفرنسا، وفازت بموافقة الدول على إطلاق يدها في ليبيا، وتخلصت من النظم المصرفية والاقتصادية التي توارثتها عن الدويلات التي تكونت منها إيطاليا الموحدة، وشرعت في اللحاق بالدول الأوربية المتقدمة اقتصاديا، فتطور اقتصادها ونظامها المصرفي وزراعتها وصناعتها وازداد إنتاجها وصادراتها وتحسن مستوى شعبها بصورة عامة. ويعود الفضل في هذا التطور إلى كريسبي رئيس الوزراء السابق الذي طلب من المستشار الألماني بسمارك مساعدة إيطاليا على تحسين اقتصادها وصناعتها ونظمها المصرفية، فأرسل بسمارك إلى إيطاليا ثلاثة من كبار الخبراء اليهود وهم: جويل JOEL وغولد سميث GOLDSMITH وتيبليتس TIPLITS[26] الذين عملوا على تطوير الصناعة والاقتصاد بفضل عاملين هامين جاءا بهما الخبراء اليهود وهما تحديث النظام المصرفي بتأسيس المصرف التجاري BANCA COMMERCIALE ومصرف الائتمان CREDITO ITALIANO، وإدخال صناعة توليد الطاقة الكهربائية من المياه المنحدرة والشلالات. وكانت إيطاليا تشكو من ضعف إنتاج الحديد والصلب بسبب تكاليف الفحم المرتفعة الذي كانت تستورده من بريطانيا لتوليد الكهرباء.

وقد استغنت تقريباً عن الفحم البريطاني بعد أن أصبحت تولد ما تحتاجه من الكهرباء محلياً.

أما تحديث النظام المصرفي فقد مكن المصارف وعلى رأسها المصرف التجاري من التوسع في تقديم القروض للصناعة والزراعة والتجارة، فتطورت ونمت الصناعة وتحسنت الزراعة وازدهرت تجارة

(26) إندرو مونتانيللي السابق الذكر ص 40.

التصـــدير إلـــى الخـــارج، ومن الطبيعي أن يحدث هذا الانتعاش الاقتصادي تأثـــيرا إيجابـــيا في الحركة الاستعمارية ويبعث فيها روحاً جديدة تدفعها إلى العـــودة بالمطالـــبة بحق إيطاليا في ليبيا بعد أن ظلت ساكنة لعدة سنوات بعد هزيمة عدوه وانسِحاب كريسبي من الساحة السياسية.

❖ جوليتي وقضية ليبيا

تزامـــن هـــذا الـــتطور الإيجابي مع وجود جوليتى GIOLITTI على الســـاحة السياســـية وسيطرته عليها. ويعتبر جوليتى من أكفأ وأبرز الساسة الذيـــن عرفتهم إيطاليا وأكثرهم دهاءً وأبرعهم في المناورات السياسية وكان تأثيره على الأحداث مستمرا سواء كان في الحكم أم خارجه، وتولي الوزارة خمـــس مرات وسيطر على مسرح السياسة الإيطالية قرابة العقدين وعُرفت هـــذه الفـــترة بعصر جوليتي، وقد كان هو المفكر والمنفذ لعملية غزو ليبيا، وأشـــرف شخصـــياً علـــى الإعـــداد العســـكري وعلى سير المعارك وعلى المفاوضـــات التـــي أدت إلى معاهدة لوزان، وكتب جوليتي في مذكراته أنه عـــندما تولـــى وزارتـــه الثانية (1903) كان حل المشكل الليبي يمثل النقطة الثالثة في برنامجه السياسي [27].

وبالـــرغم من أن بعض المؤرخين للحرب التركية الإيطالية يرون أن جوليتـــي لـــم يعزم على غزو ليبيا عسكرياً إلا بعد حادث أغادير الذي أمن لفرنســـا الاســـتيلاء علـــى المغرب وأطلق يد إيطاليا في ليبيا وفقا للاتفاقية الإيطالـــية الفرنســـية لعـــام 1902، غير أن الطريقة التي واجه بها جوليتي المشـــكل الليبـــي كانت تدل على أنه وضع الاحتمال العسكري نصب عينيه وأخذ يعد لـــه العدة سياسياً منذ وقت طويل، وكان يتابع الأحداث ويطلع على تقاريـــر الدبلوماســـيين الإيطاليـــن في ليبيا التي لم تقنعه بأنها تعكس واقع

(27) مذكرات جوليتي ـ ترجمة خلفية التليسي ـ دار الكتاب العربي طرابلس ص 46.

الوضـــع الليبي، وقد سادته القناعة، على عكس اعتقاد الكثير من العسكريين والساســة الإيطاليين، بأن الشعب الليبي شعب مقاتل ولن يتخلى عن مناصرة الأتراك ، إذا ما وقعت الحرب، بسبب الرابطة الدينية والشعور الوطني.

وأراد جوليتـــي فـــي وزارته الثانية (1903) الأشراف شخصياً على الأجهـــزة المكلفـــة بجمـــع المعلومـــات عن ليبيا وقام باختيار الدبلوماسيين والعملاء من بين من يثق فيهم ، وكان يعلم أن السنوسية أهم تنظيم عسكري في ليبيا وأنها كانت في ذلك الوقت تقاتل فرنسا في جنوب ليبيا وأن تحييدها في حالة حدوث غزو عسكري يعتبر عاملاً هاماً لصالح إيطاليا.

وأرســـل جوليتـــي بعـــض العسكريين والمدنيين إلى طرابلس بأسماء مستعارة للعمل، بالتعاون مع القناصل، على استمالة الليبيين إلى جانب إيطاليا عن طريق المشائخ والوجهاء والمتنفذين في البلاد، والتركيز بصورة خاصة علـــى الفئات الناقمة على الحكم التركي الذي تسبب في تخلف ليبيا وفقرها، والعمـــل على إذكاء نار الفتنة بين القبائل المتنافرة، وذلك بالإضافة إلى جمع المعلومات العسكرية عن القوات التركية وتسليحها وعن المواني وصلاحيتها واختـــيار مواقع الإنزال. وكان هؤلاء العملاء يرسلون بتقاريرهم إلى روما، وكانـــت رئاســـة أركان الحرب تعد خطط الغزو التي كانت تتغير وفقاً لتغير الظروف والأوضاع .

ووجـــه جوليتي نظره إلى السنوسية وتأثيرها في الأحداث وقرر العمل علـــى الاتصـــال بها عن طريق مصر والدخول معها في حوار لتحييدها في حالة نشوب الحرب، ومحاولة تهدئة الرأي العام المصري وامتصاص غضبه في حالة وقوع هذه الحرب.

الفصل الثالث

النشاط الإيطالي في مصر

1 – الدكتور أنريكو إنساباتو ENRICO INSABATO
2 – صحيفة النادي
3 – إيطاليا والجامعة الأزهرية
4 – الحوار مع السنوسية
5 – التمهيد للغزو عن طريق الثقافة
6 – إيطاليا والجامعة المصرية
7 – المدرسة التحضيرية
8 – المعهد الإيطالي للدراسات الشرقية
9 – غزور ليبيا وردود فعل المصريين
10 – مساعي إيطاليا لإيقاف القتال
11 – دور الوساطة
12 – الخديوي وإيطاليا

حاولت إيطاليا في بداية القرن، في إطار مخططاتها التوسعية في البحر الأبيض، اتخاذ القاهرة قاعدة لنشر ثقافتها ولغتها ونفوذها لاكتساب جانب من الـرأي العـام المصـري إلـى جانبها في حالة استيلائها على ليبيا، بحجة تخليصـها مـن التخلف والإهمال الذي كانت تعيشه في ظل الحكم العثماني، وذلك بالإضافة إلي رغبتها في أن يكون لها حضور ملموس في مصر أسوة بفرنسا وبريطانيا. واعتمدت في سياستها هذه على جاليتها الكبيرة التي كانت تعد أكبر جالية أجنبية في مصر بعد الجالية اليونانية، والتي كان يقدر عددها بأكـثر مـن أربعيـن ألـف نسمة. واعتمدت أيضاً، وبصورة رئيسية، على الـروابط الوديـة الوثيقة التي كانت تربط بين الأسرتين الحاكمتين في روما والقاهـرة، وعلـى الادعـاء بأن إيطاليا لم تسئ إلى أي بلد عربي كالدول الأوربية الأخرى. ولم نستطع من خلال الوثائق التي اطلعنا عليها أن نعرف المسئول الذي رسم هذه السياسة وإن كان من الراجح أن يكون جوليتي نفسه الذي اختار القاهرة مركزا للنشاط التمهيدي لاحتلال ليبيا .

وقد اختارت إيطاليا القاهرة مركزاً لدعايتها ولنشاطها السياسي والثقافي بالـنظر إلـى جوارهـا إلى ليبيا وموقعها الجغرافي في قلب الأمة العربية والإسلامية، وبالنسبة لتطورها الحضاري والفكري والسياسي وبصفتها الدولة العربـية الأكـبر، وملـتقى مخـتلف التيارات والأفكار الإسلامية والوطنية والثقافـية ومركز الإبداع والمحافظة على التراث والقيم العربية والإسلامية، وكانت صحافتها متطورة وتعكس مختلف التيارات العربية والإسلامية.

وكانت مصر في الفترة ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين مسرحاً لصـراعات فكـرية بين المحافظين من رجال الدين وغيرهم من المفكرين، وبيـن الفـئات المتحررة التي تلقت تعليمها في أوربا، والتي بهرتها ثقافتها وحضارتها وعلومها، فعادت إلى مصر تطالب بالانفتاح على البلاد الأوروبية

والـــنهل مـــن إبداعها وحضارتها. وقام بين التيارين تيار ثالث ينادي بالأخذ بمحاســن الحضــــارة الأوربية ونبذ ما لا يتمشى مع المجتمعات الإسلامية، ناهــيك عــن التــيارات الدينية والمذهبية وتيارات الطرق الصوفية والتيار الوطنـــي الـــذي كان يعمل على خروج البريطانيين من مصر والتخلص من بقايا النفوذ والسيطرة العثمانية.

فـــي هذا المناخ الذي كان يحاول فيه المصريون تحديد هويتهم بالنسبة للمستقبل وفي وسط هذه الصراعات الفكرية والعقائدية، رأت إيطاليا أن تعمل بســذاجة للحصـــول على تأييد أو سكوت المفكرين المصريين ورجال الدين والطلبة وجزء من الرأي العام المصري، وذلك في حالة استيلائها على ليبيا باعتــبارها المــنقذة للشــعب الليبي من نير الأتراك ومن حالة التخلف الذي أوجدوهـــا في البلاد. وظنت إيطاليا أن تحسين صورتها أمام المصريين عن طريق معسول الكلام والإدعاء الباطل باحترام الإسلام وتقديره، والتبرؤ من الاستعمار وجرائمه، كما سنرى في الصفحات التالية، سوف يقنع المصريين بأن احتلال الأرض الليبية بقوة السلاح ومحاربة الدولة العثمانية هو من أجل تخلــيص الشعب الليبي من نير الحكم التركي وتأمين مستقبله وتقدمه في ظل الاستعمار الإيطالي.

❖ الدكتور انريكو إنساباتو ENRICO INSABATO

في أواخرعام 1902 وصل القاهرة الدكتور أنريكو إنساباتو مع عدد مـــن الأطـــباء الإيطاليـــن للمشاركة في المؤتمر الطبي الدولي المنعقد في القاهـــرة، وقد استطاع من خلال أعمال المؤتمر أن يتعرف على الكثير من الدكاترة المصريين وأن يكوّن بعض الصداقات، ولم يكن مجيئه إلى القاهرة مـــن أجل المؤتمر وإنما للقيام بعمل سياسي كلفه به رئيس الوزراء جوليتى بالتعاون مع محمد على علوي العميل الذي أشار إليه جوليتي في مذاكرته.

والدكـــتور إنســـاباتو شخصـــية غريـــبة اتهـــم بالفوضوية وبالعمل لصالح المخابـــرات الإيطالية، وقد أقام في باريس بضع سنوات ثم عاد إلى إيطاليا وادعـــى الخبرة بشئون العالم العربي والإسلامي، وقد اختاره جولينى ليقوم بالاتصـــال بالسنوسيين وجرهم إلى حوار مع إيطاليا يؤمن حيادهم في حالة غزو ليبيا عسكرياً.

وطلب جوليتي من إنساباتو أن يستعين بعميله الآخر محمد على علوي الـــذي كـــان يعمل في الوكالة الدبلوماسية الإيطالية (سفارة) كمترجم وقوّاس وهـــو مصري الجنسية ويدعي أنه من سلالة صلاح الدين الأيوبي وأنه من أتـــباع الطـــريقة السنوســـية وهو عميل لإيطاليا وقدم لها خدمات كثيرة في السـابق. وقد استطاع بحكم أنه مصري وتابع للطريقة السنوسية، أن يتغلغل فـــي الأوســـاط الأزهرية، وأن يرتبط بالشيخ محمد عبده والشيخ عبدالرحمن علـــيش وبالمشـــائخ الليبيين الدارسين بالأزهر وببعض التجار الليبيين الذين كـــانوا يعملون ما بين الكفرة ومصر. وكان على علاقة ببعض شباب الأسرة السنوســـية الذيـــن كان يوفر لهم بعض طلباتهم من السلع التي لا تتوفر في مصـــر وذلـــك بجلبها من إيطاليا. وقد انضم محمد على علوي إلى إنساباتو وعمـــل الاثـــنان ســـويا على تحقيق الأهداف التي كلفهما بها جوليتي وهي الدخول في حوار مع السنوسية كما ذكرنا ومراقبة الوضع التركي في البحر الأحمر والاتصال بالعناصر الثائرة أو الناقمة على الأتراك في جزيرة العرب واليمن والارتباط برجال الدين واستغلال نفوذهم لصالح القضية الإيطالية.

وكان إنساباتو يرسل تقاريره رأساً إلى رئيس الوزراء متخطياً القنوات الدبلوماسية المعتادة.

ووضع إنساباتو برنامجاً لعمله في مصر تضمن الاقتراحات التالية:

1ـ تأسيس مدرسة إيطالية بالقاهرة لتعليم المصريين اللغة الإيطالية وتضم رعايـــا إيطالـــيا في الصومال وأرتريا، وليبيا وألبانيا فيما بعد، ونشر

النفوذ الإيطالي. ولم تعمل الحكومة الإيطالية على إنشاء المدرسة المقترحة وإنما قررت منح مساعدة مالية للمدرسة التحضيرية بالقاهرة مقابل تعليم اللغة الإيطالية لطلبة المدرسة.

2- إصدار صحيفة باللغتين العربية والإيطالية، بالقاهرة للدعاية ونشر الأفكار الإيطالية لكسب الطبقات المحافظة إلى جانب إيطاليا وإقناع الزعماء المتمردين على تركيا في البحر الأحمر باستعداد إيطاليا لمساعدتهم.

3- التعاون مع الطرق الصوفية والمؤسسات الدينية الأخرى من أجل تحقيق أهداف إيطاليا.

4- خلق مجموعة دراسات باللغتين العربية والإيطالية ونشرها للترويج للأهداف الإيطالية.

5- تطبيق الشريعة الإسلامية في المستعمرات الإيطالية بغرض إلغاء الرق.

6- قيام الحكومة الإيطالية بإنشاء مسجد في روما يلحق به معهد للدراسات الشرقية*.

7- بمناسبة التعديلات الدستورية في تركيا يجب العمل على توظيف الإيطاليين في الإدارة التركية وإلغاء الإرادة التي تمنع المسلمين من إلحاق أبنائهم بالمدارس الإيطالية والسعي لدى الحكومة التركية لمنح إيطاليا قطعة أرض في برقة، كما فعلت مع ألمانيا في أسيا الصغرى.

8- تأسيس سلسلة من الشركات الإيطالية وبصورة خاصة إنشاء شركة لنقل الحجاج إلى مكة المكرمة [28].

(*) رفض الفاتيكان باستمرار إقامة مسجد بروما . وكان ملك إيطاليا فيتوريو ايمانويل الثالث اقترح في بداية القرن بناء مسجد بروما كما اقترح المرشال بالبو حاكم ليبيا في عام 1937 بناء مسجد بروما إلا أن الفايتكان عارض الاقتراحين. ولم يتم تشييد المسجد بروما إلا في الفترة القريبة _ المؤلف .

(28) ANNA BALDINETTI _ ORIENTALISMO E COLONIALISMO _ ROMA, 1977 p. 36.
أنا بالدينتي _ الاستشراق والاستعمار - روما 1977 _ ص 36.

❖ صحيفة النادي

أدرك الدكـــتور إنساباتو، بعد أقامته فترة قصيرة في القاهرة، أن التيار المحـــافظ هـــو الأكـــثر قوة وتأثيراُ والأقرب إلى قلوب الناس، والقادر على تحقـــيق الأهـــداف التي تتطلع إليها إيطاليا وفي مقدمتها الاتصال بالسنوسية وجـــرها إلى الحوار بقصد إقناعها بالوقوف على الحياد في حالة احتلال ليبيا عســـكرياً. وكانت إيطاليا تخشى أن مناصرة السنوسية للأتراك سوف تطيل أمـــد الحـــرب وتـــزيد مـــن مصاعب إيطاليا العسكرية، وتدفع بالليبيين إلى مناصـــرة الأتـــراك بدون تردد ومقاومة الاحتلال الإيطالي، وسبق لقنصلية إيطالـــيا فـــي بنغازي أن بذلت جهوداً مماثلة عن طريق ممثل السنوسية في بـــنغازي أو بعض من يدعون أن لهم تأثيراً على السنوسية وقد باءت جميع هـــذه المحاولات بالفشل مما دفع بالدبلوماسية الإيطالية إلى البحث عن طرق أخـــرى للوصـــول إلى السنوسية. وكانت القاهرة أهم هذه الطرق، كما سبق وذكـــرنا، وقـــدم جوليتي لعملائه في القاهرة جميع التسهيلات والصلاحيات ومكنهم من الاتصال به مباشرة وقد أنشأ برئاسة مجلس الوزراء مكتباً لتلقي تقارير العملاء في القاهرة وبعض الجواسيس في ليبيا دون المرور بالقنوات الدبلوماسية المعتادة.

اســـتأذن إنســـاباتو من رئيس وزرائه إصدار صحيفة باللغتين العربية والإيطالـــية، بالقاهرة، لتكون مركز تجمع المعلومات والوسيلة لنشر الأفكار المؤيـــدة للمحافظين الإسلاميين والعمل على كسبهم إلى جانب إيطاليا بصفتها صـــديقة المسلمين والمتفهمة لمشاكلهم وطموحاتهم. وصدرت الصحيفة عام 1904 وأطلـــق علـــيها اســـم " النادي " التي استمر صدورها قرابة العشر ســـنوات، توقفـــت خلالها أكثر من مرة لفترات قصيرة وكانت المعبرة عن أفكار إنساباتو وعن حبه للإسلام وتقديره لمبادئه السمحة، وقيامه بالدفاع عنه فـــي إيطالـــيا وأوربـــا ضد كل من يحاول أن ينال منه، وكان يسرب ما بين

السطور مشاعر إيطاليا نحو المسلمين وسعيها لربط علاقة وثيقة بهم بصفتها الدولة الأوربية الوحيدة التي لم تسئ إلى الإسلام ولم تعاد المسلمين.

تــوج إنساباتو العدد الأول من الصحيفة بمقال افتتاحي ضمنه برنامج الصحيفة الذي يستند على أفكاره المنصفة للإسلام وعلى استعداده للدفاع عنه في أوربا ورغبته في توطيد العلاقات بينه وبين المحافل الإسلامية المحافظة وتأيـيدها في مقاومة الانزلاق نحو الحضارة الأوربية ومساوئها وقد جاء في المقال ما يلي:

"ســيعجب الكثــيرون مــن قــيام أوربي مسيحي بالدفاع عن الإسلام ومحاربــة أعدائــه. إننــي لا أعارض الإسلام لأنني أدركت قيمة الحضارة الإســلامية وقــد غضبت واستأت عندما رأيت أوربا تمتهن الدين الإسلامي وتتجاهله وتحكم عليه خطأ مدعية أنه دين يعادي التقدم الإنساني في حين أن الإسلام من العوامل الأساسية في تقدم الإنسان.

وإذا كــان الإســلام اســتهواني وأخــذ مني كل مأخذ إلا أن المجتمع الإســلامي لــم يشدني إليه، وبصفة خاصة المجتمع المصري وقد تأكدت أن هــناك عالميــن متميزين: العالم الأول ويتألف من أولئك الذين يتبعون دينهم وسنة العرب، وهؤلاء هم القريبون من قلبي بفضل أعمالهم الودية ونعومتهم وحــلاوة معشــرهم ورغبــتهم في الفهم والدراسة وحرصهم على الانطلاق وإدراكهــم الفــائق لمعنى الشخصية. وتشكل هذه الصفات تربية روحية حقة وأخــوّة حقيقــية بين المتميزين. أما العالم الثاني الذي وجدته في الشرق فهو عــالم مخــتلط، مضطرب فضولي مضحك يتألف من مقلدين سخفاء لأوربا ووجدتهــم لا يحــتفظون من الإسلام إلا باسمه ويودون تحويله إلى ما يشبه البروتســتانتية التــي تضــع علــى رأسها طربوشا لمصلحتها الخاصة .... ســنعطي للتصوف في هذه الجريدة مجالا واسعًا، فإن فيه كافة العناصر التي تنمــي وتقوي الإنسان في داخله وتفتح الضمير وتوسع مجال إحساسه وأنني

لألمــح فــي الصــوفية مظهــراً عجيــباً في صفاء القلب الإنساني وخلجاته المغمــورة. نحن نعتزم كذلك محاربة مظاهر التقليد السخيف والمضحك في نفس الوقت لأوربا ولا ريب أن من الغباء فرض حضارة جديدة على بلاد لها تقالــيدها القديمة حتى ولو كانت هذه البلاد تحت أنقاض هذه الحضارة .... وفــي هــذا الشرق كي يكون الإنسان تقدميا يجب عليه أن يكون في البداية رجعــيا بذكاء. لقد أسست هذه الجريدة من أجل إشاعة هذه الآراء فقط وفي اعــتقادي أنها صادقة وواقعية وليست لهذه الجريدة أي صفة رسمية كما أنها ليست في خدمة أية دولة ولن تنحني أمام أي مصلحة سياسية أو مالية " (29).

وفوجــئ الــناس، والمحافظون منهم بصورة خاصة، بأفكار الدكتور إنســاباتو وتوجهاته وصحيفته، وأعجبوا بهذا المثقف الأوربي المسيحي الذي يجاهر بتقديره للإسلام ويتطوع للدفاع عنه، ويدعو لــه بين قومه، وهو في نفس الوقت يشجع المسلمين على المحافظة على ثقافتهم وتراثهم وحضارتهم الإســلامية، وينصــحهم بعــدم العدو وراء سراب الحضارة الغربية. واقتنع الكثيرون بصدق مشاعر إنساباتو وحرارة أفكاره وفتحت صحيفة النادي أمام إنســاباتو جمــيع الأبواب، وأحدثت تأثيراً في الأوساط الإسلامية التي رأي بعــض رجالها أن يساعدوا هذا الرجل المتطوع للدفاع عن الإسلام والوقوف إلــى جانــبه. ونجح إنساباتو، عن طريق محمد علوي وصحيفة النادي، أن يرتــبط برجال الأزهر وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده والشيخ عليش العالم المشــهور، وبــالعديد من العلماء وخاصة المشائخ الليبيين بالأزهر وأغلبهم ينــتمون إلى الطريقة السنوسية. وكان محمد علوي على صلة بهم من قبل، غــير أن صــدور صحيفة النادي وظهور إنساباتو قد عزز العلاقات ما بين الطرفين وزاد من أهمية صحيفة النادي وتأثيرها.

(29) العلاقــات العربية - الإيطالية - كارلوقوتي بورشيناري ـ ترجمة عمر الباروني، طرابلس - مركز جهاد الليبيين 1980 ـ ص 37- 40.

تواصلت مقالات صحيفة النادي المفعمة بالمديح والاحترام للإسلام ورسالته السمحاء، والمنادية بالعودة إلى الإسلام النقي الطاهر والابتعاد عن تقليد أوربا. وأشادت النادي بالطرق الصوفية التي تعزز ضمير الإنسان وتعمق مشاعر الخير فيه وهاجم إنساباتو الحضارة الأوربية ونادى بالمحافظة على القديم وكتب يقول: "نحن نريد أن نحارب التقليد السخيف للأوربيين، فالبلد الذي لديه تقاليده وتراثه لا يمكن أن تفرض عليه حضارة أخرى، فالشرق إذا أراد التقدم عليه أن يكون رجعياً. إن المستقبل تكمن جذوره في ضمير الماضي" [30]. وكان يطبع من الجريدة خمسة آلاف نسخة ترسل إلى رجال الدين والعلماء في مصر والسودان والجزيرة العربية، ووصل تأثير الصحيفة خارج القاهرة درجة تدعو إلى العجب، فقد كتبت صحيفة "عرفات" التي كانت تصدر بالحجاز، مقالا جاء فيه: " إن ما يميّز الدكتور إنساباتو فكرته الجديدة عن المبادئ الإسلامية، وذلك على عكس معظم العلماء والكتاب الأوربيين، فعندما يقرا الإنسان كتاباته يشعر بحرارة صدقة وهو يتولى التعريف بالإسلام الحقيقي في أوربا وإيطاليا ". وأضافت الصحيفة أن أيدي إيطاليا نظيفتان من دماء المسلمين ونرجو أن تظل بعيدة عن العنف والسلب والنهب وأن تستوحي سياستها من الروح السلمية الكريمة لمجلة النادي [31]. ونشرت النادي مقالاً، يوم 25 – 5 – 1906، جاء فيه: " إن إيطاليا لم تتورط في الفظائع الاستعمارية وهي ترفض التعاون مع الوحوش (الدول الاستعمارية) وهي تقف ضد التوسع الاستعماري الذي يمارسه جيرانها، أي التوسع بالقوة أو الخداع كالتوغل السلمي المزعوم، وتؤمل أن يكون الوطنيون قادرين على منع ذلك". وينهي إنساباتو مقاله بقوله " لا يوجد غير الإيطاليين الذين في استطاعتهم التفاهم مع الشرقيين " [32].

---

(30) بوشيناري ـ العلاقات العربية – الإيطالية ـ المذكور ـ ص 39.

(31) صحيفة عرفات 26- 5- 1906 الحجاز.

(32) بورشيناري ـ العلاقات الليبية العربية – الإيطالية المذكور ص 41.

وقـد اسـتطاع محمـد علوي وإنساباتو، بهذا الأسلوب المخادع وهذه الأفكـار المضـللة، الـتغلغل في الوسط الأزهري والارتباط بصداقة الشيخ علـيش وغـيره من العلماء الذين سرهم وجود مثقف إيطالي كبير يدافع عن الإسـلام ويشـيد بمبادئه وسماحته ويعرف أوربا بحقيقته وواصلت الصحيفة صـدورها حـتى عـام 1913 رغم تغيب إنساباتو عن القاهرة لعدة فترات، واعتـبرت الحكومة الإيطالية أن صحيفة النادي من العوامل الرئيسية لتوطيد سياستها ونفوذها في الشرق الإسلامي، وقد طلب رئيس الوزراء جوليتي من وزيـر خارجيته أن يطلب من القنصل الإيطالي بطرابلس أن يزود الصحيفة بقائمـة بأسـماء أعيان ووجهاء والشخصيات الطرابلسية المرموقة لتزويدهم بالجريدة بانتظام.

كما طلب من وزير الخارجية أيضاً لفت اهتمام ممثلي إيطاليا في ألبانيا والصومال والصين واليابان إلى أهمية هذه المطبوعة القاهرية [33].

ورفض قنصل إيطاليا بطرابلس توزيع بعض أعداد الصحيفة بحجة أن المقـالات التي صدرت بالعدد 13 كانت تسيء إلى القنصليات الإيطالية وإلى عمـل الممثليـن الدبلوماسـيين في الخارج وتثير ضدهم الوسط المحلي ولم يسـكت إنسـاباتو علـى ذلـك ونشـر مقـالاً في صحيفة النادي هاجم فيه الدبلوماسـيين الإيطاليـن فـي الخارج الذين لم يكتفوا برفض الصحيفة بل يسعون إلي تدميرها.

وأصدر إنساباتو إلى جانب صحيفة النادي سلسلة من المطبوعات أطلق علـيها اسـم "مكتبة النادي" وصدرت المجموعة الأولي عام 1905 وضمت المقـالات التي نشرت في العامين الأولين من حياة الجريدة، وكتب إنساباتو مقدمـة لهـذه المجموعة جاء فيها: " رأيت من المناسب أن ألخص في كتيّب

(33) أنا بلدينتي ـ المصدر المذكور ص 38

صغير باللغة العربية جميع الأفكار التي عالجتها صحيفة النادي، وتم نشرها بآلاف النسخ في الأوساط الإسلامية باعتبارها القاعدة التي تقوم عليها سياسة إيطاليا الإسلامية "[34].

وتضمنت المجموعة الأولى عدداً من المقالات نذكر من بينها: التصوف في الإسلام، إيطاليا ومساعدة المسلمين، إيطاليا والإسلام، مطالب دول مقدونيا، الرق في الإسلام، مسألة اجتماعية هامة جداً، الحلف الإسلامي، صدى التزامنا الصحفي، نبل الإسلام واتجاهه في الحرب والسلم، سلوك الإسلام نحو الآخرين، معنى الرق في الإسلام، دليل جديد على وفاء إيطاليا لتركيا والإسلام، الخلافة وتوجه الإسلام السياسي، ودواعي إصدار هذا الكتاب.

وصدرت المجموعة الثانية عام 1907 بعنوان: " الضرورة والقاعدة لسياسة إسلامية " ضمنه عدداً من مقالات النادي. ومعظم مقالات صحيفة النادي التي جمعت في المجلدين المذكورين لا تخرج عن الإشادة بالإسلام وتعاليمه وشريعته، والتقارب الحضاري بين إيطاليا والإمبراطورية العثمانية، واحترام إيطاليا للإسلام، وخير مثال على ذلك معاملتها للمسلمين في الصومال والبنادير.

❖ إيطاليا والجامعة الأزهرية

استطاع الدكتور إنساباتو منذ وصوله القاهرة، الوصول، عن طريق محمد علوي، إلى علماء الأزهر وإلى الشيخ عبدالرحمن عليش بصورة خاصة *، والذي يبدو أن إنساباتو ارتبط به عن طريق إيفان العقيلي،

---

(34) أنا بالدينتي ـ المذكورة سابقاً ص 39.

(*) الشيخ عبدالرحمن عليش هو ابن محمد عليش مفتي المالكية وشيخ الجامع الأزهر سابقاً وشيخ الطريقة الشاذلية ، وقد ناصر ثورة عرابي وشارك في مقاومة بريطانيا وسجن وتوفي عام 1882، وكان ابنه عبدالرحمن أستاذا بالأزهر وقد قبض عليه وحكم عليه بخمس سنوات بالنفي في سوريا وأستانبول (المؤلف).

مســـاعده في صحيفة النادي والذي كان ينتمي إلى الطريقة التي كان يترأسها الشـــيخ علـــيش. وقد انخدع الأخير بكتابات إنساباتو ومشاعره نحو الإسلام، فـــنال عطفه وتعاونه لخير الإسلام والمسلمين، واعتقد الشيخ في نوايا إيطاليا الطيبة وتقديرها للإسلام والمسلمين. وظن أن ما ينطق به إنساباتو يعبر عن سياســـة إيطاليا وحقيقة مشاعرها نحو المسلمين، وساهم بعض أعوان الشيخ علـــيش فـــي تحرير صحيفة النادي، ويبدو أن علاقة الشيخ عليش بإنساباتو قامـــت أيضاً عن طريق محمد علوي، وازدادت ارتباطا بعد صدور صحيفة الـــنادي وظهـــور إنســـاباتو على الساحة وقد اندفع الشيخ في توطيد علاقته بالإيطاليين لدرجة أنه شيد مسجداً صغيراً على قطعة أرض بالقرب من داره وبالقـــرب مـــن الأزهر الشريف وأطلق عليه اسم أومبرتو الأول ملك إيطاليا الذي اغتيل في نهاية القرن. وكان بناء هذا المسجد وإطلاق اسم ملك إيطاليا علـــيه محل استغراب ودهشة وانتقاد، ولا ندري من الذي أوصى الشيخ بهذه الفكـــرة الغريـــبة التي رفضتها الأوساط والإسلامية واستنكرها بعض رجال الديـــن والمفكرين. وقد نشرت مجلة المصور الإيطالية مقالاً عن هذا المسجد بعـــنوان " إلـــى جانب الحياة " ذكرت فيه أن الشيخ عليش تكفل بنفقات بناء المســـجد فـــي حين تعهدت الحكومة الإيطالية بتأثيثه ونشرت المجلة صورة اليافطة المعدة لرفعها على المسجد باللغتين الإيطالية والعربية [35].

ومـــن الطبيعـــي أن عملاً كهذا لا يمر في مصر دون ردود فعل، فقد كتـــب الشـــيخ رشيد رضا مقالاً في صحيفة المنار بعنوان " بدعة غريبة في مصر"، انتقد فيه إطلاق اسم ملك مسيحي على مسجد إسلامي، وهاجم الشيخ علـــيش واتهمـــه بتلقي أموال من إيطاليا، وذكر أن الشيخ محمد عبده قد أقام قضـــية بدعوى أن بناء المسجد فوق الأرض القريبة من الأزهر غير شرعي

---

(35) L'ILLUSTRAZIONE ITALIANA, 11-6-1906, No. 6 .

المصور الإيطالي 11 ـ 6 ـ 1906 رقم 6

وأبــــرز محاميه وثائق تؤكد أن الأرض قد اشترتها إيطاليا [36]. وعاد رشيد رضا إلى الموضوع في نفس الصحيفة وكتب مقالاً بعنوان "سياسة إيطاليا في بــلاد المســلمين " قـــال فيه إن بناء المسجد هو جزء من سياسة إيطاليا في مصــــر[37]، واســتاء الإيطالــيون من هذا الهجوم الذي شاركت فيه صحف مصرية أخرى، فتدخل الدكتور إنساباتو وكلف الشيخ محمد الشربتلي بالدفاع عـــن الشـــيخ عليش من على صفحات النادي ليثبت بالدليل الشرعي أن بناء المســجد لا يــتعارض مـــع الشريعة الإسلامية [38]. ومهما كان الأمر، فإن إطـــلاق اسم ملك إيطاليا على مسجد إسلامي قد أساء إلى الشيخ عليش وإلى سمعته كعالم كبير من علماء الأزهر، ولاشك أن الذي أوحي إلى الشيخ ببناء المسجد قد أساء إليه وإلى إيطاليا نفسها، والشيخ عالم جليل تتلمذ عليه العديد من الطلبة الليبيين، وشهرته واسعة ولا شك أنه انقاد إلى علوي وإنساباتو عن حسن نية وكان ضحية لمؤامراتهما وقد تولى الدفاع عن الشيخ أيضا الصديق عبدالهادي العقيلي الذي كتب مقالاً في صحيفة النادي جاء فيه:

" لقـــد بنى الشيخ عليش على حسابه الخاص مسجداً أهداه إلى إيطاليا وســـماه باسم المرحوم الملك أومبرتو والشيخ عليش من أشهر رجال الإسلام وهو ابن مجدد المذهب المالكي وهو نفسه عالم متضلع محترم من الجميع من عامــــة الـــناس إلـــى الأمراء والسلاطين، ويترأس كذلك كثيرا من الطوائف الدينـــية الموزعة في كافة أطراف العالم الإسلامي وهو كذلك حجة المعقول والمنقول وفي الفقه والسياسة ...... وبمعرفته لأسطورة روما وبما لـــه من عطـــف على العقلية المسيحية، رغم أنه لا يقبل بعض ما فيها من ميتافيزيقة، وباطلاعـــه فـــي النهاية على إيطاليا المتجددة، وأنها تستطيع أن تكون مثالاً

(36) صحيفة المنار ـ القاهرة 10 ـ 7 - 1907
(37) صحيفة المنار ـ القاهرة 10 ـ 10- 1907.
(38) صحيفة النادي - العددان 3 و4 ـ يوليو واغسطس 1907.

يحتذي به وهادياً للشرق في مسيرته ...... إن إيطاليا تفضل أية دولة أوربية أخـــرى وهي التي ستكون حليفة قوية للمسلمين في الوقت الذي يشدون العزم القاطع على الانبعاث ..... والحقيقة تضطرنا إلى أن نذكر أن الابن الروحي للشـــيخ علـــيش محمـــد علوي الترجمان بالسفارة الإيطالية بالقاهرة، المتمتع بـــتقدير واســـع جدًا بين المسلمين من كردستان إلى المغرب، هو الذي كان وراء الشـــيخ علـــيش مشجعًا إياه ومؤيدًا لأعماله وقد قدم محمد علي علوي خدمـــات جليلة لإيطاليا مع محافظته على إسلامه وورعه ودون أن يقلل من كرامـــته. إنـــنا نعتقد أن الشيخ قد أدى هذا العمل عن إيمان وشعور مخلص وعلينا أن نلمس أن عمله هذا قوبل بتبادل أجرات طيبة" [39].

نســـتخلص مـــن المقال المذكور أن محمد علوي كان السبب في أقدام الشيخ عليش على بناء المسجد وتعريضه للانتقاد، والملفت للنظر أنه باستثناء صـــحيفة الـــنادي لم تقم أية صحيفة مصرية بالدفاع عن الشيخ عليش الذي ولاشك قد تأثر مركزه كعالم جليل من علماء الأزهر.

أمـــا المسجد فأصبح من مساجد الله الكثيرة في القاهرة وانقطعت صلته بإيطاليا بعد أن قطعت عنه الدعم المالي في عام 1917.

وأراد إنســـاباتو إصـــلاح الخطأ الذي وقع فيه وإشعار رجال الأزهر باســـتمرارية اهـــتمام إيطاليا بالمسلمين، فتقدم بطلب إنشاء رواق في الجامع الأزهـــري يخصـــص لطلبة المستعمرات الإيطالية في شرق أفريقيا ولليبيين مســـتقبلاً، وذلـــك تقلـــيدا لفرنسا التي أنشأت رواقا خاصا بأبناء المغرب من تونس والجزائر والمغرب وطلبة المستعمرات الفرنسية في أفريقيا. واشترت إيطالـــيا قطعـــة من الأرض بالقرب من الأزهر مساحتها 225 مترًا أقامت علـــيها مبـــنى الـــرواق الذي لم يتم بناؤه إلا بعد احتلالها لليبيا، وقد أسندت

---

(39) صحيفة النادي – العددان 3 و4 السابق ذكرهما.

إيطاليا إلى الشيخ أحمد الرغيبي مهمة إيجاد سكن للطلبة إلى أن يتم بناء الرواق، وبلغ عدد الطلبة آنذاك ثمانية عشر طالباً [40].

❖ الحوار مع السنوسية

كان الهدف الرئيسي من مهمة إنساباتو في القاهرة الاتصال بالسنوسية ودفعها إلى التفاوض مع إيطاليا لتحديد موقفها في حالة غزو ليبيا عسكرياً وكان محمد على علوي، قبل مجيء الدكتور إنساباتو إلى القاهرة، على صلة ببعض شباب العائلة السنوسية وكان يتبادل معهم الرسائل ويتولى تزويدهم بطلباتهم من السلع التي لا تتوفر في مصر بجلبها من إيطاليا. وكانت تتلخص هذه الطلبات في أشياء شخصية كالساعات وبنادق الصيد والسيوف والخناجر والمسدسات والمناظير المكبرة والكتب وغير ذلك، وكان بعض المرضى يصفون أمراضهم في رسائلهم وكان الدكتور إنساباتو يرسل إليهم بالدواء المناسب، وتوطدت بذلك علاقة ما بين الدكتور إنساباتو وبعض المرضى في الكفرة.

ويبدو أن محمد على علوي عرض على المجاهدين تزويدهم بكميات كبيرة من السلاح في الوقت الذي كانت المعارك مشتعلة في التشاد بين الليبيين والفرنسيين.

وكان الليبيون في حاجة إلى السلاح لمواجهة القوات الفرنسية في التشاد، ورمت إيطاليا من وراء هذا العرض إلى تحقيق هدفين: الأول – إطالة المقاومة الليبية ومنع الفرنسيين من الاستيلاء على الجنوب الليبي، والثاني احتواء السنوسيين وإقناعهم بعدم مناصرة تركيا إذا اندلعت الحرب. وكانت الأسلحة تصل إلى المجاهدين بواسطة زوارق يونانية ومالطية

(40) أنا بالدينتي – المصادر السابقة الذكر ص 39.

وغيرها وكانت تنزّل شحناتها في أماكن معينة من ساحل بنغازي، ثم تنقل على ظهور الإبل إلى الكفرة وكانت الحكومة الفرنسية على علم بعمليات تهريب الأسلحة إلى المجاهدين، فكانت تحتج على الحكومة التركية التي وعدتها بمصادرة الأسلحة إذا ما وضعت يدها عليها وبثت القنصلية الفرنسية ببنغازي العيون لتتبع وصول الأسلحة وإبلاغ السلطة عنها. وكان القنصل الفرنسي يسارع بإبلاغ المتصرف عن مكان إنزال الأسلحة غير أنه عندما تصل الشرطة إلى المكان الذي أنزل فيه السلاح تكون الشحنة في طريقها إلى الجنوب. وقصة تزويد المجاهدين في التشاد بالأسلحة كانت هي الوسيلة الوحيدة التي أراد منها إنساباتو الوصول إلى السنوسيين والتفاوض معهم، قد نُشرت في كتاب العلاقات العربية الإيطالية صور من بعض الرسائل المتبادلة بين السنوسيين ومحمد علي علوي، ومن بينها رسالة من السيد أحمد الشريف أرسلها لمحمد علوي يطلب شراء ثلاثة آلاف بندقية [41].

ومن غير المعقول أن السيد أحمد الشريف يتصل بإيطاليا أو يطلب منها سلاحاً وهو يعلم أنها تستهدف بلاده. وشراء الأسلحة للمجاهدين كان يقوم به أشخاص متخصصون اكتسبوا الخبرة في التعامل مع مختلف الجهات التي كانوا يشترون منها السلاح، وهم الذين يعرفون احتياجات المقاتلين وطلباتهم. كما أن شراء المدافع وآلاف البنادق وآلات صنع القنابل والبارود لا يتم بموجب رسالة بسيطة كهذه، ولذلك فإننا نستبعد صحة الرسائل التي يدعي محمد علوي أنه تبادلها مع السيد أحمد الشريف والمنشورة في كتاب العلاقات العربية الإيطالية المذكور والتي تخلو من ختم أو توقيع السيد أحمد. ويجوز أن محمد علوي قد تبادل مع السيد أحمد بعض الرسائل ذات الطابع الاجتماعي لا السياسي، أما فيما يتعلق بشراء الأسلحة فيبدو أن إنساباتو هو الذي تقدم بالعرض، كما ذكرنا، وقام بضغط متواصل على الحكومة الإيطالية

---

(41) كاولو فونتي بورشيناري ـ العلاقات العربية - الإيطالية ـ المذكور ص 121.

لتلبية طلبه موضحًا لها النتائج الإيجابية المترتبة على قبول هذا الطلب وترددت روما في الاستجابة لطلب إنساباتو خشية ردود فعل الحكومة الفرنسية وخوفاً من أن تعود هذه الأسلحة إلى صدور أبناء إيطاليا، وأراد إنساباتو أن يبدد مخاوف حكومته فأكد لها أن الثلاثة آلاف بندقية التي ستعطي إلى السنوسيين ستساهم في إيقاف تقدم الفرنسيين نحو الجنوب الليبي، وسوف تتبعثر في الصحراء وفي التشاد ولن تكون لها أي خطر على إيطاليا، بل ستمثل العامل القوي الذي سيربط السنوسيين بإيطاليا ويدفعهم إلى التعامل معها وتحييدهم في حالة اندلاع الحرب مع تركيا. وكان رئيس الوزراء الإيطالي جوليتي ميالاً إلى الاستجابة لطلب إنساباتو إلا أنه فضل أن يأخذ رأي القصر الملكي في الأمر، وقد رد عليه الجنرال بروساتي رئيس الدائرة العسكرية الملكية، بأنه لا يثق في إنساباتو وعارض فكرة إرسال أسلحة أو هدايا للسنوسيين [42]. وأوصدت الحكومة الإيطالية الباب في وجه إنساباتو ورفضت بيع الأسلحة للسنوسيين.

تغاضت وزارة الخارجية الإيطالية عن إنساباتو ونشاطه في مصر واقتراحاته بعد أن تخلى جوليتى عن الحكم، وبدأت تتضايق من تصرفاته التي انحرفت عن المهمة الأساسية التي كلف بإنجازها. فقد استعمل صحيفة النادي وسيلة للتدخل في شئون لا تهم السياسة الإيطالية، مثل موضوع نقل الخلافة من استانبول إلى القاهرة، وتشجيع مشائخ واداي على مقاومة فرنسا، ومهاجمة لورد كرومر المعتمد البريطاني بمصر، ومهاجمته للاستعمار، وغير ذلك من المبادرات التي كانت تتعارض أحياناً مع سياسة إيطاليا وتثير استياء الوكالة الدبلوماسية ووزارة الخارجية الإيطالية.

وقد استغرقت محاولات إنساباتو لتزويد السنوسيين بالسلاح عدة

---

(42) ف مالجيري ـ الحرب الليبية ـ ترجمة وهبي البوري دار الكتاب العربي طرابلس 1978 ص 35.

سنوات وكانت محاولته الأخيرة ورفض القصر الملكي لها في النصف الأول من عام 1911، بعد أن قررت الحكومة الإيطالية غزو ليبيا عسكرياً وتخلت عن التوغل السلمي والإعداد المحلي السياسي وعن تحييد السنوسية، مدفوعة باعتقادها أن الحرب ستكون نزهة عسكرية وأن العرب لن يرفعوا السلاح في وجه قواتها لمناصرة الأتراك. وقد رفضت الحكومة الإيطالية بيع السلاح إلى السنوسيين، غير أن المؤرخ البريطاني بريتشارد يؤكد بناء على ما سمعه من مشـــائخ القبائل، بأن إيطاليا زودت السنوسيون ببعض السلاح (43)، وقد عمل بريتشارد كضابط في الجيش السنوسي خلال الحرب العالمية الثانية واستعان في وضع كتابه بالمعلومات التي استقاها من مشائخ الليبيين الذين شاركوا في حرب التشاد.

ونعــود إلـــى الحـــوار مع السنوسية الذي جاء من أجله إنساباتو إلى القاهـــرة، والذي كانت الحكومة الإيطالية تعلق عليه أهمية كبيرة، وبالاطلاع على الرسائل المتبادلة ما بين محمد علوي والسنوسيين والمنشورة في كتاب العلاقات العربية الإيطالية، لا نجد أية إشارة إلى فكرة التفاوض والتحاور ما بين الطرفين كما يدّعي إنساباتو. والرسالة الوحيدة التي تتحدث عن السلاح، إن تـــأكدت صـــحتها، تؤكـــد دفع ثمنه عند الاستلام. ويبدو أن محمد علوي وإنســـاباتو بعـــثا بعـــض الهدايا إلى أفراد من الأسرة السنوسية ربما دفعت الحكومة الإيطالية ثمنها، غير أن هذه الهدايا والمشتريات لم يترتب عليها أي مغـــزى سياسي، فالسنوسيون كانوا يعتبرون محمد علوي وكيلاً تجارياً يوفر لهـــم الســـلع التـــي كانت لا تتوفر في مصر. والغريب في الأمر أن الكاتبة الإيطالـــية أنـــا بالدينـــتي مؤلفة كتاب الاستشراق والاستعمار المذكور، وقد خصصـــت جـــزءاً كبيراً من كتابها لنشاط إنساباتو في القاهرة، وقد اطلعت الكاتـــبة على وثائق وزارة الخارجية الإيطالية ودار الوثائق المصرية وعلى

(43) Evans-Pritchard _ The Sanusi of Cyrenaica _ Oxford 1940, p. 108

محفوظـــات الســفارة الإيطالية التاريخية بالقاهرة وعلى العديد من المصادر الأخرى وتحدثت بالتفصيل عن إنساباتو ونشاطه لصالح إيطاليا وعن علاقاته بعلمـــاء الأزهر ومحمد علوي وعن مساعيه ومبادراته لتحسين وجه إيطاليا وإقامة تعاون وعلاقة جيدة بينها وبين المسلمين، إلا أنها لم تشر من بعيد أو مـــن قريب إلى اتصالاته بالسنوسية والعمل إلى جرها إلى حوار مع إيطاليا، علمًـــا بـــأن المهمة الأساسية التي ذهب إنساباتو من أجلها إلى القاهرة كانت الاتصال بالسنوسية ومحاولة إقناعها بالبقاء على الحياد والحيلولة دونها ودون مناصرة الأتراك في حالة اشتعال الحرب بين الطرفين.

ولعل السبب يعود إلى أن إنساباتو لم يعط الأولوية لموضوع الاتصال بالسنوســـية وربـــط الاتصال بها ببيعها الأسلحة، فأعماله وأفكاره في القاهرة تشـــعبت وامـــتدت إلـــى اليمن وعسير والسودان والصومال، وموضوع نقل الخلافـــة وبناء روابط قوية بين إيطاليا والعالم الإسلامي. وقد اتخذ من مجلة الـــنادي المنـــبر الـــذي كان يبث منه أفكاره والسلاح الذي كان يدافع به عن نفســـه، وأهملته الحكومة الإيطالية والوكالة الدبلوماسية الإيطالية بالقاهرة بعد ســـقوط جوليتي وتضايقت السلطات البريطانية في مصر من نشاط إنساباتو ومجموعته وأشعرت الحكومة الإيطالية أنه شخص غير مرغوب فيه. وكان إنســـاباتو يحـــاول نشر نفوذ إيطاليا في مصر وفي بلاد عربية أخرى أسوة ببريطانيا وفرنسا، وقد أدلى بتصريحات إلى الصحف الإيطالية (44) هاجم فيها الدبلوماسيين الإيطاليين في الصومال وأكد أن الإنكليز يتوسعون في أفريقيا. وأثـــارت هـــذه التصـــريحات غضب الإيطاليين والبريطانيين والأتراك على الســـواء ورد علـــى إنساباتو قنصل إيطاليا في الحديدة، الذي اتهمه إنساباتو بالمشـــاركة فـــي موضـــوع الخلافـــة، بكلام لاذع ووصف إنساباتو بالكذب

(44) CORRIERE DELLA SERA _ MILANO 21-12 –1905.
IL MESAGGERO _ ROMA 21-12-1905.

والـــتزوير والجهل وقال إن بريطانيا لا مصلحة لها في نقل الخلافة، وطالب الوزارة بمعاقبة إنساباتو.

واشـــتكت الوكالـــة الدبلوماســـية إلـــى وزارة الخارجـــية بخصوص تصـــريحات أدلى بها إنساباتو إلى الصحف الإيطالية مدعياً أن الحبشة تستعد لغـــزو مصـــر[45]، واشـــتكت السلطة البريطانية منه بسبب مهاجمته للمعتمد البريطانـــي لورد كرومر الذي أمر بأبعاده عن مصر. وغادر إنساباتو مصر فـــي نهاية عام 1907، وعاد إليها في عام 1910 كمندوب لوزارة الداخلية. وانضـــم إلـــيه محمد على علوي، الذي أعفى من عمله في الوكالة الإيطالية، وعاد الاثنان إلى نشاطهما القديم والعمل على الاتصال بالسنوسية ودفعها إلى الـــتفاوض مع إيطاليا. وأعاد إنساباتو ضغطه على الحكومة الإيطالية لتزويد الليبييـــن بالســـلاح، وقام في هذه الفترة محمد على علوي بالاتصال ببعض زعمـــاء واداي وتحريضـــهم علـــى مقاومـــة فرنسا [46]. وانزعجت الوكالة الإيطالية من جديد من نشاط إنساباتو، وخاصة بعد أن أشعر الخديوي الوكالة بصـــورة خاصـــة أن تصـــرفات إنساباتو وعلوي قد تضر إيطاليا أكثر مما تنفعها. وكتب الممثل الدبلوماسي الإيطالي رسالة إلى وزارة الخارجية يطلب فـــيها تعلـــيمات بخصـــوص التعامل مع إنساباتو ومحمد على علوي، مؤكداً للوزارة بأن نشاطهما بالنسبة للصومال والسنوسيين وطرابلس كان فاشلاً وأن العمـــل الإيجابـــي الوحـــيد الذي قاما به هو إنشاء رواق للرعايا الإيطاليين بالأزهـــر، والذي لم يتم فيه العمل بصورة عملية إلا بعد ابتعاد محمد علوي عـــنه [47]. واصـــل إنساباتو الضغط على الحكومة الإيطالية لإرسال أسلحة وهدايـــا للسنوسية وذلك لاتقاء حرب دينية قد تقوم ضد إيطاليا إذا ما احتلت

---

(45) أنا بالديني – الاستشراق والاستعمار سالف الذكر ص 57 .

(46) أنا بالدينتى السالفة الذكر ص 158.

(47) أنا بالدينتي السالفة الذكر ص 158.

ليبيا عسكرياً. ولاشك أن إنساباتو كان متأثراً بالسياسة التي اتبعتها فرنسا في جـنوب الجزائر بالاستعانة بالطريقة القادرية. وأثار إعفاء محمد علوي من العمـل بالوكالـة الدبلوماسـية ردود فعل في الصحافة المصرية وقد كتبت صـحيفة الاسـتقامة أن محمد علوي طرد من البعثة لإفشائه أسرار الوكالة، وغضـب إنساباتو لما نشرته الصحيفة وطالب الخديوي بإغلاقها وفقاً لقانون الصـحافة. ومنذ عودته إلي القاهرة أخذ إنساباتو يتصرف وفقاً لأفكاره دون أخـذ رأي الوكالـة الدبلوماسية التي وضع تحت تصرفها أو العمل بتعليمات الوزارة، الأمر الذي دعا رئيس الوزارة إلى استدعائه للمرة الثانية. وقد كتب وزيـر الخارجـية الإيطالـي إلى رئيس الوزارة بخصوص نشاط إنساباتو وعلـوي في القاهرة، قائلا إن الأمر كله يدور حول تزويد السنوسية بالسلاح لا غير (48).

* * * *

فـي خريف عام 1911 قبيل الغزو بأشهر قليلة، طلب جوليتي رئيس الـوزراء مـن إنساباتو أن يزور طرابلس وبرقة بصحبة محمد علوي ويقدم لـه تقريراً عن الأوضاع في هذين القطرين، وكان جوليتي قرر غزو ليبيا بدون إعداد محلي وبدون التفاهم مع السنوسية. وزار إنساباتو ورفيقه بنغازي واجـتمع ببعض أعيانها الذين حدثوهم بصراحة عن الوضع وعن تصرفات إيطالـيا المكشوفة وسياستها المعلنة لتغزو ليبيا. وفي طرابلس زار إنساباتو ومحمـد علوي الأمير القرمنلي وبعض الشخصيات الدينية والوالي وغيرهم، وركـز إنسـاباتو في تقريره إلى جوليتي على بنك روما وتصرفاته الخاطئة وفشـله الذريـع في مهمته وعن كراهية الليبيين له، وبعض المعلومات عن الطـريقة المديـنة وأهمية كسبها لجانب إيطاليا، وهاجم القنصل الإيطالي في

(48) أنا بالدينتي السالفة الذكر ص 62.

بـنغازي بدعوى أنه يدعي كذباً الاتصال بالسنوسية. وكان إنساباتو قد احتكر العلاقة بالسنوسية هو ومحمد علوي ولا يريد منافساً آخر، وبلغ الأمر أن ادعي باطلاً أن السنوسيين قالوا إنهم لا يقبلون وسيطاً بينهم وبين إيطاليا غير محمد علوي. وفي سبيل إنجاح مهمته التي توفر له الشهرة والجاه، لم يتورع إنساباتو ورفيقه محمد علوي عن التزوير والكذب وقلب الحقائق وتشويه سمعة من كان ينافسه في محاولاته الفاشلة مع السنوسية.

❖ التمهيد للغزو عن طريق الثقافة

ليس من المستطاع تجاهل أو إنكار ما قدمه علماء أوربا المتخصصون في الدراسات الشرقية والذين يطلق عليهم اسم المستشرقين، من خدمات قيمة للمعرفة بصورة عامة، وللعلوم والآداب والتاريخ العربي والإسلامي بصورة خاصة.

ولولا جهودهم ومثابرتهم ما كان لكثير من المخطوطات الثمينة أن ترى الضوء ويطلع عليها الناس، فدراساتهم وأبحاثهم وتحقيقاتهم تحظى بكل تقدير وعرفان.

غير أن الدول الاستعمارية الأوربية سخرت بعض هؤلاء المستشرقين لخدمة أغراضها ومصالحها الاستعمارية، فارتبطوا بالاستعمار واعتبروا من أعوانه وذلك دون أن يؤثر هذا التعاون في دراساتهم وأبحاثهم وتحقيقاتهم الموجهة لإثراء المعرفة لا غير. وقد أثر، دون شك، هذا الترابط بين الاستشراق والاستعمار في مصداقية العديد من هؤلاء العلماء ووضعهم في موضع الاتهام.

وأثار الكاتب المعروف إدوارد سعيد موضوع ارتباط الاستشراق بالاستعمار في كتاب نشره في نيويورك عام 1978 بعنوان " الاستشراق"[49]

(49) إدوارد سعيد، الاستشراق – الترجمة الإيطالية ـ تورينو 1990 ص 220.

اتهم فيه تعاون المستشرقين مع الدول الاستعمارية. وقد أحدث الكتاب صدى واسعاً في الأوساط المثقفة ولاقي استحسانا وانتقادا في نفس الوقت، غير أن الكتاب كشف الستار عن الدور الذي قام به المستشرقون الأوربيون لصالح الاستعمار، ومن الواضح أن الترابط ما بين الاستشراق والاستعمار بدأ ينكمش ويتلاشى مع انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية وتصفية الاستعمار. وهبّ عدد من المستشرقين للدفاع عن أنفسهم ورفض تهمة التعاون مع الاستعمار عنهم، وتناول الموضوع كتاب آخرون من العرب والأوربيين، ونشرت مجلة " ديوجين" DIOGENE التي تشرف عليها اليونسكو، مقالاً لأنور عبدالملك بعنوان " الاستشراق في أزمة" (50) تحدث فيه عن أفول نجم الاستشراق بعد زوال الاستعمار. وردّ عليه العديد من المستشرقين ومن بينهم المستشرق الإيطالي المعروف فرانسسكو غابريلي F.GABRIELI الذي دافع عن المستشرقين الإيطاليين ونفي عنهم تهمة الترابط بالاستعمار، وضرب مثلاً على ذلك بليوني كايتاني الذي عارض في مجلس النواب احتلال ليبيا*. إن ما يهمنا في هذا البحث دور المستشرقين الإيطاليين في خدمة الاستعمار الإيطالي بداية من عمليات التمهيد لغزو ليبيا.

ولم يحظ النقاش حول ارتباط الاستشراق بالاستعمار الإيطالي باهتمام المؤرخين والنقاد الإيطاليين إلا بصورة محدودة، ومع ذلك لم ينكر بعض المستشرقين الإيطاليين خدمة الاستشراق الإيطالي لأغراض الاستعمار. وقد نشرت مجلة "نوفا أنتولوجيا" NUOVA ANTOLOGIA مقالاً لكاتب باسم مستعار عرف فيما بعد بأنه ليفي ديلافيدا L. DELLA VIDA وهو مستشرق إيطالي معروف جاء فيه: " بالرغم من أن معظم أعمال ودراسات المستشرقين الإيطاليين كانت مركزه على البحث العلمي الصرف في الفترة

---

(50) A. ABDELMALEK: L'ORIENTALISME EN CRISE _ DIOGENE, 1963, No. 44 p. 109-142.

(*) الأميرليوني كائيتاني caetani مستشرق وضع كتاباً بعنوان حوليات الإسلام سجل فيه الأربعين سنة الأولي من حياة الإسلام، وقد عارض بقوة احتلال إيطاليا لليبيا (المؤلف) .

الاســتعمارية، غــير أن التوسع الاستعماري كان يقدم إمكانيات أكثر للبحث العلمــي، غير أنه من وجهة نظري لا يمكن أن ننكر أنه منذ سنوات الإعداد للحملــة الليبــية، وضع المستشرقون الإيطاليون أنفسهم، أكثر من مرة، في خدمــة الاستعمار الإيطالي، وباستثناء حالات نادرة فإن الترحيب بغزو ليبيا جاء من جميع الأوساط الأكاديمية والثقافية الإيطالية وأن الصوت الوحيد من بين المستشرقين الذي عارض كان صوت ليوني كايتاني."

إن تورط المستشرقين الإيطاليين مع الاستعمار الإيطالي لا يحتاج إلى دليل، وخاصة في العهد الفاشستي حيث قام أغلبهم بتلبية ما كان يطلب منهم.

وعــندما بــدأت إيطالــيا الإعــداد والتمهيد لغزو ليبيا استعانت بكبار مستشــرقيها لخدمة أغراضها عن طريق التدريس في الجامعة المصرية كما سيأتي ذكره.

♦ إيطاليا والجامعة المصرية

كــان إنشــاء جامعة القاهرة عام 1908 فرصة ثمينة لإيطاليا من أجل تكثيف جهودها المبذولة من قبل لنشر لغتها وثقافتها أسوة بفرنسا وبريطانيا، وكمدخــل لتوطــيد النفوذ الإيطالي والتأثير في الطبقة المثقفة بالبلاد. وكان الأمــير فــؤاد (الملــك فــؤاد فيما بعد) يتولى إدارة الجامعة، وهو معروف بارتباطه بإيطاليا التي تلقى علومه بها وأحبها. وكان والده الخديوي إسماعيل صــديقا لأسرة سافويا الحاكمة في إيطاليا التي آوته بعد أن تنحي عن الحكم فــي مصر وقد منحته الملكة مرغريتا قصرها في روما لإقامته - وقد رأي مجلــس إدارة الجامعــة الولــيدة أن يستعين بخبراء أجانب لتنظيم الجامعة، فاقترح الأمير فؤاد الاستعانة بمستشرقين إيطاليين للقيام بهذه المهمة.

وقد سبق لمصر أن استعانت بالخبرات الأجنبية في مجال التعليم وفي مجالات أخرى، وقام كلوت بك الفرنسي بتأسيس مدرسة الطب بقصر العيني

عـــام 1826، وكـــان محمـــد علـــى باشا قد استدعاه من فرنسا ليقوم بتنظيم الخدمات الصحية العسكرية. وكانت مساهمة الإيطاليين في المدرسة ملموسة، فقد كان بها أربعة مدرسين من بين تسعة من جنسيات أخرى، رغم أن التعليم كان باللغة الفرنسية ورغم أن إيطاليا الموحدة لم تولد بعد.

وكـــان للإيطاليين نصيب في مدرسة الحقوق التي أسست عام 1868 والتي تولى رئاستها المشرع الفرنسي المعروف فيدال VIDAL منذ نشأتها حـــتى عام 1891. وقد درس بها أستاذ إيطالي رغم أن الدروس كانت تلقي باللغة الفرنسية، وقد بلغ عدد طلبة هذه الكلية أربعمائة طالب في عام 1907.

ومـــنذ بدايـــة القرن العشرين كثر حديث المثقفين والساسة عن تأسيس جامعـــة مصـــرية أو كليات جامعية، ولم تتحقق الفكرة إلا في عام 1908 وقد تبـــناها الأمير أحمد فؤاد (الملك فؤاد) وأشرف عليها وقام بتنظيمها على أساس أن تكـــون جامعة عصرية مثل الجامعات الأوربية. وكان ولابد من الاستعانة بمدرّســـين أوربيين، وفضّل الأمير فؤاد الإيطاليين بالنظر لعلاقته الوطيدة بهم، وتحمســـت إيطالـــيا للفكـــرة ووفـــرت لـــــه خيرة مستشرقيها وعلى رأسهم المستشرق المعروف نالينو NALLINO وانياتسو قويدى I. GUIDI اللذين قامـــا بـــتدريس تـــاريخ الأدب العربي، باللغة العربية. كما كلف الأستاذ فاقو FAGO بتنظيم المكتبة وأمور أخرى، وكان الأمير فؤاد يريد أن يكون أغلب المدرسين من الإيطاليين، غير أن الفرنسيين قاوموا الفكرة وكذلك مجلس إدارة الجامعة واقتصر الأمر على ثلاثة مدرسين إيطاليين بالإضافة إلى الأستاذ فاقو.

وتزامـــن مولـــد الجامعة المصرية مع تفكير إيطاليا الجدي في احتلال ليبـــيا، وقد رأت في وجود عدد من الأساتذة الإيطاليين في الجامعة المصرية فرصـــة ثمينة لنشر لغتها وثقافتها ونفوذها في مصر، وقامت في نفس الوقت بالضـــغط على الأمير فؤاد لتدريس اللغة والآداب الإيطالية بالجامعة الوليدة، وتصدّت لها فرنسا ورفض مجلس إدارة الجامعة الفكرة.

وتقـــرر فـــي عام 1910 تأسيس كلية الآداب، وقبل أن يوافق مجلس إدارة الجامعـــة علـــى إنشاء الكلية اتفق الأمير فؤاد مع الممثل الدبلوماسي الإيطالـــي على أن تكون هيئة التدريس بكاملها من المستشرقين الإيطاليين، ووصف الممثل الدبلوماسي في رسالة إلى وزارة الخارجية الكلية بأنها كلية إيطالـــية داخـــل الجامعـــة المصرية[51]، واتفق الأمير فؤاد مع نالLينو على اختـــيار المدرســـين الذين تحتاجهم الكلية الجديدة ومعظمهم من الإيطاليين. وأســـرع الممثل الدبلوماسي الإيطالي بالقاهرة إلى إشعار وزارة الخارجية بالمزايا والفوائد التي ستعود على إيطاليا من إنشاء هذه الكلية، وحددها في النقاط التالية:

1- توطيد النفوذ الإيطالي الذي سيتردد صداه في جميع بلاد الشرق.

2- خلـــق جهـــاز دعايـــة في جميع العالم الإسلامي الذي تعتبر القاهرة، بسبب وجود الجامع الأزهر، مركزه الثقافي.

3- زيادة أهمية الجالية الإيطالية في مصر.

4- زيادة الطلبة المصريين في الجامعات الإيطالية.

5- عدم منافسة المعاهد المحلية للكلية.

وتحركـــت الحكومـــة الفرنسية وتعهدت بمساعدة الكلية بمبلغ كبير من المال على شرط أن تكون غالبية مدرسيها من الفرنسيين، واعترضت فرنسا علـــى اســـتئثار الإيطاليين بالكلية وساندها مجلس إدارة الجامعة الذي طالب بحـــق المصـــريين فـــي التدريس بكليتهم وجامعتهم. وتحول الموضوع إلى صراع سياسي ما بين فرنسا وإيطاليا وكان لردود الفعل المصرية والفرنسية وقعاً مؤلماً على ساسة إيطاليا الذين كانوا ينتظرون الكثير من سيطرتهم على

---

(51) أنا بالدينتي ـ السالفة الذكر ص 98.

الجامعـــة المصرية، وخشيت الحكومة الإيطالية حدوث سوء تفاهم بينها وبين فرنســا فسحبت مشروعها. أما بريطانيا فاكتفت بالنفوذ السياسي والعسكري وتعليم اللغة الإنكليزية بالجامعة. وقد استطاعت إيطاليا في نهاية المطاف أن يكون لها بالجامعة ثلاثة مدرسين من بين عشرة، وأصيبت إيطاليا بخيبة أمل وأصــيب مستشــرقوها بالإحباط لأن المواد الهامة وزعت ما بين الفرنسيين والمصــريين، وكانــت إيطاليا تؤمل من نشر لغتها وثقافتها في الجامعة، في تلك الفترة، أن تؤثر في المثقفين المصريين وتؤمن سكوتهم في حالة احتلالها القريب لليبيا.

واســتمر، مع ذلك، تعاون إيطاليا مع الجامعة على أمل أن يعظم هذا الدور مع توسع وتوطيد الجامعة واستمرار الأمير فؤاد على رأسها، غير أن فرنســا كانــت واقفة لها بالمرصاد ولا تسمح بازدياد نفوذها أكثر من الحد المعقــول. وكانـــت فكرة التأثير على الرأي العام المصري، عن طريق دور إيطاليا الثقافي، فكرة راسخة في ذهن ساسة إيطاليا، فقد كان يسودهم الاقتناع بــأن المثقفيــن المصريين إذا تمت استمالتهم ثقافياً إلى جانب إيطاليا فسوف يكــون لهــم دور إيجابي في إقناع الرأي العام بالفوائد التي سيجنيها الشعب الليبي من احتلال إيطاليا لأرضه بعد أن يتخلص من الحكم التركي ومساوئه، وينعم في ظل الاحتلال الإيطالي بالتقدم والرخاء والخروج من التخلف.

وتؤكــد هــذه السياسة وهذه الأفكار جهل المسئولين الإيطاليين بتاريخ ومشاعر الشعب المصري وبالروابط الروحية والثقافية والعرقية التي تربطه بالعـــالم العربي بصورة عامة وبشعب ليبيا المجاور بصورة خاصة. كان من الغباء السياسي اعتقاد إيطاليا أن مجاملة بعض مشائخ الأزهر لها أو صداقتها للأســرة الحاكمـــة أو نشر لغتها وثقافتها تكفي لكبح جماح الشعب المصري ودفعه إلى الوقوف موقف المتفرج على احتلال إيطاليا لليبيا واستعباد شعبها، وخاصـــة وأن الشـــعب المصري كان يخوض معركة التحرير من الاحتلال

البريطاني. ولا يقتصر هذا الغباء السياسي على منفذي السياسة الإيطالية فحسب، بل نراه يصل إلى القمة، والدليل على ذلك نجده في رسالة وجهها وزير الخارجية الإيطالي إلى ممثله بالقاهرة بعد الغزو ووقوع مذابح شارع الشاطئ وإبعاد آلاف الليبيين إلى سجون إيطاليا، والوزير يطلب في رسالته من المدرسين الإيطاليين بالجامعة المصرية: " بأن يخصصوا بعض المحاضرات للحديث عن العلاقات الإيطالية المصرية ليؤدوا بذلك، بصورة غير مباشرة، عملاً وطنيا سياسياً وعليهم أن يوضّحوا، من خلال هذه الأحاديث، بأن احتلال إيطاليا لليبيا لا يعادي العروبة إطلاقا، ولا يوجد أي سبب مشروع يدفع بعرب مصر الأصيليين إلى العمل ضدنا والوقوف إلى جانب الأتراك والبربر وقطاع الطرق الذين لا يزالون يقاومون غزونا الذي سوف يستفيد منه عرب ليبيا الحقيقيين والأصيليين"[52]. وهذه الرسالة غنية عن التفسير لأنها تعكس بوضوح الظلام الذي كانت تتخبط فيه وزارة الخارجية الإيطالية في تعاملها مع الشعوب العربية والإسلامية. لقد أقدمت إيطاليا على احتلال ليبيا دون دراسة لتاريخ الشعب الليبي وأوضاعه وطموحاته، وهل من السهل أن يتقبل احتلالاً عسكرياً إيطالياً كبديل للحكم التركي الإسلامي؟ لقد وصف وزير خارجية إيطاليا أهل ليبيا بأنهم من البربر والقتلة وقطاع الطرق وطلب من المدرسين الإيطاليين أن يقولوا ذلك للطلبة المصريين كي يتعاطفوا مع إيطاليا ومع عملها المتدني الذي تقوم به في ليبيا. وظل تجاهل إيطاليا لحقوق الليبيين ورغباتهم ومشاعرهم طابع السياسة الإيطالية طيلة الثلاثين عامًا التي احتلت فيها إيطاليا ليبيا والتي واجهت خلالها حربا دامت عشرين عامًا كبدتها الخسائر الباهظة وأفسدت مخططاتها الإسكانية وكبدت الشعب الليبي ضياع نصف سكانه.

---

(52) الرسالة بمحفوظات وزارة الخارجية الإيطالية تحت رقم 134 / 15 asmae-ae راجع أيضا أنا بالدينتي ـ الاستشراق والاستعمار السابق الذكر ص 110.

❖ المدرسة التحضيرية

لم يقتصر التدخل الإيطالي على الجامعة فقط، بل امتد أيضًا إلى المدارس الثانوية فقد اقترح إنساباتو على حكومته، كما سبق وذكرنا، إنشاء مدرسة إيطالية لتعليم أبناء المصريين اللغة الإيطالية إلى جانب اللغتين الإنكليزية والفرنسية، غير أن الحكومة الإيطالية رفضت المشروع واقترحت تعليم اللغة الإيطالية في إحدى المدارس الثانوية الكبيرة مقابل دعم مالي سنوي. ووقع اختيار إنساباتو على المدرسة التحضيرية التي كانت تعد واحدة من أهم وأجود المدارس الخاصة في القاهرة، وكانت المدرسة في تلك الفترة تواجه صعوبات مالية بسبب سرقة أمين صندوقها ما في خزانتها من أموال وفراره، ورحب مدير المدرسة بالاقتراح الإيطالي وأعرب عن استعداده لتعليم اللغة الإيطالية في مدرسته. ولاحظت الحكومة الإيطالية أن اتجاه المدرسة التحضيرية كان اتجاها وطنياً إسلامياً وكانت ترتبط بالقصر الخديوي وتقاوم الاحتلال البريطاني وقد وضع مديرها تحت الرقابة بسبب نشاطه الوطني وبسبب انتماء بعض طلبة المدرسة السابقين إلى جمعيات سرية، فترددت الحكومة الإيطالية في مساعدة مؤسسة تعليمية تعادي بريطانيا. وأنذر مدير المدرسة الحكومة الإيطالية بأنها إذا لم تدفع الدعم المالي في أقرب وقت فإن الحكومة الفرنسية مستعدة لمساعدة المدرسة ماليًا إذا ما أقرت تعليم اللغة الفرنسية بدلاً من الإيطالية. واضطرت إيطاليا إزاء هذا التهديد أن تدفع الدعم المالي عن طريق جمعية دانتي اليقييري الثقافية وأرادت الحكومة الإيطالية أن تتخذ من المدرسة وسيلة لنشر لغتها بين المصريين، وتوطيد نفوذها واكتساب الطلبة إلى جانبها في حالة اعتدائها على ليبيا. واستمر تعليم اللغة الإيطالية في المدرسة واستمر الدعم المالي غير أن إيطاليا زادت من هيمنتها على المدرسة بعد أن اشتراها محمد رياض شقيق محمد علوي والطالب السابق في المدارس الإيطالية، وزادت من حصص اللغة الإيطالية وخصصت جوائز لمن يدرسون الإيطالية وشجعت الطلبة على تعلمها ووعدت المتفوقين في هذه اللغة بإرسالهم

لإتمام تعليمهم في الجامعات الإيطالية. وأعد علم إيطالي ليرفع في المدرسة في المناسبات القومية وكان عدد طلبة المدرسة يتجاوز الألف طالب وطالبة، غير أن جميع هذه الجهود باءت بالفشل بعد أن غزت إيطاليا ليبيا وتظاهر طلبة المدرسة كغيرهم من الطلبة ضد إيطاليا، ورفضوا لغتها وثقافتها ومنتوجاتها، ودفع هذا الموقف بالحكومة الإيطالية إلى إيقاف المعونة عن المدرسة وإيقاف تعليم اللغة الإيطالية.

❖ المعهد الإيطالي للدراسات الشرقية

تبلورت في ذهن الساسة الإيطاليين فكرة إنشاء معهد للدراسات الشرقية بالقاهرة وذلك بعد النجاح الذي حققه الإيطاليون في الجامعة المصرية والذي كانت إيطاليا تحبذ دعمه وتوسيع رقعته. وتوقعت أن يكون هذا المعهد مركزاً يتجمع حوله المثقفون المصريون والعرب والأجانب الدارسون والباحثون في مجالات المعرفة والثقافة، وأن يصبح، مع مرور الزمن، منارة للعلم في الشرق الأوسط فيعظم بذلك نفوذ إيطاليا الثقافي والسياسي ويرتفع إلى مستوي الدول الأوربية الأخرى التي احتلت في القاهرة منذ زمن موقعاً متميزاً.

وتحمس للفكرة المستشرقون والمثقفون الإيطاليون ووزارة الخارجية ووزارة المعارف والبعثة الدبلوماسية الإيطالية في القاهرة، وجمعت وزارة المعارف عدداً من كبار ومشاهير المستشرقين الإيطاليين والمختصين لوضع نظام المعهد ومناهجه العلمية وأغراضه المعلنة والمستترة. وكانت المناهج، كما وضعت، تتضمن الدراسات العلمية والتاريخية والأدبية والإسلامية وغيرها، إلى جانب أغراض إيطاليا التوسعية والسياسية كتكوين مدرسين إيطاليين ضالعين في اللغة العربية للتدريس في الجامعة المصرية لتأمين استمرارية الوجود والتأثير الإيطالي بالجامعة، وتمكين الطلبة الإيطاليين الدارسين بالمعهد من التعمق في

معـــرفة العـــالم الإســـلامي والعربـــي وتاريخه ومجتمعاته وأوضاعه السياسية والثقافـــية وإعدادهـــم للعمـــل فـــي الســـلك الدبلوماسي الإيطالي وفي الإدارة الاستعمارية وفي ليبيا بصورة خاصة، بعد الاستيلاء عليها.

ودرس مشـــروع المعهـــد وأدخلت عليه بعض التعديلات ووضع في صيغته النهائية بعد مرور أكثر من عام منذ بداية الفكرة، وعندما كان جاهزاً للتنفـــيذ قامـــت الحـــرب فـــي ليبيا وثار الشعب المصري والشعوب العربية والإسلامية استنكارا لاعتداء إيطاليا على ليبيا، وواجه المدرسون الإيطاليون موجة من العداء الأمر الذي جعل الحكومة الإيطالية تستبعد نهائياً فكرة إنشاء المعهد، وذلك في منتصف عام 1912.

إلا أن فكـــرة إنشاء معهد للدراسات الشرقية عاودت المهتمين بها في رومـــا وذلـــك بعـــد احـــتلال طرابلس. فاقترح وزير المعارف إنشاء معهد للدراسات الشرقية بطرابلس أو بنغازي بناء على تقرير قدمه أربعة من كبار المستشـــرقين ومـــن بينهم نالليلنو وذلك في 15 يونيو 1912. واستند التقرير علـــى أنـــه بعد احتلال إيطاليا لطرابلس تقتضي الضرورة أن تعد إيطاليا في أســـرع وقـــت الموظفين والمدرسين والتراجمة الذين تحتاجهم المستعمرات الجديدة واستند الاقتراح على نقطتين:

1) إن تدريـــس العربـــية في إيطاليا لا يتمشى مع حاجة إيطاليا الجديدة، فيجب توسيع مدرسة اللغات الشرقية في روما بحيث يضاف إلى اللغة العربية مواد أخرى.

2) إنشاء مدرسة شرقية في طرابلس يلتحق بها خريجو مدرسة روما لمدة عاميـــن لدراسة اللغة العربية وأدبها والتاريخ العربي والشريعة والنظم الإسلامية واللهجات المحلية [53].

---

(53) انا بالدينتي ـ السالف الذكر.

ولـــم تكـــتف إيطاليا بكل ذلك، بل أرادت أن تستفيد سياسياً من المعهد باعتـــباره وســيلة لاجتذاب مثقفي المغرب بحيث يصبح المعهد مركز ثقافة عربية إيطالية يمتد تأثيره على جميع بلاد المغرب العربي، وقد تم المشروع وقـــدِم إلـــى رئيس الوزراء جوليتي فرفضه لأنه كان أعلم الجميع بأوضاع طـــرابلس المحاصرة في تلك الآونة والتي لم ينتظم فيها بعد التعليم الابتدائي وليست مؤهلة لاستضافة معهد كهذا.

وجلبت الإدارة الاستعمارية موظفين للعمل في ليبيا لا يتكلمون العربية ويجهلون كل شي عن العرب وتاريخهم وأوضاعهم الحالية، وجاءوا بتراجمة مـــن تونس يتكلمون اللهجة التونسية وأكثرهم من أنصاف الأميين ولم يخرج المعهد المقترح إلى الوجود حتى مغادرة إيطاليا نهائياً ليبيا.

❖ غزو ليبيا وردود فعل المصريين

شـــرعت إيطاليا في شهر أكتوبر 1911 في غزو المدن الليبية الساحلية واحـــتلالها، وفوجئـــت بصلابة المقاومة الوطنية التركية وتأثيراتها القوية على القوات الغازية التي اكتفت بأن تقبع في السواحل تحت حماية مدافع الأسطول.

ووقـــف الشعب المصري والشعوب العربية إلى جانب المجاهدين في ليبيا وشعر جوليتي بأن الأحداث تطورت أكثر مما كان يتوقع، واستعان من جديد بعميله القديم إنساباتو، فأعاده إلى القاهرة ليزوده بتقارير عن وقع الغزو علـــى المصريين حكومة وشعباً، وعن التحرك التركي عبر الحدود الليبية – المصرية. وتحدثت تقارير إنساباتو عن العداء الشديد الذي تفجر ضد إيطاليا وعـــن مهاجمـــة الصحافة المصرية لإيطاليا وعن علاقاته برجال الدين وقد وصـــف الحالة بأنها "خطيرة جداً " وقال إن محمد علوي والشيخ عليش تلقيا تهديدات بالقتل بسبب علاقتهما بإيطاليا[54].

---

(54) التقرير في محفوظات وزارة الخارجية الإيطالية تاريخ 1911-11-2 1-1- 137 ASMAE -ASMAL -LIBIA

ولـــم تتوقع إيطاليا أن تكون ردود فعل الشعب المصري على احتلالها لليبـــيا بهذه القوة وهذا الحجم، وأن يعم الغضب جميع طبقات المجتمع ويمتد إلـــى بـــلاد إســـلامية أخرى. لقد بذلت إيطاليا جهوداً ومساعي على مدى ما يقـــارب العشـــر سنوات لاحتواء غضبة الشعب المصري إذا ما احتلت ليبيا، وظنّت أن تعاطف خديوي مصر وبعض أعضاء أسرته معها وانخداع بعض رجـــال الديـــن بأقوالهـــا ونشر لغتها وثقافتها ودعايتها قد تؤمن لها سكوت المصـــريين عـــن اســـتيلائها على قطر شقيق مجاور بادعائها تخليصه من الـــتخلف والحكم التركي الظالم. لقد استنكر العرب والمسلمون بصورة عامة اعتداء إيطاليا على ليبيا وقامت المظاهرات والاحتجاجات في أكثر من مكان، وكانـــت مصـــر الأكـــثر تأثـــراً وغضباً وكان رد فعلها يتناسب مع خطورة الحـــادث. وتولت كبريات الصحف المصرية قيادة الحملة، فقامت المظاهرات فـــي العديـــد من المدن المصرية وفتح باب التطوع للراغبين في الجهاد إلى جانـــب إخوانهـــم الليبييـــن، وتكونت في مختلف المدن المصرية لجان لجمع التبرعات، وتأسست جمعية الهلال الأحمر لتتولى علاج الجرحى وهي ترتبط بجمعـــية الهـــلال الأحمـــر التركـــية التي تأسست في استانبول عام 1877، واتخـــذت الجمعـــية مقرها في مقر صحيفة المؤيد وتولى الشيخ علي يوسف رئاستها. وقامت الجمعية بأولى رحلاتها إلى ليبيا في يوم 7-11-1911، أي قـــبل مـــرور شهر على بداية الغزو، وقد تكفلت والدة الخديوي بجميع نفقات هـــذه الرحلة [55]، وتكونت لجنة وطنية برئاسة الأمير عمر طوسن من أجل جمـــع التـــبرعات ومســـاعدة المجاهدين، ولاقت هذه اللجنة تأييداً كبيراً من المواطنين. وأسس الخديوي عباس لجنة أخرى برئاسته خُصصت مساعداتها للمهاجريـــن الليبييـــن لا للمجاهدين، هذا مع العلم أنه لم يكن في تلك الفترة هـــناك عدد من المهاجرين الليبيين يكون مشكلاً، وكانت المؤن والمساعدات

---

(55) مجلة الهلال - القاهرة عدد شهر ديسمبر 1911 ـ ص 161 ـ 162.

ترسل عن طريق سكة حديد مريوط التي يمتلكها الخديوي. وأعلنت مصر حيادها وفقاً لما كانت تريده بريطانيا ومنعت مرور الجيش التركي من مصر، ومع ذلك فالسلطة البريطانية في مصر لم تمنع النشاط المعادي لإيطاليا ولا إرسال المساعدات إلى المجاهدين في ليبيا، وتغاضت عن تهريب الأسلحة عبر الحدود الليبية المصرية، واشتدت الحملة الصحافية ضد إيطاليا. وتزايد ضغط روما على الخديوي وعلى المعتمد البريطاني بالقاهرة، فأمرت الحكومة المصرية بإغلاق أكثر من صحيفة. وكان الزعيم الوطني محمد فريد بلندن آنذاك، فقام بإلقاء الخطابات للفت أنظار البريطانيين إلى الاعتداء الإيطالي على ليبيا وطلب من المشرفين على حزبه بتقديم المساعدة للمقاومة الليبية ودعوة مصر والبلاد العربية إلى مقاطعة إيطاليا اقتصادياً. أما الصوت الوحيد الذي ارتفع معارضاً جمع التبرعات للمجاهدين الليبيين، كان صوت الكاتب المعروف لطفي السيد الذي نشر ثلاث مقالات على صحيفة "الجريدة" بعنوان "سياسة المنفعة لا سياسة الشفقة" انتقد فيها جمع التبرعات للمجاهدين الليبيين وطالب بتحويلها إلى فقراء مصر. انتقدت الصحافة المصرية بشدة آراء لطفي السيد، فاضطر إلى ترك صحيفة "الجريدة"[56].

انزعجت إيطاليا من شدة الحملة ضدها في مصر وفي بلاد عربية وإسلامية أخرى، فكررت طلبها من الخديوي أن يضع حداً للحملة أو يخفف من حدتها، وكتب عباس حلمي رسالة إلى ملك إيطاليا يعده فيها بالعمل على تخفيف لهجة الصحافة ومحاولة تبرير احتلالها لطرابلس وبرقة.

ولم تفد محاولات الخديوي أو إغلاق بعض الصحف في إيقاف الحملة، بل استمرت الصحافة في مهاجمة إيطاليا ونشر أنباء القتال، الذي كان النصر فيه حليف المجاهدين. وقامت مظاهرة في الإسكندرية فرحاً

(56) أنا بالدينتي المصدر السابق ذكره ص 139.

بالانتصـــارات التـــي حققها المجاهدون، واخترق المتظاهرون الأحياء التي يســكنها الإيطالــيون واصـــطدموا بهــم ووقعت بعض الإصابات واتهمت الحكومـــة الإيطالية الشرطة المصرية بتعاطفها مع المتظاهرين وعدم منع المظاهرات والقيام بحماية أفراد الجالية الإيطالية. وردت الحكومة المصرية علـــى احــتجاجات إيطالــيا بـــأن الإيطاليـــن هم الذين أطلقوا النار على المتظاهريـــن مـــن شرفات منازلهم، والدليل على ذلك أن جميع الإصابات كانـــت بين المتظاهرين المصريين. وقامت مظاهرات في أنحاء أخرى من مصر تعبيرا عن الغضب وتأييداً للمقاتلين [57].

وقاطع المصريون عربات الترام التي كان يقودها الإيطاليون وقاطعوا البضـــائع الإيطالـــية وامتـــنعوا عن مشاهدة أوبرا عايدة لأنها إيطالية ولأن العاملين بها من الإيطاليين.

واســـتمر هذا الحماس وهذا التضامن مع المجاهدين حتى توقيع تركيا على معاهدة لوزان وتنازلها عن ليبيا، فتسبب هذا التطور التركي الخطير في إلقـــاء بعـــض الماء البارد على موجة الحماس المصرية والعربية، غير أن الشعور المصري لم يتغير وواصل عمر طوسن وبعض الزعماء المصريين الآخريـــن مســـاعدة المجاهدين الليبيين، وواصلت بعض الصحف ومن بينها "الشورى" و"وادي النيل" و"الفلاح" وغيرها مهاجمة إيطاليا ونشر أنباء الجهاد الليبي والتعاطف مع المجاهدين. وقد نشر غراسياني في كتابه " برقة المهدأة" أنـــه فـــي العام الأخير من الجهاد، بعد إغلاق حدود ليبيا مع مصر بالأسلاك الشـــائكة، عـــثر قرب الحدود على مجاهد قتيل بأيدي الجنود الإيطاليين كان ضـــمن قافلـــة مؤلفة من خمسة رؤوس من الإبل، وقد وجدت معه أربعون رســـالة موجهـــة مـــن عمر المختار إلى الأمير يوسف كمال وأمراء آخرين

(57) أنا بالدينتي – المصدر السالف الذكر ص 144.

وشخصيات مصرية يناشدهم فيها تقديم المساعدة للمجاهدين الذين يحملون السلاح ضد إيطاليا منذ عشرين عاماً، وجاء في رسالته إلى الأمير يوسف كمال: "..... لقد بعثنا بنداءات إلى العالم الإسلامي طالبين المساعدة ولكن لم نجد أذناً صاغية ولم نجد من يرحمنا سوى الله وبعض الأخوة المسلمين من أمثالكم والأبطال المصريين ومشائخ العربان في مصر العربية الذين قاموا بواجبهم لأن قلوبهم عامرة بالإيمان ومتحمسة للقضية الليبية". وعلق غراسياني على هذه الرسائل قائلاً: " أريد أن أقول للصحافة الإسلامية وللسنوسية وجميع المؤيدين لهم بدلا من التهريج بالمظاهرات والخطب والمؤتمرات كان من واجبهم إسعاف إخوانهم الثوار بالمؤن والسلاح كي يقاوموا ويستمروا في الضغط علينا إلى وقت آخر قد يتغير فيه وجه السياسة ولكنهم لم يفعلوا"(58). وتدل رسائل عمر المختار المذكورة على أن بعض الشخصيات المصرية المقتدرة واصلت بين الحين والآخر مساعدة المجاهدين. ولم تقتصر المساعدات المصرية في فترة الحرب الأولى على الدعم المالي بل امتدت أيضا إلى تهريب السلاح ومساعدة الضباط الأتراك على الالتحاق بالمجاهدين ومشاركة العديد من الضباط والجنود المصريين في القتال إلى جانب المجاهدين. وتوقفت هذه المساعدات بعد الهجوم الليبي على القوات البريطانية في مصر عام 1916 وإغلاق الحدود بين البلدين. واستمرت بعض الشخصيات المصرية، بعد أن تولى عمر المختار قيادة الثورة، في تقديم المساعدات في حدود ضيقة إلى المجاهدين. وظل الشارع المصري والصحافة المصرية متعاطفين مع المجاهدين الليبيين حتى استشهاد عمر المختار ونهاية المقاومة.

---

(58) ر. غراسياني برقة الهادئة ـ بنغازي 1974 ـ الترجمة العربية ص 290.

(*) غراسياني يعلم جيداً أن المساعدات كانت تصل للمجاهدين قبل أن يغلق الحدود بالأسلاك الشائكة وحصار المجاهدين بالجبل الأخضر (المؤلف)

❖ مساعي إيطاليا لإيقاف القتال

لم تتوقف مهمة إنساباتو وعلوي بعد غزو ليبيا فقد استعان جوليتي بهما لمتابعة ردود فعل المصريين وتأثيرات الحرب في المنطقة، وعاد إنساباتو يمطر حكومته بالرسائل بأن محمد علوي قادر على إعادة ربط الاتصال بالسنوسية ومنعها من المشاركة في الحرب إلى جانب تركيا، كما أن علاقته الوطيدة مع مشائخ قبائل برقة تمكنه من إقناعهم بالوقوف على الحياد وعدم مناصرة الأتراك.

وقدم إنساباتو إلى الوكالة الدبلوماسية رسالة ادعى أن السيد أحمد أرسلها إلى محمد علوي يعرب فيها عن رغبته في التفاوض مع إيطاليا، إلا أن المسئول عن الوكالة عندما اطلع الأمير فؤاد على الرسالة قال إن السيد أحمد يعرب عن عزم السنوسيين على قتال إيطاليا لا التفاوض معها [59].

وبالرغم من عداء الوكالة الدبلوماسية ووزارة الخارجية لا إنساباتو وعدم رغبة الحكومتين المصرية والبريطانية في وجوده بمصر، فإن جوليتي ظل يثق فيه ويسند إليه المهمة تلو الأخرى، وقد استغل هذه الثقة إلى أبعد الحدود وأراد أن يحقق شيئاً يؤكد ثقة رئيس الوزراء في مواهبه، فأعد مشروع اتفاقية ما بين إيطاليا والسنوسية يتضمن تطبيق الشريعة الإسلامية والاعتراف بالدين الإسلامي في جميع الأراضي المحتلة، وإنشاء مجلس للأعيان وبنود أخرى تافهة. وأعد وفداً مؤلفاً من ثلاثة مصريين يترأسهم الشيخ عبد الله وهو تاجر كبير على صلة ببعض المشائخ وذلك لزيارة برقة وعرض الاتفاقية على مشائخها [60]، غير أنه عندما علم أن الخديوي عباس أعد وفداً من أدارسة الأقصر للسفر إلى برقة ومقابلة السيد أحمد الشريف، توقف إنساباتو عن إرسال وفده واتهم الخديوي بإمداد المقاومة الليبية بالسلاح والمال.

---

(59) محفوظات وزارة الخارجية ARG-ASMAE 6-2-1912-34

(60) أنا بالدينتي المصدر السالف الذكر ص 67.

وفـــي هذا الأثناء، نشرت صحيفة "السيكولو" IL SECOLO، وهي من كـــبريات الصـــحف الإيطالـــية، مقـــالاً بعـــنوان "الحكومـــة الإيطالية وبرقة والسنوســـيون" هاجم فيه الكاتب أعمال محمد علوي وإنساباتو واتهمهما بخلق شبه جمعية سرية تقوم منذ عام ونصف بخداع الحكومة والبلاد وتبذير الأموال العامة، في عمل سياسي مزعوم لا أساس لـــه إطلاقا من الشرف والجدية[61]. واتهمـــت الصـــحيفة محمـــد علـــوي بأنه زار روما بصفته أحد أفراد العائلة السنوســـية وبصـــحبته أشـــخاص اختارهم من بين المصريين وادعي أنهم من الأســـرة السنوســـية، وكان للمقال صدى واسع في الأوساط الإيطالية السياسية رغم تكذيب إنساباتو وأعوانه للمقال. وتولى الدفاع عن إنساباتو مدير مصرف الائتمان العقاري المصري باولو باولدي P. PAULDI الذي فقد منصبه بسبب دفاعـــه عـــن إنســـاباتو. وتولى بعض مساعدي إنساباتو الدفاع عنه من على صـــفحات النادي، وأثر هذا المقال في مصداقية إنساباتو وفي ادعاءته الباطلة، غير أنه مع ذلك واصل اتصالاته المزعومة بالمشائخ الليبيين عن طريق محمد علوي. فقد احتلت إيطاليا طرابلس وبرقة ودخلت في حرب شعواء مع الأتراك والليبييـــن، وارتكبت مذابح شارع الشاطئ بطرابلس التي ضجت من فظاعتها أوربـــا، وأبعـــدت الآلاف من السكان المدنيين إلى السجون الإيطالية، واقترفت أعمالا منافية للعرف الإنساني والدولي ما لم تقترفه أية دولة استعمارية أخرى، إلا أن هـــذه الحقـــائق الدامية لم تمنع إنساباتو وعلوي عن الحديث عن صداقة إيطالـــيا للإســـلام وحـــبها وتقديـــرها للمســـلمين وقد تحول الاثنان إلى دعاة للاستعمار الإيطالي وتحسين صورته.

وقام إنساباتو في عام 1912 بطبع كتيب بعنوان "المدونة الذهبية" كان يـــريد توزيعه في الأراضي الليبية، وقد استند في هذا الكتيب على الكثير من آيـــات القـــرآن الكـــريم والأحاديـــث النـــبوية الكريمة، هاجم فيها السلطان

---

(61) صحيفة "السيكولو" 28 ـ 2 ـ 1913 ـ روما.

والإمـــبراطورية العثمانـــية بعـــدم حماية بلاد الإسلام والتهاون في مصالح المســـلمين وعـــدم تلبـــية متطلباتهم الضرورية، الأمر الذي دفع بإيطاليا إلى احتلال ليبيا لتحرير شعبها من العبودية ومظالم الأتراك. وكان إنساباتو يؤمل أن الليبييـــن عندما يطلعون على هذا الكتيب سوف يدركون أن إيطاليا احتلت أرضـــهم وقتلـــت أبـــناءهم وشردت رجالهم من أجل مصلحة الشعب الليبي وتحريـــره من النير التركي وإنقاذه من التخلف، غير أن السلطات البريطانية والمحلـــية علمـــت بأمـــر الكتيب وقامت بمصادرته وحرقه. وطلب المعتمد البريطانـــي مـــن جديـــد إبعاد إنساباتو عن مصر وأيدت الوكالة الدبلوماسية الإيطالـــية الطلـــب وأشـــعرت الخارجية الإيطالية أن وجود إنساباتو وعلوي بالقاهرة ضار بالمصالح الإيطالية [62].

وفـــيما يـــتعلق بـــالوفد السنوســـي المزور الذي زار روما، اعترف إنســـاباتو في مذكراته أن الوفد تكون من محمد علوي ومن اثنين من خدم محمـــد العـــابد أحدهمـــا يدعي خريجي والآخر صالح، وقد قابلا جوليتي ومســـئولين إيطالييـــن بصـــفتهما من أعضاء الأسرة السنوسية [63]، وهذه صـــورة مـــن صور الخداع والتضليل التي استعملها إنساباتو لإقناع رئيس الحكومة بأنه على صلة بالسنوسيين وأنه في استطاعته جرهم إلى التفاوض مـــع إيطاليا، ولاشك أن جهل جوليتي بالإسلام والعرب جعله لا يفرق بين الخادم العادي والسيد المثقف.

ولـــم يأفل نجم إنساباتو رغم جميع التهم التي وجهت إليه والفشل الذي حققـــه، فقد استعان به جوليتي من جديد عام 1914 وتم إرساله إلى استانبول لموافاتـــه بـــتقارير عـــن تطورات القضية الليبية في العاصمة التركية وعن علاقاتهـــا بالبلاد العربية ودول البلقان – واختفي ذكر إنساباتو خلال الحرب

---

(62) أنا بالدينتي السالف الذكر ص 65 حاشية 191.

(63) ك – بورشيناري – العلاقات العربية الإيطالية سالف الذكر ص 196.

العالمية الأولى التي خاضتها إيطاليا إلى جانب الحلفاء، غير أن جوليتي عند ما تولي وزارته الأخيرة بعد الحرب استعان بإنساباتو كسكرتير خاص لـــه، وفي عام 1936 استعان به موسوليني، رغم كراهيته لرجال النظام الليبرالي الســابق، وأرســـله إلى طرابلس عندما كان يتولى الحكم فيها المرشال بالبو، وطلب منه أن يزوده بتقرير عن ليبيا وأوضاعها.

وبعـــد نهايـــة الحرب العالمية الثانية وهزيمة إيطاليا ومغادرتها نهائيا لليبـــيا، ظل إنساباتو في نظر الإيطاليين خبيرا كبيراً كبيراً بشئون العالم العربي – الإســـلامي ولم يستغن رئيس الوزراء دي غاسبري، باني إيطاليا الحديثة بعد الحــرب، عـــن خدمات إنساباتو وقرّبه وأسند إليه عدة مهام إعلامية. وتوفي إنساباتو عن عمر يناهز الخامسة والثمانين.

والتقـــي به مؤلف هذا الكتاب في روما خلال الحرب العالمية في عام 1942 واجـــتمع بـــه أكثر من مرة، وأهدى إنساباتو المؤلف نسخة من كتابه الأخير عن أراضي الجنوب الليبي. وكانت أحاديثه منصبة على فكرة التعاون مـــا بين أوربا والبلاد الإسلامية وذلك من أجل سلام العالم واستقراره، وكان ينتقد الاستعمار بصورة عامة والاستعمار الإيطالي بصورة خاصة، إلا أنه لم يشـــر من بعيد أو قريب عن مهمته في مصر لإيجاد تعاون ما بين السنوسية وإيطاليا وان كان تحدث عن صحيفة النادي وما لاقته من نجاح.

❖ دور الـوســاطــة

انتهـــت مهمـــة محمـــد علوي وإنساباتو في القاهرة بالفشل الذريع ولم يحققـــا لجوليتـــي ما كان ينتظره منهما وما وعداه به وطغت الحرب في ليبيا علـــى جمـــيع المبادرات والنشاطات السياسية الأخرى. وقد تسمّر مائة ألف جـــندي إيطالي في المدن الساحلية الليبية تحاصرهم القوات التركية – الليبية ولا يستطيعون التقدم إلى داخل الأراضي الليبية، وإزاء هذا الوضع العسكري

المـــزري، شـــرعت إيطاليا في البحث عن الطرق السياسية التي تؤدي إلى إيقـــاف القتال وحفظ ماء وجهها، وسلكت في هذا السبيل طريقين متوازيتين: الأول – الضغط على تركيا وتهديدها في عقر دارها باحتلال رودس وجزر تركية أخرى.

والثانـــي – مواصــلة المســاعي لإقــناع السنوســيين بإيقاف القتال والــتفاوض، ثــم التفرغ للجبهة الطرابلسية. وترك جوليتي للعسكريين القيام باحــتلال الجــزر التركــية، واعتمد فيما يتعلق بالاتجاه الثاني على الأسرة المصرية الحاكمة وعلى العملاء.

وتجمــع حــول الوكالـــة الدبلوماســية بالقاهرة العديد من الانتهازيين والعمـــلاء الذيـــن كانوا يعرضون خدماتهم على إيطاليا. واقترح شيخ إحدى الطـــرق الصـــوفية في ليبيا أن يذهب إلى الشيخ الأكبر في استانبول لتزويده برســائل موجهـــة إلى مشائخ القبائل في برقة يدعوهم فيها إلى التوقيع على وثيقة يعترفون فيها بالسيادة الإيطالية على ليبيا ويوقفون القتال مقابل اعتراف إيطالـــيا بالديـــن الإســـلامي واحـــترامه واحـــترام المرأة والملكية الفردية والمؤسسات الدينية وغير ذلك من الامتيازات وقد فشلت المبادرة لأن الرجل طلـــب مائـــة وخمســـين ألـــف فرنك مقابل خدماته [64]. وتقدم إلى الوكالة الدبلوماســية، عارضـــاً وســـاطته، إبراهـــيم جاويش شقيق الزعيم الوطني المعروف عبدالعزيز جاويش الذي أقنع الإيطاليين أنه في إمكانه القبض على أنـــور باشا وإيقاف القتال في برقة، غير أن الإيطاليين لم يقبلوا اقتراحه لأنه كـــان يعادي بريطانيا ويقوم بتهريب السلاح إلى المجاهدين. وفي هذا الأثناء قبضت الحكومة التركية على عبدالعزيز جاويش بناء على طلب من السفارة البريطانـــية وممـــثل الخديوي في استانبول، بتهمه الاشتراك في مؤامرة ضد

---

(64) أنا بالدينتي – المصدر السالف الذكر ص 148 . محفوظات وزارة الخارجية - ASMAE-ARG34

الخديــوي وقــيامه بــتوزيع منشورات سرية ضد بريطانيا، وادعى إبراهيم جــاويش أنـــه كـــان يريد أن يقوم بعمله دون مقابل وكان يريد الانتقام من الأتـــراك وكانـــت الحكومـــة الإيطالية لا تريد أن تستعين بأشخاص يعادون بريطانيا والسلطة الحاكمة.

وتقدم قاضي يدعى يحيى بن صديق إلى الحكومة الإيطالية، وهو قاضٍ في محكمة بور سعيد، وكان من العاملين على تهريب السلاح إلى المجاهدين وقـــد زود الوكالـــة الإيطالـــية بتقرير يقول فيه إنه ومجموعة من الوطنيين يـــريدون تهدئـــة الوضـــع فـــي ليبيا عن طريق عزيز علي المصري، وأن الخديوي وبريطانيا يعرقلون العمل الإيطالي في ليبيا ولا يتعرضون لعمليات تهريـــب السلاح والمؤن إلى المقاتلين. وفي المقابل طلب من إيطاليا أن تقوم بتسليح بضعة آلاف من البدو لاحتلال مصر، وإزاء رفض طلبه، طلب يحيى ابن صديق السماح لـــه بالدخول إلى ليبيا عن طريق إيطاليا للالتحاق بعزيز المصري (65).

وكثـــيرون آخـــرون ادعـــوا القرابة أو الصداقة بالسنوسيين أرادوا القيام بالوســـاطة وقد استغلوا وضع إيطاليا العسكري السيئ في ليبيا ورغبة إيطاليا في إيقـــاف القـــتال، لابـــتزازها واستغلالها بعرض وساطاتهم المختلفة لإيقاف القتال وإيجـــاد تفاهم مع السنوسيين. وقد واصلت إيطاليا الضغط على الأسرة الخديوية لـــبذل وســـاطتها وجهودها لإقناع المجاهدين الليبيين بإيقاف القتال والتفاوض مع إيطالـــيا، وقد تقدم الأمير فؤاد بمشروع اتفاق يتضمن الاعتراف بسيادة السنوسية الدينية على ليبيا ومنحها امتيازات خاصة ومخصصات مالية وشروط أخرى يتفق عليها، وقد رفضت إيطاليا الفكرة لأنها تتعارض مع مرسوم 5- 11-1911 الذي أعلـــن سيادة إيطاليا على ليبيا رغم أنها لم تكن تحتل وقت صدور المرسوم سوي

---

(65) محفوظات الخارجية الإيطالية ـ وأفريقيا الإيطالية ـ ليبيا ASMAE-ASMAI-LIBIA-150-18-77

بعض المدن الساحلية، وقام الخديوي بالوساطة كما اتجهت وفود أخرى من ليبيين وغـــيرهم إلى الجغبوب ومساعد للتوسط ما بين إيطاليا والمجاهدين إلا أن جميعها عادت بخفي حنين لأن الإيطاليين لم يكن لديهم أي تصور لمستقبل البلاد ولم يكن لديهـــم مـــا يقدمونـــه لليبيين، فقد أعماهم مرسوم السيادة وفكرة أن ليبيا حق لهم اعترفـــت به الدول الكبرى، عن رؤية الواقع وتحسسه والتعامل معه، وكان ذلك سبب فشل جميع مساعيهم السلمية حتى مغادرتهم نهائيا لليبيا.

❖ الخديوي وإيطاليا

يعتـــبر الكثـــير مـــن المؤرخين أن عباس الثاني حلمي آخر خديوي في مصـــر شخصـــية متناقضة، فمنذ الأيام الأولى التي تولى فيها الحكم في مصر ســـاند الحـــركات الوطنـــية ضد بريطانيا، كما ساند في سنوات حكمه الأولى الجماعات الإسلامية وأنصار السلطان، ثم انقلب على تركيا بعد أن حدث فتور بيـــنه وبين السلطان عبد الحميد، ووقف إلى جانب الوطنيين. كما اتهم بأنه كان يسعى إلى تحويل الخلافة إلى مصر(66). وبالنسبة لموقفه من ليبيا، فإنه بالرغم مـــن صـــداقته لإيطاليا ووعدها بأنه سيعمل من أجل توطيد احتلالها وتخفيف مظاهر غضب الصحافة والرأي العام المصري ضدها، غير أنه كان في نفس الوقـــت.لا يعترض ولا يعرقل عمليات إرسال السلاح والمؤن إلى المجاهدين، ولم يحاول أن يحد من نشاط الصحافة والهيئات الوطنية المعادية لإيطاليا، ولا مـــن النشاط المصري المعادي لبريطانيا. وكان موقفه من إيطاليا غامضا رغم إعرابه المستمر عن صداقته لها وعن تحبيذه لاحتلالها لليبيا وكانت بريطانيا لا تـــثق فـــيه وتعتقد أنه يساعد الوطنيين سرًا وانه سافر إلى روما متخفياً وباسم مســـتعار للالـــتقاء بالوطنييـــن في العاصمة الإيطالية (67)، غير أن المصالح

---

(66) L. HIRZOWICZ _ THE SULTAN AND THE KHEDIVE, MIDDLE EASTERN STUDIES _ VI 11, 1972, p.287-311.

(67) أنا بالدينتي _ المصدر السابق ص 128 .

=

الشخصـــية كان لها دورها في علاقته بإيطاليا فقد كان يملك سكة حديد مريوط وكان يحبذ احتلال إيطاليا لليبيا لتمتد السكة الحديدية إلى الحدود الليبية وتصبح وسيلة فعالة في الصلات بين مصر وليبيا. وقد أعرب في عام 1906، قبل أن تتــبلور مطــامع إيطالــيا فــي ليبيا، عن رغبته في بيع هذه السكة إلى شركة مســاهمة، وخشــيت إيطالــيا أن تشتري بريطانيا هذا الخط الحديدي فتصبح صــاحبة الإشراف على التجارة والمواصلات بين مصر وليبيا، فقررت شراء الخط وكلفت بنك روما وشركة الماجيا بالمشاركة في العطاء واعتبرت العملية تجاريــة بحــتة وإن كــان طابعها سياسياً. ووجد بنك روما في العملية وسيلة لــزيادة الــنفوذ الإيطالي في المنطقة واعتقدت إيطاليا أن استيلاءها على هذا الخــط الحديدي سوف يفيدها في مخططاتها تجاه ليبيا ويعزز الوجود الإيطالي في مصر ويحول دون أطراف أخرى من الحصول عليه.

وأرســلت إيطالــيا إلى مصر، بعد عزمها على شراء الخط، لجنة من الخبراء لدراسة جدوى المشروع وأهميته بالنسبة للمطامع الإيطالية في ليبيا، ولــم تنصــح اللجنة بشراء الخط بسبب تكاليف البناء المرتفعة وعدم جدواه اقتصــادياً وقامت بريطانيا في عام 1914 بشراء الخط وسددت بثمنه ديون الخديوي للمصاريف التي اقترضها لبناء الخط.

حاولــت إيطالــيا أن تعزز علاقاتها مع الأسرة الخديوية الحاكمة في مصــر عن طريق دعوة الخديوي عباس الثاني لزيارة إيطاليا التي لم يزرها مــن قــبل رغم زياراته لبريطانيا والنمسا وفرنسا. وفي عام 1909 وجهت إيطالــيا الدعوة إلى الخديوي لزيارة إيطاليا كدليل على صداقته لها ولتوطيد العلاقــات التقليدية بين البلدين التي يعود عهدها إلى الخديوي إسماعيل الذي فضل الإقامة في إيطاليا بعد تخليه عن الحكم في مصر عام 1879.

=
فيما يتعلق بعلاقة الخديوي بالحزب الوطني راجع عبدالمنعم الجامعي " الخديوي عباس الثاني والحزب الوطني" ـ القاهرة 1982.

وكانــت إيطالــيا تؤمل الكثير من هذه الزيارة لصالح جاليته المقيمة في مصــر ولصـــالح نفوذها السياسي والثقافي، والأهم من كل ذلك كانت تأمل في مسـاعدة الخديــوي لها في العمل على تقبل الشعب المصري لاحتلالها لليبيا. وتحــدد موعــد الــزيارة في صيف عام 1910 بعد إقامة قصيرة للخديوي في بريطانــيا، غــير أن وفاة ملك بريطانيا أدوارد السابع تسببت في تأجيل زيارة الخديوي لإيطاليا وقد انزعجت إيطاليا للأمر وجددت الدعوة للخديوي التي حدد لهــا صــيف عام 1911 باعتبارها زيارة غير رسمية. وزار الخديوي إيطاليا بصحبة الأمير فؤاد في الفترة من 20 إلى 22 يوليو 1911 وكان للزيارة صدى واســع في الصحافة الإيطالية وصحف الجالية الإيطالية بمصر، وعلقت إيطاليا أهمية كبيرة على هذه الزيارة وخاصة وإنها كانت تعد العدة لاحتلال ليبيا.

كانــت إيطاليا في السنوات التي سبقت الغزو تعتقد أن الخديوي يحبذ احتلالها لليبــيا لأســباب اقتصادية كإيصال سكه حديد مريوط إلى الحدود الليبية والحصول على أعمال ومقاولات في ليبيا. وحاول الخديوي بعد اشتعال الحرب أن يحافظ على حــياد مصــر، فطلــب مــن السفن التركية الحربية مغادرة المياه المصرية وعبر الخديوي إلى الوكيل الدبلوماسي الإيطالي بالقاهرة عن تعاطفه مع الاحتلال الإيطالي لليبيا باعتبار أن تركيا أهملت ليبيا وأصبح الاحتلال الأجنبي أمراً ضرورياً (68).

ومــع ذلــك لم يقدم الخديوي، بعد غزو ليبيا، إلى إيطاليا أي عون أو مســاعدة، باستثناء إغلاق بعض الصحف التي اعتبرت مقالاتها خطيرة على الأمــن العــام، أو القيام بالوساطة بين السنوسيين وبينها، كما سبق وذكرنا. وتؤكــد الوثــائق الإيطالــية أن الخديــوي لــم يــتردد في مساعدة الأتراك والمجاهديــن بجمــيع الوسائل حيث أصبحت مصر مصدر السلاح والرجال والأمــوال للمجاهديــن، وذلــك إلى أن قامت بريطانيا بخلع الخديوي عباس حلمي وإبداله بالسلطان حسين كامل .

---

(68) برقة من الوكالة الدبلوماسية إلى زير الخارجية – محفوظات وزارة الخارجية 34/469 تاريخ 4 _ 10- 1911

الفصل الرابع

بنك روما والتوغل السلمي

1 – بنك روما في ليبيا

2 – إنجازات بنك روما في ليبيا
- الأعمال المصرفية
- الأراضي
- الصناعة
- الزراعة

3 – فشل بنك روما في مهمته

4 – دور بنك روما في التعجيل بالغزو

5 – المساومة والابتزاز

6 – مسؤولية بنك روما في إعلان الحرب

7 – حصيلة بنك روما من احتلال ليبيا

8 – مطالبة بنك روما بالتعويضات

التوغل السلمي، في المفهوم الإيطالي، هو قيام إيطاليا بسلسلة من المبادرات الاقتصادية والمالية في طرابلس وبرقة لخلق وجود إيطالي مؤثر يستحوذ تدريجيًا على معظم النشاطات الاقتصادية والمالية في المنطقتين ويحول هذه المبادرات إلى نفوذ سياسي يؤدي إلى حماية أو ما يشبه الحماية وتستولي إيطاليا على ليبيا دون حرب أو قتال .

ويبدو أن الحكومة الإيطالية، بعد خروج جوليتي من الحكم عام 1905 تخلت ولو بصورة مؤقتة عن فكرة غزو ليبيا والدخول في حرب مع تركيا، وآثرت سلوك طريق آخر، كما فعلت الدول الاستعمارية الأخرى، يحقق لها مطامعها دون حرب أو سفك دماء، وهو طريق التغلغل الاقتصادي والسياسي، أو ما أطلق عليه التوغل السلمي، الذي يوطد أقدام إيطاليا في البلاد ويمهد لاستيلائها عليها فيما بعد.

لم تكن إيطاليا غريبة عن السوق الليبية، ولم تمنعها الحكومة التركية من القيام بأي نشاط اقتصادي في ليبيا، فقد كانت تحتل المقام الثاني في تجارتها الخارجية وكانت لها في ليبيا خطوط ملاحة ومكاتب بريدية ومدارس ومستشفيات وإرساليات دينية وجالية تقدر بألف نسمة. وقد شجع والي طرابلس أحمد عزت الإيطاليين على العمل في ليبيا والاستعانة برؤوس أموالهم وخبرتهم لتطوير البلاد كما فعلوا في تونس، وكانت فرصة ثمينة أمام إيطاليا لبسط نفوذها الاقتصادي والسياسي و استثمار رؤوس أموالها الفائضة وتوفير الهجرة والعمل للآلاف من أبنائها، غير أن رجال الأعمال والشركات لم يكونوا مستعدين للمغامرة بأموالهم في ليبيا ولم يكن من بين المهاجرين من كان يرغب في الذهاب إلى ليبيا. فقد اكتفت إيطاليا على مدى ربع قرن بالادعاء بحقها في ليبيا وإثارة موضوعها في الصحافة وأمام مجلس النواب ووضع اللوم على تركيا و اعتقدت أن موافقة الدول الكبرى على إطلاق يدها في ليبيا

في حالة حدوث متغيرات في موازين القوى بالبحر الأبيض، تعطيها الحق في الــتدخل في شئون ليبيا وفي صلاحية تركيا، صاحبة السيادة عليها، وحقها في تصريف شئونها كما تشاء والتعاقد مع من تشاء. وشجعت إيطاليا على التمادي في غيها سلبية الحكومة التركية وعدم قيامها بحملة دبلوماسية لمواجهة الحملة الإيطالية، ولم تعمل على تعزيز حاميتها ووسائل دفاعها في ليبيا لتشعر إيطاليا بــأن ليبــيا لن تنالها إلا بقوة السلاح لا بالموافقة الأوربية، ولكن تركيا كانت تحــاول إرضـــاء طلباتها حتى ولو كان الطلب يتعلق بعزل والي طرابلس أو بنغازي. وعاشت إيطاليا العقد الأول من القرن نهباً للإشاعات التي كانت تدور حــول منافسة الدول الأخرى لها وحصولها على قواعد وأعمال وامتيازات في ليبيا وكانت كل إشاعة من هذه الإشاعات، ومعظمها لا أساس لها من الصحة، تــتلقفها الصـــحافة الإيطالـــية وتضخمها باعتبارها اعتداء على حقوق إيطاليا، وتطالب الدولة بالتدخل السريع للحفاظ على هذه الحقوق كما كانت تدفع مجلس النواب الإيطالي إلى مناقشة الأمر كحدث عظيم يمس كرامة الدولة.

لــم تعمل تركيا على حماية ولايتها من مطامع إيطاليا بإيجاد منافسين لهــا وخلق مصالح لدول أخرى تدافع عن نفسها، وشعرت الحكومة الإيطالية بأخطائهـــا ومـــبالغاتها في الأمر وخاصة وهي تستعد لعملية التوغل السلمي، فصـــرح وزيـــر الخارجية أمام البرلمان بأنه يجب على إيطاليا أن لا تحتل طـــرابلس إلا إذا جعلـــت الأحداث من هذه الاحتلال ضرورة مطلقة لا مفر منها(69)، وقد أراد الوزير بذلك طمأنة تركيا بأن إيطاليا لا تنوي احتلال ليبيا، وأرضى الاستعماريين بأن فكرة الاحتلال تظل قائمة.

* * * *

---

(69) E. TOMMASINI L'ITALIA ALLA VIGILIA DELLA GUERRA BOLOGNA 1934, VOL. 11 p. 59.

وفي هذا المناخ الذي بلغ فيه التوتر والعداء بين الطرفين أقصى حدوده قــررت إيطاليا القيام بعملية التوغل السلمي في ليبيا واللجوء إلى المبادرات الاقتصـــادية لتحقــيق ما كان يجب أخذه بقوة السلاح. وكانت إيطاليا تحتاج، لتحقيق أهدافها الرامية إلى السيطرة على ليبيا سلمياً، إلى عاملين مهمين:

الأول : تعاون تركيا وعدم عرقلتها للمبادرات الإيطالية.

الثاني : امتناع الدول الكبرى عن منافسة إيطاليا اقتصادياً أو استقطاع أي جزء من الأراضي الليبية.

وطمعــت إيطالــيا فــي تعــاون تركيا معها لتوطيد نفوذها السياسي والاقتصادي في ليبيا تمهيداً للاستيلاء عليها فيما بعد.

وصـــرح وزيـــر الخارجية أمام مجلس الشيوخ رداً على سؤال حول الــتوغل الســلمي فــي ليبــيا فقال: " إن حق الأولوية في طرابلس بالنسبة للحاضـــر، أن نحـــول إلـــيها رؤوس أموالـــنا وتشـــجيع التيارات التجارية والمـــبادرات الصناعية والزراعية ونرغب في القيام بهذا العمل بالتفاهم مع الباب العالي الذي تربطنا به علاقات ممتازة والذي من مصلحته تسهيل عمل إيطاليا السلمي والمدني " (70).

تضـــمن تصــــريح وزير الخارجية أول إشارة رسمية عن عزم إيطاليا القـــيام بمـــبادرات اقتصـــادية إيطالـــية مكثفة في ليبيا، غير أن هذه النوايا اصطدمت بعدم إقبال المستثمرين على استثمار أموالهم في ليبيا.

وقـــد واجه وزير الخارجية تيتوني TITTONI صعوبة في العثور على مؤسسة مالية مستعدة للعمل في ليبيا، فكلف أدولنو كاسوتو CASUTO مؤلف "دلـــيل طرابلس السياحي الاقتصادي"، بأن يعدّ لـــه دراسة بهذا الخصوص.

(70) E. TOMMPSINI OFP CIT. VOI.1 P 159.

وقد اقترح كاسوتو أن أنسب عمل يحقق لإيطاليا التوغل السلمي الذي تتوخاه، هـو تأسيس مصرف في طرابلس يقوم بمنح القروض والرهنيات والأعمال المصـرفية الأخـرى لتخلـيص الناس من المرابين ومساعدتهم في نشاطهم الـتجاري والزراعي. واتجه وزير الخارجية إلى بنك روما، بعد أن رفضت مؤسسـات مالية أخرى العمل في ليبيا وكان نائب رئيس البنك شقيقاً للوزير الـذي كان يرتبط بعلاقات وثيقة بالأوساط الكاثوليكية، الأمر الذي دفع بالبنك إلـى قـبول المهمـة وفتح فرع للبنك في طرابلس. وكان سفير إيطاليا في استانبول قدم اقتراحا إلى وزير الخارجية بفتح مصرف في العاصمة التركية تكـون لـه فروع في الولايات العثمانية ومن ضمنها طرابلس. وقد رفض الوزيـر الاقتراح لأن المشروع يحتاج إلى رأس مال كبير غير متوفر، وتم الاتفاق مع بنك روما على تأسيس فرع رئيسي في طرابلس تكون لـه فروع فـي المـدن الليبيـة الأخرى يتولى القيام بسلسلة من المبادرات الاقتصادية والصناعية والزراعية إلى جانب الأعمال المصرفية.

وقـد تأسس بنك روما في عام 1880 برأسمال قدره ستة ملايين ليرة إيطالـية وسـاهمت في تأسيسه مجموعة من نبلاء روما المرتبطين بالكنيسة الكاثوليكية، كما ساهمت الكنيسة بجزء كبير من رأسمال البنك، وكذلك أثرياء الكاثولـيك ويعتقد أيضًا أن إمبراطور النمسا كان من المساهمين الأمر الذي يطبع البنك بطابع كاثوليكي صرف.

وكـرس البـنك نشاطه في العشرين سنة الأولي من حياته في تمويل قطـاع الخدمـات العامـة لمدينة روما كالمياه والغاز والكهرباء و المطاحن والـنقل المشـترك، وهـي خدمات كانت تدر الكثير من الأرباح ولا تتطلب أمـوالاً كثـيرة. واتسـعت دائرة أعمال البنك مع بداية القرن الجديد فارتفع رأسـماله وأخـذ يتطلع إلى توسيع نشاطه خارج إيطاليا كما ذكرنا، ووصل رأسماله عام 1905 إلى ثلاثين مليون ليرة إيطالية، وقد أقبل على العمل في

طـــرابلس دون تحفـــظ مؤمـــلا أن يكون فتح فرع طرابلس بداية لفتح فروع أخري في ولايات الإمبراطورية العثمانية.

وقوبل في تركيا نبأ فتح مصرف إيطالي في ليبيا بقلق شديد، وأسرعت الحكومـــة التركـــية بفـــتح فرع بطرابلس للمصرف الإمبراطوري العثماني بغـــرض إحـــلال العملة التركية بدلا من العملات الأجنبية، ومواجهة سيطرة المصـــارف الأجنبية على البلاد، غير أن تأسيس فرع للمصرف العثماني في طرابلس دفع بإيطاليا إلى التعجيل بفتح فرع بنك روما في طرابلس.

وقـــد أوصى سفير إيطاليا باستانبول الحكومة الإيطالية بأن تطلب من بنك روما أن يعمل في ليبيا كمؤسسة خاصة لا علاقة لها بالحكومة الإيطالية وأن تمـــارس عملها كأي مؤسسة أجنبية أخرى لا صبغة سياسية لها كي لا يثير شكوك الحكومة العثمانية حول نوايا البنك، غير أن مدير البنك والعاملين معـــه تصرفوا على عكس ذلك وأشعروا الحكومة التركية والشعب الليبي أن مهمة البنك الحقيقية هي التمهيد للغزو الإيطالي المرتقب.

❖ بنك رومـــا في ليبيا

أبلـــغ مديـــر بنك روما المركزي يوم 15-4-1907 رجب باشا والي طرابلس أنه قد فتح وكالة للبنك ملحق بها قسم تجاري ليقوم بجميع العمليات التـــي كانـــت تقوم بها شركة أربيب التي اشترى البنك جميع حقوقها. وبهذه الطـــريقة الملتوية بدأ البنك عمله في طرابلس دون الحصول على الإذن من الحكومـــة وفقـــا للقانون الصادر في 3 - 12 - 1887 الذي نص على أن جمـــيع الشـــركات الأجنبـــية المساهمة المؤسسة في الخارج لا تستطيع فتح وكـــالات لها أو فروع في الإمبراطورية العثمانية قبل الحصول المسبق على إذن مـــن حكومـــة الإمبراطورية، وتضمن القانون فقرة مؤقتة تعفي من هذا الأجـــراء الشـــركات التي تكونت قبل صدور القانون حيث كان يحق لها فتح

وكـــالات وفـــروع في ولايات الإمبراطورية. واستغلت الدول الأوربية هذا الاســـتثناء لتنشـــئ شركات جديدة بصفتها فروعاً للشركات القائمة و لم تكن لإيطالـــيا شركات أو مؤسسات مالية أو اقتصادية تعمل داخل الإمبراطورية قـــبل صدور القانون ولذلك كانت ملزمة بالحصول على إذن بفتح فرع لبنك روما بطرابلس. ولم تأبه إيطاليا بالحصول على الإذن بل عمدت إلى التحايل بشـــراء حقـــوق شـــركة أربيب التي كانت تمارس التجارة في طرابلس منذ أربعيـــن ســـنة، وفتح فرع مصرفي كأحد نشاطات الشركة. ورفض الوالي رجـــب باشـــا طلب بنك روما وطالبه بالحصول على الإذن الإمبراطوري، وأمـــر بمصادرة اليافطة التي أعدها البنك في روما لدى وصولها إلى جمرك طـــرابلس. وقد اتخذ رجب باشا هذا الموقف الحازم من البنك لعلمه بأهدافه وانـــه يمهـــد للغزو الإيطالي، ولم يبتعد رجب باشا في معارضته للبنك عن القوانين السائدة، غير أن إيطاليا رفضت احترام هذه القوانين.

وقدم قنصل إيطاليا إلى رجب باشا مذكرة يؤكد فيها أن بنك روما مؤسسة خاصة لا علاقة لها بالدولة، رأسمالها 40 مليون ليرة ولها فروع فـــي بـــلاد أخرى وهي تهتم بالأعمال المصرفية بصورة عامة وستعمل بقدر المستطاع على تطوير وتقوية العلاقات مع هذه البلاد وعلى ما فيه خير سكانها [71].

لـــم يقتنع رجب باشا بتأكيدات القنصل الإيطالي، بل إن دفاع القنصل عـــن البـــنك زاد مـــن شـــدة شكوكه ومعارضته لـــه ودفعه أكثر إلى تقديم التســـهيلات إلـــى الشـــركات الألمانـــية. وتضايقت إيطاليا وتعددت شكواها واحـــتجاجاتها إلى الباب العالي متهمة رجب باشا بعرقلة مبادراتها، وتشجيع

---

(71) R. MORI: LA PENETRAZIONE PACIFICA IN LIBIA - RIVISTA STUDI / INT. 1957, p. 106.

ر. موري التوغل السلمي في ليبيا – محلة الدراسات الدولية 1957، ص 106

المـــبادرات الألمانية في نفس الوقت، كما اتهمت إيطاليا ابن رجب باشا الذي تلقـــى تعليمه في ألمانيا أنه يضغط على السلطة المحلية لمنح شركة الملاحة الألمانـــية "دوتشـــى ليغانت لاين" امتيازاً بتشغيل خط بحري ما بين استانبول ومالطـــا مـــاراً بطرابلس وبنغازي وبيرو وسالونيك، وخطاً آخر يعمل على طول السواحل الليبية – و احتجت إيطاليا على ألمانيا أيضاً لنفس السبب وقد ردت عليها الحكومة الألمانية أنها لا تستطيع منع الشركات الألمانية من القيام بمـــبادرات يؤمـــنها لها الاتفاق التجاري المعقود مع تركيا. وواصلت إيطاليا ضـــغطها على الباب العالي، الذي كان يخشى افتعال إيطاليا لأزمة سياسية، فطلب من وإلى طرابلس منح فرع بنك روما تصريحاً مؤقتاً بالعمل إلى حين صدور الإرادة الإمبراطورية.

لـــم يأت بنك روما إلى طرابلس بموجب مخطط أو دراسة تحدد نوعية أعمالـــه ومشـــاريعه وصـــلاحياته وأسلوب تعامله مع السلطة المحلية، وقد فوضت الإدارة المركزية مدير فرع طرابلس بريشياني BRESCIANI أن يفعل ما يراه مناسباً وقد وجد الأخير البلاد في حاجة إلى كل شئ و أراد أن يقـــوم بمعظم المشاريع التي كانت البلاد تحتاجها في أقرب وقت ممكن وفي وقت واحد وذلك لإرضاء حكومته من جهة وسد الطريق أمام الدول المنافسة مـــن جهـــة أخري. وقد تعاونت مع مدير الفرع مجموعة من المنتفعين الذين كـــانوا يشيرون عليه بالقيام بمشاريع دون دراسة جدواها ولا فائدتها للسكان، وفتح البنك فرعاً في بنغازي في شهر يوليو من العام نفسه، وفتح العديد من الوكالات في المدن الصغيرة الساحلية، وقام بعدة مبادرات صناعية وزراعية وتجارية قبل أن يتحصل على الإذن من الحكومة الذي يخوله العمل في ليبيا. وقـــد تجمـــع حـــول البنك العديد من السماسرة والعملاء من العرب واليهود والمالطييـــن الـــذي كـــانوا يروجون لأعماله ويضخمون من أهميته وفائدته بالنسبة للعرب، ويأتون إليه بالمحتاجين إلى القروض والرهنيات.

ولم يتصرف البنك كمؤسسة خاصة تعمل في حدود القانون كغيرها من المؤسسات الأجنبية الأخرى، بل كان يعتد بنفوذ حكومته ويتحدى السلطة المحلية في بعض الأحيان، ويرتكب المخالفات في سبيل تحقيق مآربه، واثقاً من أن حكومته سوف تضغط على الباب العالي الذي سيطلب من الوالي التغاضي عما يرتكبه البنك من مخالفات. وقد اقتنعت السلطة المحلية والشعب الليبي أن البنك ليس إلا طليعة للاستعمار الإيطالي وعمله تمهيدي لهذا الاستعمار، غير أن السلطة والشعب لم يجدا بداً من تقبل وجود البنك والتعامل معه لغياب البديل.

وتشدد بعض الولاة ورفضوا تلبية المطالب الإيطالية حفاظاً على كرامة الدولة وسيادتها، غير أن الصحافة الإيطالية كانت تثير ضجة وتوجه الاتهامات إلى تركيا وتهددها، وتتولى الدبلوماسية الإيطالية ممارسة الضغط على استانبول إلى أن ترضخ وتلبَي المطالب الإيطالية رغم أنف الولاة المتشددين. وقتل في مدينة درنة في ربيع عام 1908 راهب إيطالي يدعي جوزبي باتشيني، وبالرغم من عدم معرفة القاتل ولا أسباب الجريمة، فقد أثارت إيطاليا زوبعة وصعدت حالة التوتر بينها وبين تركيا وهددت بإرسال بوارجها إلى المياه الطرابلسية. واضطر السلطان إلى إصدار إرادة بمنح بنك روما امتياز تسيير الخط البحري الذي طلبه البنك واستدعاء إبراهيم باشا وإلى طرابلس وعمر عالي متصرف بنغازي إرضاء لإيطاليا. وقد استمدّ بنك روما من هذا الحادث القوة والاطمئنان ليواصل مبادرته الصناعية والتجارية لتوطيد مركزه وأهميته. لم تكن تركيا، عسكرياً أو مدنياً، في وضع يفرض عليها الخوف والمذلة التي طبعت علاقاتها بإيطاليا منذ أن ظهرت إلى الوجود قضية ليبيا، فتركيا منذ أن أسسها السلطان عثمان عام 1299 تزايدت قوتها واتسعت ممتلكاتها وكونت أكبر إمبراطورية عرفها التاريخ في تلك الفترة، وخضع لها شرق أوربا وسادت البحر الأبيض المتوسط وغدت أقوى دولة في أوربا. وقد

بـــدأ انهيارها في أواخر القرن الثامن عشر عندما ازدهرت في أوربا الصناعة والعلـــوم وتطـــور أســـلحة الحـــرب، ووقفت تركيا عاجزة عن اللحاق بركب الحضـــارة الجديـــدة وبـــدأ تفـــوق الدول الأوربية عليها والطمع في ممتلكاتها والرغـــبة فـــي اســـتعادة استانبول منها عاصمة الإمبراطورية البيزنطية سابقاً ومقـــر رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية. وكانت روسيا بصورة خاصة طامعة في الاســـتيلاء على استانبول والسيطرة على المضائق، ودخلت مع تركيا في عدة حـــروب كان أخرها عام 1877 الذي كادت فيه روسيا أن تحتل استانبول لولا وقوف بريطانيا إلى جانب تركيا، لا دفاعاً عنها وإنما لمنع روسيا من السيطرة على هذا الموقع الإستراتيجي الهام.

ومـــرّت إيطاليا بحالة توتر وخوف من ضياع ليبيا من أيديها و بالرغم من موافقة الدول الكبرى على إطلاق يدها في ليبيا، فإن إيطاليا كانت تخشى أن تســـتغل ألمانـــيا صداقتها لتركيا وتحصل منها على موضع قدم في البحر الأبـــيض، أو أن تحـــتل بريطانيا طبرق القاعدة الإستراتيجية الهامة بالنسبة لمواصـــلاتها عـــبر قـــناة السويس، أو قيام فرنسا باقتطاع أجزاء من غرب وجـــنوب ليبيا وضمها إلى تونس والجزائر وإلى مستعمراتها الواقعة جنوب ليبـــيا. واستبدت هذه الهواجس بالأوساط السياسية الإيطالية وخلفت حالة من الهســـتريا شـــاركت فـــيها الصـــحافة ومجلس النواب ومن يطلق عليهم اسم القوميين، وأخذت تتزايد باستمرار حتى وقع الغزو، ولا تلام تركيا من خلال هذا المناخ العدواني الذي خلقته إيطاليا.

❖ إنجازات البنك في ليبيا

ونعود إلى بنك روما وما قام به من أعمال في ليبيا في العام الأول من نشاطه وفقا للتقارير التي أرسلها إلي البنك المركزي في روما. وقد جاء في تقرير مجلس إدارة البنك السنوي المقدم إلى الجمعية العامة للمساهمين بتاريخ 3 ـ 3 ـ1908 : " فـــي اليوم الخامس عشر من إبريل 1907 افتتحنا فرعنا

فـــي طرابلس بين مظاهر مودة السكان العرب والأوربيين الصادقة، وبفضل اتفاقــيات مفــيدة ومناسبة تم توسيع دائرة أعمالنا على امتداد الساحل الليبي بإنشـــاء وكالات تجارية في الخمس و زليتن ومصراته وزواره ودرنة وفي يوم 15 سبتمبر أنشأنا وكالة مصرفية في بنغازي مركز برقة التجاري الهام والسوق الرئيسية للحبوب والتي تصب فيها جميع قوافل واداي والتشاد. وقمنا فـــي طرابلس بدراسة المنتوجات المجدية، وتحدد اهتمامنا بصورة عامة في المصنوعات أي الخيوط ومواد البناء وغيرها. وفيما يتعلق بالاستيراد فهناك الحــبوب وريـــش الـــنعام والحلفاء والعاج والصوف والنشاف، وفيما يتعلق بالتصـــدير فقــد شرعنا في إدخال الحلفاء إلى إيطاليا ودلت التجارب الأولى على صحة توقعاتنا بأن استعمال الحلفاء سيكون مفيداً في صناعة الورق في بلادنـــا، وسنشـــرع قريباً في بناء مطحن لنا يلبي حاجة تلك البلاد وهو أول مطحن أسطواني يقام في طرابلس، أما المطحن القديم سننقله إلى بنغازي أو الخمـــس. اهتممـــنا كذلك بإنشاء مصنع للثلج و تحصلنا على احتكار لمدينة طـــرابلس بأكملها وكذلك قمنا بإنشاء معصرة للزيت في الخمس و أخرى في طـــرابلس، وندخـــل بذلك في هذه المناطق الغنية بالزيتون أسلوباً جديداً في الصـــناعة الوطنـــية. ولا ننســـى المـــيدان الزراعي حيث وجدت الأراضي المتعطشـــة للمســـاعدة في مصرفكم المساندة والمساعدة الفعالة كما يسرنا أن نعلمكـــم أنـــه ســـيبدأ العمـــل في الأيام القادمة بخط بحري ما بين طرابلس ومصـــراته مـــروراً بـــالخمس وطابـــيا وزليتـــن. وتدور في الوقت الحالي مفاوضـــات بخصوص إنارة طرابلس بالكهرباء ومدها بمياه الشرب والري، ونرجو أن تكلل هذه الأعمال بالنجاح" (72).

لم يشر تقرير مجلس إدارة بنك روما إلى أن البنك لم يتحصل بعد على

---

(72) A. D'ALESSANDRO: IL BANCO DI ROMA E LA GUERRA DI LIBYA _ STORIA E POLITICA. 1968, F. 111 p. 498.

اليسا ندرو _ بنك روما وحرب ليبيا، مجلة التاريخ والسياسة 1968 ملف 3 ص 148

التصريح الرسمي بالعمل في ليبيا وأبدى رضاه عن جميع المبادرات التي قام بها الفرع في طرابلس دون أية ملاحظة مما يدل على موافقته على المخطط السياســي الذي اعتمدته حكومة روما والرامي إلى السيطرة في أقرب وقت ممكــن علـــى معظم النشاطات الاقتصادية والصناعية في البلاد و الاستئثار بتنفــيذ المشاريع والخدمات التي كانت تحتاجها البلاد. وخصص البنك برقة لنشـــاطه الزراعـــي والحيوانـــي وزراعة الحبوب، وقرر أن يجري فيها في الفترة الأولى تجارب على التربة والمياه والمناخ وطبيعة العلاقة بين العرب والعامليـــن فـــي المزارع، وذلك باعتبار برقة أرضاً خصبة كثيرة الأمطار تزدهـــر فـــيها تربـــية الحـــيوانات وزراعة الحبوب و تعد المنطقة الأفضل للاستعمار الاستيطاني.

وكـــان البنك يطمح في الحصول على عطاء بناء ميناء طرابلس الذي كانـــت تتنافس عليه عدة شركات أوربية، كما دخل في مفاوضات مع السلطة المحلـــية لإنارة طرابلس بالكهرباء ومدها بمياه الشرب الجارية وهي مشاريع كانـــت المدينة في أشد الحاجة إليها، وفي بنغازي أيضا اتفق البنك مع بلديتها لتزويد المدينة بالمياه الجارية، وشرع فعلاً في تنفيذ المشروع غير أنه توقف بعد الغزو الإيطالي.

وتزامـــن افتـــتاح فـــرع بـــنك روما بطرابلس مع مرور البلاد بأزمة اقتصـــادية خانقـــة سببها الجفاف والقحط وغياب الأعمال العامة والفقر الذي أصـــاب سكان الدواخل بصورة خاصة، وكان الناس مستعدين لتلقي المعونة والإعانة مهما كان مصدرها.

وكانـــت الحكومـــة التركـــية المركزية على علم بأوضاع ليبيا وفقرها وحاجـــتها الملحة للمساعدة، غير أنها لم تتحرك ولم تلتفت للمأساة التي كان يمـــر بهـــا ســـكان إحدى ولايتها، بل على العكس، واصلت جباية الضرائب وإرســـال جـــزء هـــام منها إلى استانبول. وحاول نائبا طرابلس في "مجلس

المبعوثان العثماني" السيد محمود ناجي والسيد صادق الحاج، دفع الحكومة إلى مساعدة طرابلس بالغذاء، وبعثا برسالة إلى المجلس شرحا فيها الأوضاع المؤلمة التي كانت تمر البلاد بها وقد جاء في هذه الرسالة:

" لقد وجدنا بعد عودتنا من الأستانة بعد انفضاض المجلس وضعاً مؤلماً في طرابلس فقد هاجر إلى تونس طلباً للرزق وفراراً من الجوع والقحط أكثر من مائتي ألف نسمة من أهل البلاد ورأينا أربعة آلاف نسمة من الشيوخ والنساء والأطفال قد لجئوا إلى مذلة السؤال لسد رمقهم وإنقاذ حياتهم من مخالب الموت. وقد علمنا أن خمسمائة وأربعة عشر شخصاً من هؤلاء ماتوا جوعاً من شهر مارس إلى شهر يوليو الماضي (1911) فقمنا إزاء ما رأيناه بإرسال تلغرافات ورسائل إلى حقي باشا رئيس الوزراء بتاريخ 13 يوليو نناشد حكومته أن تنفق العشرة آلاف جنيه التي رصدت في الميزانية باسم المخصصات غير المنظورة بموجب مادة قانون خاصة، ووافق المجلس في آخر اجتماعه على الطلب وقد قررت الحكومة إرسال ستمائة كيلة من الحبوب إلى طرابلس وتوزيعها على الأهالي بطريق القرض لأجل البذور والأكل، ولما عدنا من طرابلس إلى الأستانة ألححنا على الحكومة بطلب الإسراع في إرسال هذه الحبوب ومع الأسف نقول إن الحكومة تباطأت في الأمر إلى أن أعلنت الحرب ولم ترسل شيئاً وبهذا أصبح أهالي طرابلس المدافعون بأرواحهم عن حوزة الوطن بين عدوين : الإيطاليين والجوع الذي لا يرحم" [73].

وقد دفع سوء الأحوال الاقتصادية والمجاعة بالناس إلى اللجوء إلى المرابين اليهود للاقتراض ورهن عقاراتهم ومقتنياتهم بفائدة باهظة تصل إلى المائة في المائة، وتحول الناس إلى التعامل مع بنك روما بعد افتتاحه رغم

---

(73) طاهر الزاوي ـ جهاد الأبطال ـ ص 34 أحمد صدقي الدحاني ـ سابق الذكر ص 405 و448

شعورهم العدائي نحوه ومعرفة أهدافه، لأن البنك كان يتقاضى على القروض والرهونات فائدة لا تتجاوز التسعة في المائة. وفي حين كان المرابي يستولي على الوديعة المرهونة إذا ما عجز صاحبها عن السداد، فإن البنك كان يجدّد أمد الرهينة أو القرض أكثر من مرة في حالة عدم السداد في الموعد المحدد، وكان هذا الوضع يبرر إقبال الناس عليه والتعامل معه.

وكانت رهونات أخرى أكثر بعداً في أغراضها السياسية وهي رهونات الأراضـــي والعقارات. فقد كان البنك يقوم بإقراض المواطنين قروضاً على آجـــال مـــتفاوتة بضمان عقاراتهم، فإذا ما حان وقت السداد وعجز صاحب الأرض عـــن توفير المبلغ، فإن البنك يقيم قضية أمام المحكمة لتسجيل العقار باسمه وذلك بعد تجديد مدة القرض مرة أو أكثر. وفي الوقت الذي وقفت فيه الحكومـــة التركـــية مكتوفة الأيدي أمام المجاعة التي كانت تعصف بالشعب الليبـــي فقـــد قـــام مدير فرع بنك روما بطرابلس بريشاني بمحاولة سياسية بارعـــة، فاســـتورد كمية من الشعير والقمح من إيطاليا وقام بتوزيعها على المحتاجيـــن على أن يدفعوا ثمنها بعد جني المحاصيل وهو أسلوب متبع من قـــبل بين التجار والمزارعين. واتخذ البنك من هذا الموضوع وسيلة للدعاية السياســـية وقدر البنك أن الخسائر من هذه العملية سوف لا تتجاوز العشرين فـــي المائـــة في حالة جودة الموسم الزراعي. وكتب مدير البنك إلى الإدارة المركزية يقول في هذا الصدد: " إن فوائد هذا العمل جيدة ويعتقد أنه سيكون لــــه أثـــر بـــالغ بين السكان، واقترح التساهل والتغاضي عندما يحين وقت اســـترداد الأمـــوال لأســـباب سياسية واضحة"[74]. وذكر مدير البنك للإدارة المركـــزية أن 80% مـــن الذين تحصلوا على الحبوب سوف يدفعون ثمنها "بالـــنظر إلى أمانة العرب الشديدة المعروفة في الأعمال التجارية ". وكانت الغاية من هذا العمل سياسية لإشعار الناس بالفارق في المعاملة بين الحكومة

---

(74) موريى ـ المصدر سابق الذكر ص 107.

التركية المسئولة عنهم وبنك روما المؤسسة المالية الخاصة التي كانت أشفق علـــيهم من حكومتهم، ولم تذكر وثائق بنك روما مقدار أو قيمة الحبوب التي وزعـــت. وقـــام البنك في برقة بعملية مماثلة حيث اشترى خمسة عشر ألف رأس من الأغنام ولم يوزعها على الفقراء و إنما على المشايخ وكان الغرض مـــن العمليتين تحسين وجه إيطاليا في نظر الليبيين وإشعارهم بالمكاسب التي سوف يجنونها من الوجود الإيطالي.

لـــم يكـــتف البنك، كما سبق وذكرنا، بالنشاط المصرفي فوسع أعماله فشـــملت الصـــناعة والـــزراعة والمعادن والمقاولات و التعهدات والتجارة وغـــيرها من الأعمال التي انتقدها الاقتصادي الإيطالي الكبير آينا ودي الذي تولـــى فـــيما بعـــد رئاسة الجمهورية الإيطالية. فقد كان البنك يعمل بصورة سريعة ويريد القيام بجميع مشاريع البلاد الهامة في أقصر وقت ودون دراسة الجـــدوى أو الظـــروف المحلية وتأثيرها على المشاريع التي يقوم بها البنك. وسنحاول أن نعطي فيما يلي فكرة وجيزة عن المشاريع والنشاطات التي قام بهـــا البنك في ليبيا في الأربع سنوات الممتدة من عام 1907 إلى وقت الغزو الإيطالـــي وجـــدوى هذه المشاريع ومدى تأثيرها السياسي والاقتصادي على الســـكان، وهل حققت الغاية التي جاء من أجلها البنك إلى ليبيا وهي التمهيد لاستيلاء إيطاليا سلمياً على البلاد.

★★ الأعمال المصرفية

تعتـــبر الأعمـــال المصرفية أنجح نشاط قام به البنك في ليبيا والأكثر فـــائدة بالنســـبة للسكان. لقد كانت البلاد وقت تأسيس البنك في طرابلس تمر بضـــائقة اقتصـــادية خانقة وفي حالة من الإهمال والتخلف والفقر بسبب عدم اهتمام الحكومة التركية بآخر ولاياتها الأفريقية أو محاولة التفكير في تخفيف حالـــة الـــتخلف التي أوجدتها فيها. وكانت الطبقة الواعية من الشعب الليبي آنـــذاك تشعر بالحاجة إلى التغيير والبناء والتقدم إسوة بجيرانهم أو الشعوب

القريبة منهم. لقد كانت مدينتا طرابلس وبنغازي تعيشان بدون إنارة كهربائية أو مياه جارية نقية أو صرف صحي أو طرق، وكانت الموانيء والمواصلات في أسوأ حالاتها، فكان اهتمام الحكومة التركية منصباً على جباية الضرائب وتحويل جزء كبير منها إلى استانبول وإنفاق ما تبقى على الرواتب وبعض الخدمات الضرورية، وعجز بعض الولاة عن تحقيق بعض المشاريع بسبب قلة المال وفقر البلاد. كان الليبيون يعتمدون بصورة رئيسية على زراعة الحبوب وتربية الحيوانات المرتبطة بهطول الأمطار، فإذا جاءت الأمطار في أوقاتها وبكميات كافية تحسنت أحوال الناس وصدروا ما فاض عن حاجتهم من إنتاج زراعي وحيواني، وإذا انحبست الأمطار أكثر من سنة حل الجفاف واشتدت الحالة واضطر الآلاف من الناس إلى الهجرة بحثا عن العمل، وعن المرعى للحيوانات لإنقاذها من الهلاك، وظل هذا الوضع المؤلم يتكرر طيلة الحكم التركي وقبله.

ولم تحاول الحكومة التركية معاجلة هذا الوضع بإقامة مبادرات ومشاريع لخلق مصادر أخرى للدخل كتقديم القروض للمزارعين وتشجيع تربية الحيوانات وإقامة صناعات محلية وتدريب الناس على صيد الأسماك بصورة أكبر وأحدث، أو القيام برصف الطرق وهو من المشاريع التي تستوعب الكثيرمن اليد العاملة. لقد كان في إمكان الحكومة التركية إيجاد الكثير من الوسائل التي تساعد الشعب على تجاوز فترات الجفاف القاسية وما تسببه له من عدم الاستقرار والمعاناة والاضطرار إلى ترك الوطن.

قابل الليبيون افتتاح فرع بنك روما في طرابلس بمشاعر مختلفة فالبعض اعتقد أن البنك سوف يوفر للبلاد الخدمات التي عجزت الحكومة التركية عن توفيرها، وقابلت أغلبية الناس افتتاح البنك بعداء شديد باعتباره طليعة للغزو الذي كانت إيطاليا تلوح به دون مواربة، غير أن التجار وجدوا في هذه المؤسسة الوسيلة التي تؤمن لهم الخدمات الحديثة وسرعة التحويلات

والعمليات المصرفية، بالإضافة إلى سهولة الحصول على القروض وخاصة بالنسبة للذين تعوّدوا على التعامل مع السوق الإيطالية، فقد كان البنك يسهل استيراد السلع التي يرغبونها والتي كانت تصل إلى طرابلس وبنغازي على ظهر بواخر البنك بصورة سريعة ومضمونة .

وكانت الرهونات أهم جانب عمليات البنك المصرفية بالنسبة للمواطن الليبي العادي، فقد دفعت الأحوال الاقتصادية المتردية بالناس إلى رهن أشيائهم الثمينة لدى المرابين اليهود كلما احتاجوا إلى مال لأي طارئ يحدث على أمل أن تتحسن الأحوال ويستعيدون ما رهنوه، إلا أنه في أغلب الأحوال يستولي المرابي على الودائع المرهونة بعد أن يعجز أصحابها عن سداد المبلغ الذي استلموه، وعندما بدأ بنك روما أعماله في طرابلس وجد فيه الناس خلاصًا من المرابيين وشروطهم المجحفة فقد كان البنك يتقاض عمولة لا تتجاوز 9% على الرهونات بدلاً من العمولة التي كان يتقاضاها المرابون والتي كانت تصل أحياناً إلى المائة في المائة. وكان البنك، عندما يحين وقت السداد ويعجز صاحب الرهن عن السداد، فكان يجدد له الرهن لفترة أخرى أو أكثر قبل أن يبيع الأشياء المرهونة.

ووجهت انتقادات من الإيطاليين أنفسهم للبنك بسبب عدم قبوله للودائع التي تقل قيمتها عن خمسة فرنكات. وبذلك استمر الفقراء في التعامل مع الرابين الذين كانوا يجمّعون من الناس الأشياء التي يرفض البنك رهنها ويرهنونها لدي البنك بفائدة 9%، ويقرضون المبلغ الذي يحصلون عليه من البنك إلى أصحاب هذه الودائع الصغيرة بفائدة تتجاوز الستين في المائة، وبذلك لم يستطع البنك تخليص الفقراء من براثن المرابيين، بل أصبح في بعض الحالات ممولاً لهم (75).

---

(75) BEVIONE: COME SIAMO ANDATI A TRIPOLI _ TORINO, 1912. p.127-128.

يغوني _ كيف ذهبنا إلى طرابلس. تورينو، 1912ص 127-128 .

وهـدف بـنك روما منذ بداية أعماله إلى تخليص الليبيين الفقراء من جشع المرابين الذين كانوا يستولون على ودائع وعقارات الفقير بثمن بخس، ويشعرهم بالفارق في المعاملة. وكانت عمليات القروض التجارية والرهونات بصـورة عامة من العوامل الرئيسية التي كان البنك يرجو من ورائها كسب العنصـر الليبـي وأشـعاره بفائدة وجوده، ولم يقتصر طلب القروض على الأفـراد، بل شمل الهيئات الرسمية التي اضطرت بدورها إلى الاقتراض من البـنك – فاقترضـت منه بلدية بنغازي ستمائة ليرة تركية واقترضت بلدية طرابلس مليون ليرة إيطالية.

★★ الأراضـي

اعتـبر بنك روما شراء الأراضي من أهم أهداف الاستعمار الإيطالي بصـفتها القـاعدة التي يقوم عليها الاستيطان الإيطالي في ليبيا، و اختارت إيطالـيا برقة لتكون باكورة هذا الاتجاه وشرع البنك عن طريق عملائه في شـراء الأراضـي الواقعة في ضواحي بنغازي والتي كان أصحابها في أشد الحاجـة إلى بيعها. وقد بذلت إيطاليا من قبل كما سبق وأشرنا عدة محاولات لشـراء أراضٍ وتعميرها بمهاجرين إيطاليين إلا أن هذه المحاولات لم تنجح بسـبب قلـة رؤوس الأمـوال التـي تحـتاجها هذه المشاريع، وعدم إقبال المهاجريـن الإيطاليين على الذهاب إلى ليبيا، فقد كانوا يفضلون الهجرة إلى تونس أو أمريكا أو أي مكان آخر حيث كانت تتوفر إمكانيات العمل والفرص الاقتصـادية والأمن. واستعان البنك في عملية شراء الأراضي بسماسرة كان همهم الوحيد تحقيق ما يعود عليهم بالفائدة دون مراعاة لصحة وثائق الملكية ولشرعيتها، بل أحياناً كان البائعون يبرزون وثائق مزورة أو يبيعون أراضي لا يملكـون فيها إلا أسهماً قليلة أو لا يملكون فيها شيئاً على الإطلاق. وكان البنك بدوره متلهفاً على الشراء بأي صورة وبأي ثمن، الأمر الذي دفع الناس إلـى سـلوك طـريق الـتحايل والتلاعب لابتزاز ما يمكن من أموال البنك

وتوريطـــه فـــي قضـــايا ومشـــاكل قانونية. ورفض الدائرة العقارية تسجيل العقـــارات غير الصحيحة، وهو الأمر الذي اتخذت منه إيطاليا مبرراً لاتهام تركـــيا بعرقلة نشاطاتها الاقتصادية في ليبيا وسلوكها لسياسة تميزية بالنسبة للجنســيات الأخـــرى، وتمكن البنك بهذه الطريقة من شراء عدد من السواني (بســـاتين) في ضواحي بنغازي، كما اشترى بعض الأراضي الحراثية دون التأكد من المستندات التي تثبت صحتها. وكان أغلب الأراضي التي اشتراها البـــنك لا تـــتوفر فيها شروط الملكية التي نصت عليها القوانين السائدة حتى يمكن تسجيلها بصورة قانونية.

ومـــن المعلـــوم أن الحكومة التركية سنت قانون ملكية الأراضي عام 1858 وهو يصنف الأراضي إلى خمسة أصناف :

1- الأراضـــي الخاصـــة التـــي يملكها الأفراد الذين اشتروها من الدولة ومعظمها يقع في أطراف المدن.

2- أراضـــي المـــيري الحكومية التي تشمل الأراضي الحراثية والغابات وتؤجـــرها الدولة للأهالي بموجب وثيقة عقارية (طابو) وتتحول هذه الأراضي الميري إلى ملكية خاصة إذا كان حائزها زرع فيها أشجاراً أو حفر فيها بئرا أو شيد مبنى.

3- أراضي الوقف التي يوقفها البعض على منافع معينة أو على أفراد.

4- الأراضي المتروكة للرعي والمرافق والطرق والمنافع العامة الأخرى.

5- الأراضـــي الموات البعيدة عن العمران والتي لم يستغلها أحد وقد أقر القانون العثماني أن ملكية هذه الأراضي الموات تعود إلى من يحييها وفقاً للشرع الحنيف [76].

---

(76) أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاستقلال - طرابلس 1971.

وفي عام 1860 أنشأت الحكومة العثمانية "الدفتر الحقاني" في المدن الكبيرة بغرض تحديد ملكية الأراضي، وفي عام 1883 أصدرت الحكومة العثمانية منشوراً بضرورة تسجيل الأراضي والحصول على الطابو بموجب إبراز مستندات الملكية أو إثبات وضع اليد، وتأسست في طرابلس وبنغازي و المدن الأخرى دوائر للتسجيل العقاري (ويرقو) غير أن الكثير من ملاك الأراضي امتنعوا عن تسجيل أراضيهم خشية أن تكون عملية التسجيل وسيلة لفرض ضرائب جديدة. وفي عام 1902 أصدرت وزارة المالية منشوراً بتسجيل العقارات وقد أدى إلى تحقيق وإثبات ملكية العقارات الواقعة في المدن وأطرافها وأصبح بذلك أكثر العقارات في المدن والضواحي السكانية مسجلا وبيد ملاكها السند القطعي الذي يثبت ملكيتهم، كما اعترفت الحكومة العثمانية في نفس الوقت للقبائل بوضع اليد على الأراضي التي بحوزتهم مع بقاء رقبة الملكية للدولة.

وانتقلت الملكية المسجلة، مع مرور الزمن، إلى الورثة الذين أصبحت الملكية مشاعة فيما بينهم وكان يكفي أن يتقدم أحد الورثة إلى بنك روما لبيع العقار، بعد إبراز الطابو الأصلي، كي يشتري منه البنك العقار دون موافقة بقية الورثة. وقد أدت ممارسة هذا الأسلوب غير الشرعي إلى خلافات وصراعات بين الإخوة والأقارب والأسرة الواحدة.

وقد جمع البنك حوله بعض السماسرة الذين كانوا يشجعون الناس على بيع أراضيهم حتى وأن كانت مستندات الملكية غير مستوفية لشروط البيع وكان من الطبيعي أن ترفض المحاكم ودوائر الأملاك تسجيل مبايعات غير صحيحة وغير مستوفية لشروط القانون، غير أن البنك تمادى في شراء الأراضي بهذه الطريقة واعتبر رفض تسجيلها عرقلة سياسية للنشاط الإيطالي في ليبيا وأدت هذه الأوضاع التي خلقها البنك إلى صراع بين الحكومتين التركية والإيطالية وتوتر الأوضاع بين الدولتين.

والدليل على الفوضى التي كان يعمل من خلالها البنك أنه اشترى أراضي لا يملك فيها بائعها سوى أسهم قليلة وباع آخرون أراضي لاوجود لها وكان لتصرفات البنك هذه ردود فعل سيئة لدى السلطات المحلية ولدى السكان الذين ازداد اقتناعهم أن البنك كان طليعة للغزو الإيطالي ويمهد له بتوفير الأراضي للمعمرين الإيطاليين. وكان مدير البنك بريشاني يردد بكل وقاحة أمام الليبيين أن مستندات الأراضي التي اشتراها وادعت السلطات أنها غير صحيحة سوف تحولها مدافع الأسطول الإيطالي إلى مستندات قانونية صحيحة. واشترى البنك بهذه الوسيلة أكثر من مائة عقار في ضواحي بنغازي كانت مستندات أغلبها غير صحيحة واستطاع البنك أن يشترى عدداً من السواني والأراضي ومعظمها في أطراف بنغازي في القوارشة والفويهات واللثامة والرحبة وطابليون والتي كان يملك معظمها سكان بنغازي. وقد أوفد رئيس وزراء إيطاليا جويلتي الدكتور إنساباتو عام 1911 إلى ليبيا لدراسة أوضاع البلاد، قبيل الغزو، والتحقيق في أعمال بنك روما، كما سبق وذكرنا، وقد ضمن تقريره إلى رئيس الوزراء قائمة بالعقارات التي اشتراها البنك في بنغازي ووضعها القانوني، وهي كما يلي :

1- ثلاث عشرة سانية في الفويهات رفضت دائرة الأملاك تسجيل سبعة منها لعدم توفر الشروط القانونية فيها.

2- أربع وعشرون سانية في القوارشة مستندات ثلاثة منها فقط صحيحة في حين رفضت دائرة الأملاك تسجيل الواحد والعشرين سانية الأخرى.

3- اثنتا عشرة سانية باللثامة من بينها خمس سواني غير مستوفية للشروط القانونية.

4- خمس وعشرون سانية بالرحبة، ثلاثة منها فقط وثائق بيعها صحيحة في حين كانت الاثنتان وعشرون سانية الأخرى غير سليمة وقد

رفضتها دائرة الأملاك، وأراضي أخرى بضواحي بنغازي [77]. وقد بذل البنك جهوداً ونشاطاً كبيراً في سبيل الاستيلاء على أكبر قدر ممكن من الأراضي كأنه في سباق مع الزمن دون مراعاة، كما سبق وذكرنا، لصحة الملكية والشروط التي نص عليها القانون كما لو أنه كان واثقاً ومتأكدا من أن الاحتلال واقع وأن الأراضي التي اشتراها لن ينتزعها منه أحد بل سيبيعها بأضعاف قيمتها أو يقيم فوقها منشآت زراعية تحقق له الربح الاقتصادي والسياسي على السواء.

وكانت روما تمارس الضغط على استانبول لقبول تسجيل الأراضي التي يشتريها البنك بصفتها مشتريات مشروعة وتضطر الأخيرة إلى إصدار الأوامر إلى طرابلس بإرضاء إيطاليا. وكان رجب باشا والي طرابلس، الذي تمت في عهده أغلب صفقات الأراضي، يدرك أن شراء الأراضي هو أخطر عمل يقوم به بنك روما في ليبيا بالنسبة لمستقبل البلاد. وقد بذل رجب باشا جهودًا لعرقلة عملية شراء البنك للأراضي ونقل ملكيتها إليه أو إلى إيطاليين آخرين كانوا يقومون بالشراء بأسمائهم ولصالح البنك، مادامت لا تتوفر في هذه المشتريات الشروط القانونية والعمل من جهة أخرى على إيجاد جهات أخرى قادرة على شراء العقارات التي يضطر المحتاجون إلى بيعها إلى بنك روما. ويقول الشيخ طاهر الزاوي: " إن رجب باشا حرض الأهالي على الشراء بعضهم من بعض فإذا لم يوجد مشتري التجئوا إلى أصحاب الشفعة، فإذا لم يقبلوا، التجئوا إلى المجلس البلدي، فإذا عجز المجلس البلدي، يوعز إلى دائرة الطابوا بعدم التسجيل بحجة أن البنك هيئة معنوية كما كان يوعز إلى المحاكم العثمانية في طرابلس أن لا تقبل قضايا البنك بحجة عدم توفر الشروط القانونية في تأسيس البنك [78]. وتغلب البنك على هذه العقبات بشراء

(77) ك ـ بورشيناري ـ العلاقات الليبية ـ الإيطالية ـ سابق الذكر ص 163.

(78) طاهر الزاوي جهاد الإيطالي سابق الذكر ص 7.

الأراضـــي باسم مديره العام أو غيره من الإيطاليين وكان تصدي رجب باشا للإيطاليين يجري في حدود التشريعات الجارية، غير أن ضغط الباب العالي علـــى الوالي ومطالبته بالتساهل مع الإيطاليين وعدم إعطائهم مبرراً لتحقيق أغراضـــهم، جعل الوالي يخفف من معارضة البنك ويتساهل في السماح لـــه بـــالعمل رغم عدم حصوله على الموافقة التي نص عليها القانون والتغاضي عـــن تصرفات أخرى للبنك لا تتمشى مع التشريعات السائدة في البلاد. غير أنه عندما أخذ البنك يتحدى السلطة المحلية بصورة علنية، تصدى لـــه رجب باشـــا ولـــم يتجاوب معه في الحصول على مزيد من المبادرات وخاصة تلك التـــي تتطلب إذناً رسمياً. ولم يستطع رجب باشا في نفس الوقت منع تسجيل العقـــارات التـــي توفـــرت لها الشروط القانونية ما لم تقع في أماكن تحرص الدولة على عدم وقوعها بأيدي أجنبية، فيعمل على ضمّها إلى أملاك الدولة. وقد سجلت إدارة الأملاك بالفعل، باسم مدير عام البنك، 46 مبايعة ورفضت الإدارة تسجيل عدد آخر من المبايعات لعدم صحة مستنداتها [79].

وكانـــت الطـــريقة المتسرعة التي مارسها البنك في شراء الأراضي، كانت تترك الكثير من الثغرات التي كانت تمكن إدارة الأملاك والمحاكم من رفض العملية وقد كلف رئيس الوزراء جوليتي عميله إنساباتو ومحمد علوي، كما سبق ذكره، بالسفر إلى ليبيا في صيف عام 1911. و قد جاء في تقرير إنساباتو إلى رئيس الوزراء، فيما يتعلق بموضوع الأراضي الذي زاد التوتر بيـــن تركيا وإيطاليا، ما يلي: "قابلت إبراهيم باشا والي طرابلس المتشدد ضد الإيطاليـــن وذلـــك في الزاوية السنوسية بحضور حسونه القره منلي ومحمد علـــوي وعـــدد مـــن الأعـــيان، وقد صرح الوالي أنه لا يعادي إيطاليا وأن المشـــاكل التـــي قامـــت بين الطرفين سببها قلة ذوق بعض القناصل وبسبب الأســـلوب العنـــيف الذي يستعمله الممثلون الدبلوماسيون الإيطاليون من أجل

(79) ر. موري ـ السابق الذكر ص 115 .

تسـجيل الأراضـي التـي اشتروها بصورة غير مشروعة وبمستندات غير صـحيحة". ويدّعي إنساباتو أن الوالي قال لــه بخصوص موضوع تسجيل الأراضـي التـي يشتريها الإيطاليون إن لديه أوامر من استانبول بعرقلة بيع الأراضـي للإيطاليين وخاصة إذا كان المشتري بنك روما، ومنع العرب من بيع أراضيهم. غير أن الوالي أشعر حكومته بأنه لا يمكن منع بيع الأراضي وتسجيلها إذا كانت وثائق الملكية سليمة والقضاء لا يمكنه رفضها.

وأضاف الوالي أن الإيطاليين وبنك ورما لا يشترون العقارات بطريقة سـليمة، كمـا أنــه لا يمكــنه أن يمنع العرب من بيع عقاراتهم بسبب الفقر الرهيـب الـذي يعصـف بهم وأن الطريقة الوحيدة التي تحول دون شراء الإيطاليين للأراضي أن تضع الحكومة التركية مبلغاً من المال تحت تصرف الوالي لشراء الأراضي التي يريد الإيطاليون شرائها وتسجيلها باسم الحكومة التركـية [80]. وقد سبق أن اقترح رجب باشا على حكومته فتح فرع للأملاك السـلطانية فـي طرابلس تكون مهمته الأولى شراء العقارات التي لا ترغب الحكومـة في بيعها للأجانب [81]، غير أن حكومة استانبول لم تستجب لــه، علمًـا بـأن القـروض العقارية التي يمنحها بنك روما قد ساهمت في توتر العلاقـات بيـن روما واستانبول. لقد كان البنك يعمد إلى إقراض الوطنيين قروضـاً على آجال متفاوتة بضمان أراضيهم، فإذا حان موعد السداد وعجز هـؤلاء عـن الدفع أصلاً، أو لم ينفذوا شروط البنك، بادر الأخير بالاستيلاء على العقار. وكانت الطريقة المتبعة لمن كان يريد قرضًا من البنك ولا يملك أرضًا، أن يضمنه لدى البنك من يملك أرضاً، فإذا عجز المقترض عن الدفع اسـتولى البنك على أرض الضامن [82]. ولكي يستطيع البنك أن يحجز على

---

(80) ك. بورشياناري ـ العلاقات الليبية ـ الإيطالية ـ السالف الذكر ص 94 ـ 95.

(81) أحمد صدقي الدجاني ـ ليبيا قبيل الاحتلال ـ السالف الذكر ص 162 .

(82) فؤاد شكري، استقلال ليبيا. الجزء الثاني ص. 427.

العقـــار المـــرهون بسبب عدم السداد فعليه أن يرفع قضية أمام القضاء الذي يقـــوم بالتحري عن صحة الملكية ويرفض القضية إذا كان مدعي الملكية لا يملـــك الوثـــائق التـــي تثبت ملكيته للعقار. وكان بعض المدعى عليهم يأتي بـــبعض أفراد أسرته الذين يدعون أن العقار ملك مشترك، فتضطر المحكمة إلى رفض الدعوى، وبما أن أغلب الأراضي غير مسجلة، فقد كان من السهل القيام بهذا الطعن وإيقاف أو عرقلة صدور حكم لصالح البنك.

وعندما تعددت شكاوي إيطاليا من عدم تسجيل العقارات التي اشتراها بـــنك روما ورفض المحاكم للقضايا التي يرفعها البنك للحصول على حقوقه، فقد أشعرت الحكومة التركية إيطاليا بأن الأراضي الكثيرة التي اشتراها البنك في ليبيا قد أثارت قلق المواطنين الليبيين الذين يخشون هجرة إيطالية واسعة لتعمـــير هـــذه الأراضي واستغلالها على حساب الليبيين [83]. وقد لعب حقي باشا سفير تركيا بروما ورئيس وزرائها وقت الغزو، دوراً كبيراً في الضغط علـــى حكومة استانبول لمساعدة الإيطاليين وتمكينهم من تحقيق مبادراتهم في ليبـــيا، وكان صديقا لإيطاليا ومفتوناً بها وبفنونها وطبيعتها، وجاء في إحدى رسائله إلى استانبول:

"إن إيطالـــيا تبذل جهداً كبيراً لمساعدة الحكومة العثمانية خصوصاً بعد صـــدور الدستور، ومن الواجب على الباب العالي أن يتساهل مع بنك روما لتأكيد واجب المودة بين البلدين وإحكاماً لمعاني الود الصادق" [84]. ولم تراع إيطاليا معاني الحب والمودة وقامت بغزو ليبيا والاعتداء على ولاية عثمانية عندما كان حقي باشا رئيساً للوزراء.

---

(83) MARCELLA PINCHERLE _ LA PREPARAZIONE DELL OPINIONE PUBLICA ALL'IMPRESA DI LIBIA - RASSEGNA STORICA DEL RISORGIMENTO 1969 _ FASC .111.

مراشيلا بنشرلى _ إعداد الرأي العام لحملة ليبيا _ مجلة النهضة التاريخية 1969 والملف الثالث.

(84) طاهر الزاوي الساق الذكر ص 32.

وقد زاره، قبل الغزو، مدير عام بنك روما واشتكي إليه والي طرابلس، الذي كان يدافع عن كرامة تركيا ومصلحتها، فأصدر أمراً إلى ناظري الخارجية والعدل بقبول قضايا بنك روما في المحاكم العثمانية خلافاً لما نص عليه القانون، بضرورة حصول الشركات المساهمة الأجنبية على إرادة سنية، وبرر ذلك بأن السفراء اعترضوا على هذا القانون.

★★ الزراعة

عملت إيطاليا بنصائح الرحالة الألماني رولفس الذي زار ليبيا قبل ثلاثين سنة من بداية نشاط بنك روما بطرابلس، والذي حرض فيها إيطاليا على احتلال ليبيا وقال لها إن المنطقة الممتدة من توكره إلى الجبل الأخضر تعتبر أخصب أرض في ليبيا وشبيهة بأراضي إيطاليا. وظلت هذه النصيحة المرشد لإيطاليا في عملية استعمارها لليبيا رغم تقارير القناصل الذين عملوا بليبيا والخبراء والذين زاروها، وانطلاقا من هذه القناعة، قرر بنك روما أن يكون نشاطه ببرقة مقتصراً على الزراعة وتفرعاتها وعلى تربية الحيوانات وإلى جانب شراء الأراضي والسواني و إعدادها للمعمرين. أنشأ البنك مزرعة نموذجية في القوارشة، مساحتها أربعة آلاف هكتار، للقيام بتجربة علمية لدراسة طبيعة الأرض وإمكانياتها الزراعية، ودراسة التربة والمياه وتحديد نوع المزروعات التي قد تنجح فيها ومعرفة مدى تعاون السكان العرب مع المعمرين الإيطاليين الذين سوف يجلبهم البنك للاستيطان في هذه الأراضي. وخصص خمسة وعشرين هكتار من المزرعة لزراعة الحبوب وزرعت فيها بضعة مئات أشجار الزيتون الذي جلب من إيطاليا مع بعض نماذج من الحيوانات لمعرفة مدى احتمالها للمناخ الليبي. وأرسلت الحكومة الإيطالية مهندساً زراعياً يدعى كاربوني، للإشراف على المزرعة وقد بعث إلى إدارة بنك روما المركزية بأول تقاريره في شهر يونيو عام 1909 الذي جاء فيه: "سافرت إلى ليبيا غير متفائل، إلا أنني بعد فترة قصيرة من العمل

والدراسة أصبحت مسروراً للنتائج الطيبة التي تحققت. إن التكوين العضوي للأرض جيد والمناخ أيضا جيد والأرض صالحة لزراعة الكثير من النباتات بمـــا فيها النباتات الاستوائية إذا وجد حل لمشكلة الري. والمياه توجد بغزارة فـــي كـــل مكان على عمق يتراوح ما بين ستة وعشرة أمتار، فإذا ما حلت مشـــكلة المـــياه بواسطة آلات الحفر، سيكون في إمكاننا تأمين إنتاج بكميات كبـــيرة مـــن الأعـــلاف. الأغنام تنمو بصورة جيدة وهي مصدر هام للدخل بالنســـبة للمواطنين وستضاف إلى الأغنام سلالات من البقر والخيول عندما نتمكـــن مـــن توفـــير الأعلاف وسيكون في إمكاننا إنتاج حيوانات للتصدير وإنشـــاء الصـــناعات والمنـــتجات المرتبطة بتربية الحيوانات" (85). وبالنسبة للـــتعامل مـــع الليبيين كتب المهندس كاربوني في تقريره المذكور يقول: "إن العرب غير معادين للإيطاليين وإن كان لا تزال هناك ريبة من الإيطالي. إن إقامتي لمدة ثمانية أشهر مع المواطنين أقنعتني أنه في الإمكان الحصول منهم ومـــن أراضـــيهم علـــى الكثير إذا أحسنا استثمار الأراضي وعاملنا العنصر الوطنـــي باحترام تقاليده ودينه. إن العربي لا يكتفي بإنتاج الشعير من أرضه بالوسائل التقليدية فإنه مع حسن المعاملة يستطيع استعمال وسائل أخرى لأن لديـــه روح التكـــيف ومســـتعد للعمل معنا إذا احترمنا تقاليده ومعتقداته. إن الوطنـــي يجب أن يحترمنا لا عن طريق العنف كما يفعل أوربيون آخرون و إنما عن طريق الخير الذي نقدمه لـــه وعن طريق الجدية في حياتنا الخاصة وفي أعمالنا" (86).

وكـــان المهـــندس كاربوني، على عكس مدير بنك روما. يحبذ التأني وعدم العجلة والارتجال والقيام بمبادرات متسرعة. إن الآراء والنصائح التي

---

(85) ريناتوموري السابق الذكر ص 108 .

(86) الـــتقرير موجـــود فـــي محفوظات وزارة الخارجية ـ الأمانة العامة 10-9-1911 رقم 28/8 أبار أرتوازية

أوردهـــا المهندس كاربوني كانت تتناقض مع سياسية بنك روما القائمة على خلــق المشـــاكل والـــتحدي وتعكـــير جـــو العلاقات بين الحكومتين التركية والإيطالية. وكانت الغاية من إقامة هذه المزرعة إعدادها لاستقبال العديد من المعمرين الإيطاليين الذين سوف يتوافدون على ليبيا للاستيطان في الأراضي التـــي اشـــتراها البـــنك، غير أن المعمرين لم يصلوا والأرضي تولى حرثها الوطنـــيون بطـــرقهم التقليدية. وكان مشكل المياه من العقبات التي وقفت في وجه الاستيطان الزراعي الإيطالي، وأرسلت الحكومة الإيطالية خبيراً للبحث عـــن المياه وذلك بصفته موظفًا ببنك روما [87]. ووجّه الخبير اهتمامه لبرقة وبـــنغازي بصـــورة خاصة لأن معظم الأراضي التي اشتراها البنك تقع في ضـــواحي بنغازي المحرومة من المياه الجارية النقية، وكان الهدف مزدوجا وهو حل مشكلة المياه بالنسبة للمعمرين القادمين وإشعار سكان مدينة بنغازي بفوائد الوجود الإيطالي حيث استطاع البنك أن يحل مشكلة المياه المستعصية بالنسبة لمدينتهم وتقدم مدير بنك روما في بنغازي بطلب إلى الحكومة المحلية مقـــترحاً حفـــر آبـــار ارتوازيـــة فـــي الأرضي التي اشتراها في الفويهات وقـــاريونس واللثامة والقوارشة لتوفير مياه الشرب لمدينة بنغازي والحصول على امتياز يتم الاتفاق عليه مع البلدية. ويبدو أن البنك تحصل على الامتياز أو وعِـــدَ بذلك لأنه استورد آلات الحفر والأجهزة الأخرى التي وصلت ميناء بنغازي في شهر يونيو 1911 وبوشر الحفر والبحث عن المياه، إلا أن الغزو الإيطالـــي وضـــع حدا لهذا المشروع الذي لم يتحقق إلا بعد أكثر من عشر ســـنوات. ومشكلة تزويد مدينة بنغازي بمياه الشرب الجارية النقية كانت من المشـــاكل الكـــبرى التي عجزت البلدية عن حلها بسبب قلة الأموال وتقاعس الحكومـــة التركـــية عـــن القيام بأي مشروع حيوي بالنسبة لمدينتي طرابلس وبـــنغازي. وكان سكان المدينة الأخيرة يحصلون على مياه الشرب من آبار

---

(87) ر. موري ـ السابق الذكر ص 119.

الفويهات والسبالة والصابري والصهاريج المقامة في دور العائلات المقتدرة. وطلبت الحكومة التركية من المهندس قريقوري، الذي ترأس البعثة اليهودية التي زارت برقة عام 1907 لقيام وطن يهودي فيها، أن يجد حلا لمشكل مياه بنغازي غير أن البعثة عجلت برحيلها من برقة ولم تستطع تلبية طلب الحكومة التركية.

وقام بنك روما إلى جانب شراء الأراضي، بشراء ما يقارب الخمسة عشر ألف رأس من الأغنام لاستغلالها وفقاً للطرق التقليدية المتبعة ومنافسة الوطنيين في هذا المجال الحيوي بالنسبة لهم.

وكان الغرض من شراء هذه الأغنام سياسيًا أيضًا حيث قام البنك بتوزيعها على بعض مشائخ القبائل والأفراد لتربيتها واقتسام نتاجها وكانت عملية شراء هذه الأغنام عبارة عن صفقة خاسرة لم يحقق منها البنك لا الكسب الاقتصادي ولا السياسي اللذين توخاهما، وقد صدر بعض هذه الأغنام إلى مصر ولم يسترد البنك رأسماله ولم يحصل على الفائدة. وكتب الصحافي الفرنسي ريموند في هذا الصدد: " قام فرع بنك روما ببنغازي بمنح البادية قطعانا من الأغنام مشترطاً عليهم قسمة الإنتاج وفقاً للعادات المحلية، غير أنه عندما انتهي العام، تقدم البادية الذين تحصلوا على الأغنام إلى البنك ومعهم آذان الأغنام التي أكلها الذئب أو ماتت بالطاعون"(88).

لم يجن البنك من مشاريعه الزراعية في ليبيا سوى الخسائر وكثرة القضايا وعداء الناس له. وقد تبخرت الأوهام في تأسيس مستعمرات استيطانية للمعمرين الإيطاليين الذين لم يصلوا البلاد إلا بعد أكثر من عشرين عاماً بعد انتهاء المقاومة المسلحة، ولم تستطع المزرعة النموذجية، التي أسسها البنك في القوارشة أن تحقق أغراضها، وقد أهملت بعد الغزو بسبب

(88) ريموند ص269.

قلـــة المياه وملوحيتها، ولم يصل أول معمر إليها إلا في عام 1923، أي بعد مرور اثني عشرة سنة على الاحتلال الإيطالي وشراء بنك روما للأراضي. ووصـــل عدد المعمرين الإيطاليين في برقة في ذلك العام 13 عائلة لا غير يملكـــون 630 هكـــتاراً من الأراضي فقط بعد أن كانت إيطاليا تحلم بإرسال ملايين المعمرين إلى ليبيا [89]. ولم تستطع إيطاليا طيلة العشرين سنة الأولى مـــن استعمارها في ليبيا أن تحقق مخططاتها الاستعمارية والاستيطانية التي توخـــتها مـــن احـــتلالها لليبيا، ولم يستطع بنك روما من الاستفادة من آلاف الهكـــتارات مـــن الأراضـــي التي اشتراها في ليبيا ولم تفده بشيء أو تحقق الأهداف التي من أجلها اشتراها البنك والتي تسببت في صراع مستمر ما بين الحكومتين التركية والإيطالية.

★★ النشاط الصناعي

عرفـــت طرابلس، قبل مجيء بنك روما، صناعات محلية كثيرة كانت تستوعب الآلاف من الأيدى العاملة وتسد حاجة البلاد، وكانت صناعة النسيج فـــي مقدمـــة هـــذه الصـــناعات وكانت تقوم بإنتاج ملابس النساء الحريرية والقطنـــية وملابـــس الرجال الصوفية. وقد كان هناك، قبيل الغزو الإيطالي، قـــرابة 1700 نـــول يدوي في طرابلس و 45 في بنغازي و 100 في درنة لإنتاج أردية النساء القطنية.

وكانـــت طرابلس وحدها تنتج من أردية النساء القطنية 250 ألف رداء فـــي الســـنة، كـــان 75% مـــنها يستهلك محلياً والباقي يصدر إلى بنغازي وتونس[90].

أمـــا فيما يتعلق بصناعة الصوف فقد كان بطرابلس 350 نولاً لملابس

(89) جان ديبوا ـ الاستعمار الإيطالي في ليبيا ـ الترجمة العربية طرابلس 1967 ص 427.

(90) أ. كاكيا ـ ليبيا خلال الأتلال العثماني الثاني ـ دار الفرجاني ـ طرابلس 1975 ـ ص 108 ـ 109

الـــرجال الصـــوفية و 250 نولاً في مصراته و30 في بنغازي. وإلى جانب الصـــوف والقطن فقد اشتهرت طرابلس بصناعة أردية النساء الثمينة الموشاة بأسلاك الذهب والفضة، منها 150 نولاً في طرابلس، وعدد قليل من الأنوال في بنغازي ودرنة. واشتهرت مصراته بصناعة الكليم بكميات ملحوظة وكان يصدر إلى جميع أنحاء ليبيا وإلى مصر والتشاد والنيجر وغيرها، ويقدر عدد مـــا كانـــت تنتجه مصراته سنوياً بسبعة آلاف قطعة تقريباً قيمتها الإجمالية عشرون ألف ليرة تركية [91].

وكانت صناعة الحصيرة والذهب والفضة وتطريز الجلد والمخمل من الصناعات المعروفة في طرابلس. وكانت مصنوعات الذهب والفضة تصدر إلى مصر وتونس وبنغازي، وصناعة الدباغة كانت من الصناعات التي توفر العمـــل للعديد من العمال ويقدر إنتاجها بما يزيد على سبعين ألف قطعة في العـــام يقدر ثمنها بأكثر من 240 آلف فرنك فرنسي [92]. وصناعة الصابون يقـــدر إنـــتاجها فـــي العـــام بمائة وثمانين طناً، وكان هناك صناعات أخرى كمعاصـــر زيـــت الزيـــتون ومعالجـــة ريـــش النعام والإسفنج وغيرها من الصناعات الأخرى كصناعة الفخار والجلود والسروج.

وكانت مبادرات بنك روما الصناعية التي أراد إنعاش الاقتصاد الليبي مـــن خلالها تنحصر في الاستيلاء على الصناعات المحلية وتطويرها لحسابه أو خلق مثيلات لها بحيث تنافسها وتقضي عليها. وأكد هذا التصرف الدكتور إنساباتو، الذي جاء ذكره سابقاً حيث جاء في تقريره الذي أرسله من بنغازي إلى رئيس الوزراء جوليتي في صيف عام 1911 ما يلي :

"إن المصـــرف يحـــاول القيام بجميع المبادرات والاستيلاء على كافة

(91) أ. كاكيا ـ ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني، السالف الذكر ص 114

(92) محمد ناجي ـ طرابلس غرب ـ المذكور ص 49.

المؤسسات ونهب جميع المشاريع، واستهلت مبادرته في المقام الأول امتصاص التجارة الصغيرة وهدم المؤسسات المتواضعة سواء كانت مملوكة لعرب أم لإيطاليين. وعندما يتجه التاجر الصغير إلى بنك روما طالباً المساعدة يبادر المصرف بالرفض أولاً ثم يقترح على التاجر الصغير أن يبيعه مؤسسته، وإذا ما رفض يعمد البنك إلى إنشاء مؤسسة مماثلة بما في ذلك من ضياع أو إفلاس التاجر الصغير"[93].

وقام البنك في الأربع سنوات التي عمل فيها في ليبيا بالعديد من المبادرات الصناعية بصورة مستعجلة مرتجلة دون دراسة الجدوى وفوائد المشروع بالنسبة لليبيين وللبنك على السواء، وكان يحاول الاستئثار بمعظم المشاريع الاقتصادية التي كانت البلاد في حاجة إليها أو التي كان الوطنيون يفكرون في القيام بها بمفردهم أو بالمشاركة مع شركات أجنبية، وذلك بغرض الحيلولة دون أية دولة أخرى من القيام بأي نشاط في ليبيا. وسنحاول فيما يلي استعراض المشاريع الصناعية التي قام بها البنك في طرابلس، في حين أنه لم يقم بأي مشروع صناعي في بنغازي حيث اكتفي فيها بالنشاط الزراعي والرعوي وتهيئة الأراضي لاستقبال المعمرين الإيطاليين.

★★ المطاحن

لازمت البنك منذ بداية أعماله في طرابلس فكرة إنشاء مطحن غلال ضخم في طرابلس يبهر الليبيين ويشعرهم بقدرة البنك علي تحقيق المشاريع التي تحتاجها البلاد، مهما ارتفعت تكاليفها. وكانت طرابلس في حاجة إلى مطحن حديث ويقدر أن 90% من سكان الدواخل يعتمدون على الشعير في حين كان يستهلك سكان السواحل القمح والشعير والدقيق المستورد. وكانت بالبلاد طواحين صغيرة تديرها الإبل وتعوّد سكان السواحل على طحن غلالهم فيها.

---

(93) ك. بورشيناري ـ العلاقات الليبية – الإيطالية المذكور ص 160.

وقد اشتري البنك قطعة أرض مساحتها 3525 متراً مربعاً وشرع في بـــناء مطحـــن حديث مجهز بأحدث الآلات بلغت تكاليفه مليون ليرة إيطالية، وكـــان يعتبر من أحدث المطاحن التي عرفتها إيطاليا في تلك الفترة، وقدرت قدرتـــه الإنتاجـــية ما بين خمسمائة وألف قنطار من الغلال في اليوم. وأفتتح المطحن يوم 16 – 8 – 1910، وكانت توقعات البنك أن هذا العمل الضخم سوف يحدث هزّة في طرابلس ويدفع الناس دون تردد إلى الاستفادة من هذا المصـــنع الحديـــث بـــدلاً من الطواحين البدائية، وكان البنك يؤمل أيضا في تصدير الفائض من إنتاجه. غير أن النتائج كانت مخيبة للآمال حيث اقتصر إنتاج المطحن على بضعة قناطير من الحبوب في اليوم لا تستطيع أن تحقق أي مردود يتناسب ورأس المال الكبير الذي أنفق فيه". وقد واجهت الطاحونة صـــعوبات وبـــطء في الأشهر الأولى من حياتها وكانت هناك تحفظات، من جهـــة أخـــرى، مـــن قبل الذين كانوا يؤكدون أن المليون الذي أنفق في بناء المطحـــن لـــن يجد مردوداً كافياً" [94]. ومن المعتقد أن إنشاء الطاحونة كان يهـــدف بالدرجـــة الأولـــي إلى الدعاية لعمل إيطاليا الحضاري لصالح ليبيا والاســـتفادة مـــن المطحن بصورة رئيسية بعد الغزو لسد حاجة الجيش إلى كمـــيات ضخمة من الدقيق. وهذا ما حدث بالفعل بعد الغزو، ويبدو أن البنك كـــان يملـــك مطحنا آخر متواضع، وقد جاء في تقرير الجمعية العامة للبنك بـــتاريخ 15-4 – 1907: "سنشيد في طرابلس قريباً مطحناً يتفق واحتياجات البلاد وسيكون أول مطحن أسطواني ينشأ في طرابلس، أما المصنع الحجري الـــذي نملكه الآن في طرابلس سنعمل على نقله إلى الخمس أو بنغازي" [95]. ويبدو أن البنك اشتري هذا المطحن القديم وأسند تشغيله إلى أحد عملائه.

---

(94) أ. داليساندور ـ السابق الذكر ص. 111.

(95) أ. د. اليساندرو ـ بنك روما والحرب في ليبيا المذكور ص 497 .

★★ معاصر الزيت

تأسست في طرابلس عام 1907 مؤسسة إيطالية للزيوت شارك فيها بنك روما والمهندس الإيطالي بالداري BALDARI، وذلك للعمل في مجال الزيوت الليبية. وقامت المؤسسة بإنشاء معاصر للزيوت في الخمس ومسلاته وزليتن، وقررت عام 1910 إنشاء معصرة كبيرة في طرابلس لاستخراج الزيت بالطريقة السلفورية – وبذل البنك جهداً في الحصول على الأرض المناسبه لبناء المعصرة التي زودت بأحدث الآلات لعصر الزيتون، كما أنشأ إلى جانب المعصرة مصنعاً لإنتاج الصابون يعمل بالبخار. وكان الزيت المستخرج من المصنع جيداً، غير أن تكاليف استخراجه كانت مرتفعة وأسعار بيعه كانت لا تستطيع أن تنافس أسعار الزيت الذي كانت تنتجه المعاصر التقليدية. وكانت قلة من الناس المقتدرة اقتصاديا في استطاعتها شراء إنتاج المعصرة وتقدير مزاياه ودفع الثمن المرتفع، أما بقية الناس فظلت تستعمل الزيت الذي تعودوا عليه. وكانت فكرة البنك أن المعصرة الحديثة التي أنشأها والتي كانت تنتج زيتاً جيداً، سوف تكتسح المعاصر القديمة التقليدية ويتمكن البنك بذلك من السيطرة على صناعة الزيت في قطر الطرابلس. وعزى البنك سبب فشل معاصره إلى عرقلة الحكومة التركية التي حرضت الناس على عدم بيع محاصيلهم إلى معاصر البنك، الأمر الذي دفع به إلى رفع أسعار الشراء أكثر من أسعار السوق السائدة، وازدادت بذلك تكاليف الإنتاج وارتفعت أسعار المبيع.

الخطأ الأساسي يكمن في عدم قيام البنك بدراسة جدوى دقيقة لمشاريعه ودراسة وضع السوق وقوة الليبيين الشرائية في تلك الفترة. لقد كان البنك في عجلة من أمره ويسترشد بنصائح المنتفعين المحيطين به، ولم يأخذ في الحسبان معارضة الليبيين لوجوده ولمشاريعه. وقدرت كميات الزيت المنتج

محلـــياً بأيدي المواطنين في تلك الفترة بما يتراوح ما بين إحدى عشر وثلاثة عشـــر قـــنطارًا من الزيت الذي كان بالطبع لا يفي بحاجة السكان، فقد كان الزيـــت يســـتورد مـــن تونس وكريت [96]، غير أن الإيطاليين قدروا إنتاج الزيـــتون عـــام 1910 بستين ألف قنطار[97]، ولم تستطع إيطاليا طيلة فترة احـــتلالها أن تؤمـــن لليبـــيا اكتفاءها الذاتي من الزيت وظل الزيت الإيطالي الأكثر رواجاً.

** صناعة الثلج

لـــم تعرف طرابلس في أواخر العهد التركي الثلج والمبردات رغم أنها ســـهلة الإنتاج ولا تتطلب رؤوس أموال كبيرة. وتعود السكان، عندما ترتفع درجـــة الحرارة ويشتد القيظ، أن يستعينوا بالوسائل التقليدية المبردة كالجرار وغـــيرها، وعـــندما حل بنك روما بطرابلس اكتشف حاجة الناس إلى الثلج فأنشـــأ مصنعاً صغيراً في طرابلس لإنتاج الثلج وتوزيعه. ومن الطبيعي أن يقبل سكان المدينة على شرائه والتمتع بالمياه والمشربات الباردة، ولم تتردد بلدية طرابلس في منح البنك امتيازا بإنتاج الثلج في طرابلس، وهذا دليل آخر علـــى أن الســـلطة المحلـــية لم تكن تعادي البنك أو تعرقل أعماله كما يدعي الإيطاليون، إذا كانت في صالح البلد.

** صناعة الحلفاء

اســـتعملت بريطانيا الحلفاء في الصناعة الورقية في النصف الأول من القـــرن التاســـع عشـــر، وبـــدأ تصدير الحلفاء من طرابلس في عام 1868 وتزايدت كميات التصدير حتى وصلت ستين وسبعين ألف طن في العام. وقد

(96) محمد ناجي ـ طرابلس غرب ـ السابق الذكر ص 23.

(97) ف كورو ـ ليبيا أثناء العهد العثماني ترجمة خليفة التليسي ـ طرابلس 1984ـ ص 94.

تـــراوح ثمن الطن الواحد ما بين 55 و 65 شلناً، وفتحت عملية جمع الحلفاء ونقلهـــا وتصديرها باب العمل لآلاف الليبيين، وكان أجر العامل 26 ليرة في اليوم وهو مبلغ جيد في ذلك الوقت [98]. وكان جميع إنتاج الحلفاء يصدر إلى بريطانـــيا لـــتغذية مصانع الورق فيها إلا أن الإنتاج بدأ يضعف في المناطق الســـاحلية بســـبب عـــدم مراعاة الطريقة الفنية في جمع المنتوج دون إلحاق الضـــرر بالشـــجرة، إلا أن الحلفـــاء كانـــت موجودة بوفرة في الجبل، وقد ازدهرت هذه الصناعة في ليبيا خلال الثلاثة عقود الأخيرة من القرن التاسع عشـــر، ثـــم بدا الطلب على الحلفاء في الهبوط بسبب منافسة تونس والسويد للحلفاء الليبية، وبعد أن بدأت المصانع البريطانية في استعمال المواد الخشبية في إنتاج الورق وكون تصدير الحلفاء مصدراً هاماً للدخل في طرابلس.

وعـــند مـــا بـــدأ بنك روما نشاطه في ليبيا، كانت صادرات الحلفاء لا تـــتجاوز 25 ألـــف طـــن فـــي العام وقد أدخل البنك صناعة الحلفاء ضمن مشـــاريعه، وعمـــل على تصديرها إلى إيطاليا حيث أجريت عليها التجارب وإمكانـــية استعمالها في صناعة الورق الإيطالية. واستورد البنك آلات كبس حديـــثة وأنشـــأ مركـــزا لشراء الحلفاء ومعالجتها وكبسها، ثم تصديرها إلى إيطالـــيا وبريطانـــيا. وقـــام بـــنك روما بمحاولة تصنيع الورق في طرابلس والاستغناء عن تصدير الحلفاء غير أن التجربة فشلت لعدة أسباب فنية.

وظلـــت الحلفـــاء، فـــي العهد الإيطالي، تصدّر بكميات متواضعة إلى إيطاليا في حين توقف تصديرها إلى بريطانيا.

** الطـباعـــة

أراد بنك روما في طرابلس أن يكون لـــه إعلام وصحافة ولسان حال ومطبعة خاصة به، كما ولو أنه كان دولة داخل الدولة. وقد استورد مطبعة

(98) ف. كورو- ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني السالف الذكر ص 83.

حديثة الصنع لاستعمالها في أغراضه التجارية والسياسية ولم تعرف طرابلس طيلة الحكم التركي إلا مطبعة الولاية التي تأسست عام 1870 والتي ظلت تحتكر ساحة الطباعة في كل ليبيا على ما يقارب الأربعين عاماً. وتغيّر الوضع بعد إعلان الدستور عام 1908 فارتفع عدد المطابع من واحدة إلى خمس مطابع، اثنان عربيتان وهما مطبعة الولاية ومطبعة الترقي، ومطبعة أربيب اليهودي المتجنس بالجنسية الإيطالية، وكانت تقوم بطبع الصحيفة الإيطالية TRIPOLI DI GIORNALE "جريدة طرابلس"، ومطبعة "فنون الطباعة" ARTIGRAFICHE التي أسسها بنك روما والتي كانت تقوم بطباعة جريدته "صدى طرابلس" TRIPOLI DI ECO الناطقة باسم البنك والتي كانت تصدر باللغة الإيطالية. وكانت مطبعة البنك تستعمل أيضا في الأغراض التجارية، كما كان للبنك بعض الصحف في إيطاليا لتخدم أغراضه وتوجهاته.

أما المطبعة الليبية الخامسة فقد كانت المطبعة الشرقية لصاحبها اليهودي تشوبه، وكانت تقوم بطبع بعض الصحف العربية. والغريب أن تصدر صحيفتان إيطاليتان في بلد لا يزيد فيه عدد الجالية الإيطالية عن ألف نسمة، أغلبهم أنصاف أميين. أما بنغازي فلم تعرف طيلة الحكم التركي لا مطابع ولا مطبوعات وصدرت بها أول صحيفة باللغة العربية عام 1924، وهي صحيفة "بريد برقة".

★★ صيد الإسفنج

صناعة الإسفنج صناعة قديمة ومعروفة في ليبيا وكوّنت دائماً مصدراً من مصادر دخل البلاد الهامة، واشتهر ساحل برقة بوفرة وجودة إسفنجه، ويعتبر الإسفنج البرقاوى من أجود أنواع الإسفنج في العالم. وقد تخصص اليونانيون منذ عرف الإسفنج بعمليات الغوص في قاع البحر

والبحـــث عنه وكانت مئات الزوارق اليونانية تأتي كل عام في موسم صيد الإسفنج إلى طرابلس وبنغازي، للحصول على أذن الصيد. ويجمع الإسفنج المصـــطاد فـــي أماكن معينة لإجراء المعالجة الأولية عليه، ثم يصدر إلى أوربـــا حيـــث يعـــالج بصـــورة كاملة، ثم يعد للبيع ويبلغ ثمن القنطار من الإسفنج ما بين 15 و 50 ليرة وفقاً لنوعيته، وكان دخل البلاد من الإسفنج في العام مليون ونصف ليرة[99].

شمل نشاط بنك روما حتى صناعة الإسفنج وشرع في منافسة العاملين فـــي هـــذا المجـــال وإنشـــاء مركز لتجميع الإسفنج والقيام بمعالجته الأولية وتصـــديره، وكـــان يرمي إلى احتكار هذه الصناعة كغيرها بفضل إمكانياته واستعداده الفني.

★ الـمنتوجات الأفريقية

كانـــت تجارة القوافل مع السودان أهم نشاط اقتصادي عرفته ليبيا في النصـــف الثاني من القرن التاسع عشر، وقد بدأت هذه التجارة تتضاءل لعدة أســـباب معـــروفة، وكانت في حالة احتضار عندما بدأ بنك روما نشاطه في ليبـــيا، غـــير أنـــه مع ذلك أراد أن يقوم بعملية معالجة العاج وريش النعام والجلـــود الـــواردة من أواسط أفريقيا، بصورة كاملة وإعدادها للتصدير إلى أوربا ومنافسة القائمين بها منذ زمن طويل.

★★ الـمعـــادن

كان المنادون باحتلال ليبيا من القوميين وغيرهم ينشرون في الصحف المحلـــية معلومـــات وأرقام خيالية عن ثروات ليبيا الزراعية وعن خصوبة أرضـــها، وغـــزارة مـــياهها، وتنوّع إنتاجها وكثرة حيواناتها، وتعدد أنواع

---

(99) ف. كورو ـ المصدر سالف الذكر ص 57.

المعـــادن المدفونـــة في باطنها بما في ذلك الحديد والذهب والفضة. ووالت الصـــحافة الإيطالـــية الضرب على هذا الوتر، والحديث عن عرقلة الحكومة التركية للنشاط الإيطالي، وسوء معاملة الجالية الإيطالية، وتكالب الدول على الحصـــول على امتيازات معدنية تضر ولا شك بالمصالح الإيطالية. وأثرت هـــذه الحملـــة فـــي المواطـــن الإيطالي العادي الذي أخذ يلوم حكومته على تقاعسها وترددها في احتلال ليبيا.

وكانـــت مـــناجم الكبريـــت الليبـــية المزعومة من المبررات الرئيسية لاحتلال ليبيا، فأشادت الصحف الإيطالية بالمناجم الليبية وضخامتها وأشارت إلـــى خطـــرها على مناجم كبريت صقلية إذا ما وقعت هذه المناجم في أيدي غير إيطالية ونافست الكبريت الصقلي.

والكبريـــت نـــال ضجة في الصحافة والمحافل الإيطالية وخطره على كبريـــت صقلية، فهذا الكبريت لا وجود لـــه في ليبيا إطلاقا، والموجود منه عـــبارة عـــن مســـتنقعات بالقرب من العقيلة كان يطفح على سطحها بعض الكبريـــت، وكان العرب يقصدونها لمعالجة إبلهم المصابة بالجرب، ولم تكن لهذا الكبريت أية قيمة اقتصادية. وكتب المؤرخ مالطيزي يقول: إن موضوع الكبريت الذي أثيرت حوله ضجة كبيرة الذي هو في الواقع لا وجود لـــه في ليبيا، يلقي الضوء على الأساليب التي لجأ إليها المطالبون باحتلال ليبيا، الذين كانوا يتقبلون الإشاعات والأقوال دون تحرٍّ أو تعمق مثلما ذكر الكاتب "جانو" الـــذي لم يستند على تحليل من الخبراء ثم اتضح فيما بعد أن كل ما كتبه عن ليبيا لا أساس لـــه من الصحة. وقد استمر هؤلاء الناس في الحديث عن هذه المواضـــيع بصـــورة روتينية مملة حتى نجحوا في دفع الرأي العام الإيطالي إلـــى تقبل الأخبار والأرقام التي كانوا يقدمونها لـــه، والتي كانت في الحقيقة عبارة عن خرافات. وحتى ولو فرضنا أن هناك مناجم كبيرة من الكبريت في ليبيا، فإن الاستيلاء عليها لن يضيف إلى إيطاليا مصدر ثروة جديد أو يحول

دون منافســة خطيرة لكبريت صقلية، فمن المعلوم أنه منذ عام 1906 أخذت مبــيعات الكبريــت الإيطالــي في الهبوط بسبب تطور الإنتاج في الولايات المــتحدة الأمريكية، وانخفاض الأسعار بالنسبة لكبريت صقلية. وقد أدت هذه المنافســة الأميركــية إلى خفض الصادرات الإيطالية من مائة ألف طن في العام إلى 84 ألف طن عام 1910، وبلغ المخزون من الكبريت الصقلي عام 1911 640.700 طن لا توجد أسواق لتصريفها [100]. ولم تتوقف المبالغات في أهمية الكبريت الليبي، فقد كتب السياسي المعروف أندرياتوري يقول: "إن مناجم الكبريت في طرابلس تمتد آلاف الكيلومترات"[101].

وبعد الكبريت جاء دور الفوسفات الموجود بكميات كبيرة في الخمس وفــي مواقع أخرى، والاستشهاد بادعاءات باطلة لا صحة لها عن وجوده بكــثرة فــي ليبــيا. وكــان الدليل على وجود الفوسفات القول بأن طبيعة الأراضي الليبية وتكوينها الجيولوجي مطابق للطبيعة وللتكوين الجيولوجي للأراضــي التونســية التي يكثر فيها الفوسفات. وكونت فكرة حصول دولة أوربــية على امتياز استغلال المعادن في ليبيا كابوساً مزعجاً بالنسبة لبنك روما والحكومة الإيطالية.

وأراد بــنك روما أن لا يتخلف عن سباق البحث عن المعادن، فطلب مــن رومــا إرسال بعثة علمية لهذا الغرض، ووصلت البعثة إلى طرابلس وكــان يترأســها المهندس سفورزا، ودست الحكومة الإيطالية بين أعضاء البعــثة عــددا من العسكريين لوضع الخرائط وجمع المعلومات. وتوجهت البعثة إلى الدواخل بعد حصولها على التصريح، إلا أنها أسرها المجاهدون بعد بداية الغزو.

---

(100) باولو مالطيزي ـ أرض الميعاد، السابق الذكر ص. 18

(101) ANDREA TORRG CORRIERE DELLA SERA – MILANO- 15-9-1911.

** الشركة الثنائية

وأشيع في طرابلس في تلك الفترة أن شركة فرنسية عثرت على مناجم فوسفات في طرابلس، فأسرع مدير فرع بنك روما بطرابلس، الحريص على عـدم تمكين الرأسمال الفرنسي من العمل في ليبيا، فدخل في مفاوضات مع الشركة الفرنسية من أجل استغلال المعادن الليبية بالمشاركة ما بين الطرفين، وتوصل البنك إلى اتفاق مع الجانب الفرنسي جاء فيه:

" بعـد الاتفاق على وضع خطة عمل عامة فإن الجانبين يتعهدان ببذل المسـاعي والاتصـالات المفـيدة لـدى الحكومة العثمانية ولدى الحكومتين الإيطالـية والفرنسـية لتسهيل الحصول على امتياز صحيح لاستغلال مناجم الفوسـفات فـي طـرابلس وإعـداد السكة الحديدية والمواني المرتبطة بهذا الامتـياز. جميع الفوائد مهما كانت طبيعتها الناتجة عن الإستغلال أو التنازل عـن الحقوق بالكامل أو بجزء منها بما في ذلك احتمال تحويل هذه الحقوق إلـى شـركة مسـاهمة، يجب أن تقسم بيننا مناصفة وفي حالة تكوين شركة مسـاهمة لاستغلال الفوسفات أو غيره من المعادن، فمن المفهوم أن خمسين في المائة من رأس المال الاجتماعي، سواء المدفوع منه أو المعلن، يجب أن يخصـص لمجموعتنا وأن نصف أعضاء مجلس الإدارة على الأقل يجب أن يكونـوا مـن الإيطاليين. وبالنظر إلى الأهمية التي تعلقها الحكومة الإيطالية علـى الوجـود الإيطالـي بطـرابلس، فأن الشركة إذا قامت خارج عملية الفوسـفات بإنشاء سكة حديد أو ميناء في طرابلس، او غيرها، فإن المساهمة المخصصـة لمجموعتنا يجب أن تكون ستين في المائة على الأقل وأن يكون أكـثرية أعضـاء مجلس الإدارة من الإيطاليين، ومع العلم أنه حتى في هذه الحالة فالأرباح الناتجة عن هذا العمل ستكون مناصفة بين الطرفين" [102].

(102) RENATO MORI : LA PENETRAZIONE PACIFICA ITALIANA IN LIBIA E IL BANCO DI ROMA. RIV. DI STUDI INT. ROMA 1957, p. 111.

لا ثمة شك في أن قبول بنك روما المشاركة مع شركة فرنسية لمجرد إشـــاعة أنها عثرت على الفوسفات في ليبيا لدليل على عجز إيطاليا عن إبعاد الدول الأخرى عن العمل في ليبيا، والتخلي في نفس الوقت عن الإدعاء بأن إيطالــيا لهـــا الحـــق وحدهـــا في القيام بمبادرات اقتصادية في ليبيا بموجب اعــتراف الـــدول بهـــذا الحق. وتناست إيطاليا أن بعض الدول الأوربية لها اتفاقــيات تجاريـــة مـــع تركيا لا تزال سارية المفعول، وأن تركيا لا تزال صـــاحبة الســـيادة على ليبيا ومن حقها أن تتعاقد مع من تشاء، كما أن الدول الأوربية عندما وافقت على إطلاق يد إيطاليا لم تتعهد بمنع رعاياها من العمل فـــي ليبيا وظلت إيطاليا لسنوات عديدة تضطرب وتنزعج، وتتشنج صحافتها ويعقد برلمانها لأقل إشاعة عن قيام أية دولة أوربية بأي عمل في ليبيا، وبلغ الأمـــر بـــوزارة الخارجية الإيطالية أن وجهت اللوم رسميا لحليفتيها ألمانيا والنمسا للسماح لرعاياهما بالعمل في ليبيا. وطلب وزير خارجية إيطاليا من ســـفيره بأنقرة، بالإضافة إلى ألمانيا والنمسا، أن يتصل بدول أوربية أخرى ويطلـــب منها إبعاد رعاياها عن العمل في ليبيا وعدم منافسة الإيطاليين[103]. وكـــان ســـفير إيطاليا في أنقرة أكثر تعقلا من وزيره حيث رد عليه برسالة صريحة جاء فيها:

"**أولا:** إن المبادرات الصناعية وغيرها التي تشجعها السلطات التركية، تكـــوّن بـــدون شـــك ضرراً على وضعنا السياسي والاقتصادي في طرابلس وبرقة وقد تخلق، مع مرور الزمن، وضعاً معاكساً لطموحاتنا في المستقبل.

ثانـــياً: لا نملـــك الوســـيلة لمنع الرعايا الأجانب من القيام بأعمال في طرابلس.

ثالـــثاً: لا نملك أية وسيلة لمنع الأتراك من تشجيع المبادرات الأجنبية

(103) أ. داليساندرو المصدر السالف الذكر ص 429 (499) .

الضارة بالنشاط الإيطالي فالحكومة التركية تمارس حقها المقدس في مقاومة التغلغل الإيطالي الذي لا تخشى غيره.

رابعــاً: كلمــا ازداد تأخــر الحــل المنطقي للمسألة ازدادت الصعاب وصعب حلها."

وكــان دى مارتيــنو القــائم بأعمال السفارة الإيطالية باستانبول، من المحبذيــن للعمل العسكري السريع كغيره من غلاة الاستعماريين الذين كانوا يؤمنون بأن العمل العسكري وحده يؤمن لإيطاليا تحقيق مطامعها (104).

ووجد البنك نفسه بين عرقلة السلطات التركية ومنافسة الدول الأجنبية، فــنظر للوضع من زاوية مصالحه وقرر التعاون مع الشركات الأوربية التي لهــا مصـــالح في ليبيا. و عقدت أول مشاركة مع شركة فرنسية، كما سبق وذكرنا، واقتنعت الحكومة الإيطالية أن الباب العالي لن يمنح امتياز استغلال معادن في ليبيا لدولة واحدة وخاصة إيطاليا. وقد دفعت هذه القناعة من جهة، والخشــية من حصول دول أخرى على الامتياز، من جهة أخرى، بمدير بنك رومــا بتكويــن شركة متعددة الجنسيات تستطيع الحصول على الامتياز من الحكومة التركية لاستغلال معادن ليبيا بدون صعوبة. وأسس بذلك بنك روما شــركة ثنائــية مــع الشركة الفرنسية التي اتضح فيما بعد أنها لم تعثر على الفوسفات وأن الخبر كان مجرد إشاعة.

★ الشركة الرباعية

خشــى بــنك رومــا أن الحكومة التركية قد لا تمنح الامتياز للشركة الإيطالية-الفرنسية، وحتى في حالة منح الامتياز فإن الجانب الإيطالي كان لا يحبذ استيلاء الطرف الفرنسي على نصف خيرات المعادن الليبية، واستحسن

(104) ر. موري – المصدر السابق ص 116.

شراكة طرف آخر يزيد من أهمية الشركة ويجعل من الصعب على الحكومة التركية رفض الامتياز، وتزداد بدون شك عوامل النجاح إذا كان الطرف الثالث فرعاً من فروع الإمبراطورية العثمانية.

وسافر مدير البنك بريشاني إلى القاهرة في شهر إبريل 1910 للبحث عن الشريك الثالث المصري الذي لا تستطيع تركيا رفض طلبه، وبدلا من العثور على رجال مصريين يقبلون المساهمة في الشركة، فقد وجد خديوي مصر عباس حلمي يبدي اهتمامه بنشاط بنك روما في ليبيا، ويعرب عن رغبته في المشاركة في مثل هذه النشاطات الاقتصادية المفيدة للبلاد. وأشعر البنك الحكومة الإيطالية باستعداد الخديوي للمساهمة في الشركة، فطلبت منه روما أن تكون مساهمة الخديوي مقتصرة على إنشاء السكة الحديدية الساحلية واستغلال معادن الفوسفات بالخمس. وكان مدير البنك غير مرتاح لثقل المساهمة الفرنسية وتأثيرها، فاقترح على روما قبول مساهمة الخديوي غير المحدودة، لأنه أكد له أن الحكومة التركية وعدته بالحصول على امتياز المعادن وتكوين شركة طرابلسية تعمل باسم الشركة الإيطالية المصرية وتشارك في الأرباح، وهذه الطريقة الوحيدة التي لا تستطيع استانبول حيالها رفض منح الامتياز وتتحصل إيطاليا بذلك على أغلبية الأسهم وعلى إدارة المنشأة بدفع قيمة الأسهم ونفقات التنقيب للمجموعتين الطرابلسية والمصرية في حالة عجزهما عن توفير المال اللازم لذلك. ويبدو أن تشكيل شركة طرابلسية وجدت استحساناً لدى والى طرابلس حسن حسني باعتبارها بداية طيبة لمشاركة الطرابلسيين في مثل هذه النشاطات. وتكونت الشركة الطرابلسية من ستة أشخاص من بين الأعيان والتجار برئاسة السيد مصطفى ابن زكري وعضوية كل من محمد الشريف وقاسم نظام والشريف محمد قنابه وخالد كربانه وفوتي حاجة.

وتم التوقيع على عقد الشركة الرباعية بعد انضمام الشركة الطرابلسية

إلـــى الشـــركة الإيطالية الفرنسية المصرية، وأصبحت بذلك الشركة الجديدة تتكون من ثلاث مجموعات أي من ثلاث دول أجنبية وواحدة ليبية.

ونصـــت اتفاقية الشركة الرباعية على أن مهمتها البحث عن المعادن في طرابلس والفوسفات بصورة خاصة وبناء السكة الحديدية واحتمال بناء ميناء المرتبطة باستغلال المعادن التي يتم اكتشافها. ونصت الاتفاقية، فيما يتعلق بوضع المجموعة الطرابلسية، على تعهد المجموعات الثلاث الأخرى بـــأن لا تســـعى إلـــى الحصـــول علـــي امتياز معدني آخر إلا عن طريق المجموعة الطربلسية.

ونصت المادة السادسة على أن تطوير نتائج الأبحاث ستقوم به الثلاث مجموعـــات الإيطالية والفرنسية والمصرية وذلك عن طريق بيع الامتيازات المتحصـــل عليها وذلك بتأسيس شركات مساهمة لاستغلال المناجم أو لتنفيذ الأعمال المرتبطة بها كبناء الموانى وإنشاء السكك الحديدية، وفي هذه الحالة يجب استشارة المجموعة العربية التي لا يتخذ العمل صورته النهائية إلا بعد موافقـــتها. وعمـــل والـــي طـــرابلس على تسهيل سفر عضوين من الشركة الرباعية وهما مصطفى بن زكري وآخر للتصديق على عقد الشركة والتقدم بطلب الحصول على الامتياز.

وعلقت الشركة آمالاً كبيرة على استجابة استانبول لطلبها ومنح الشركة الامتـــياز الـــذي ســـافر عضواها من أجله، غير أن ممثلي الشركة وجدا في اســـتانبول جـــوا معاكســـا ورفضا قاطعا لمنح الامتياز للشركة بسبب وجود عضـــو إيطالـــي بين مؤسسيها. ولم يجد مصطفى بن زكري ورفيقه بدا من العودة إلى طرابلس خاويي الوفاض.

ولم تكن الظروف التي وجدها وفد الشركة الرباعية في استانبول ملائمة ولم يجد من يصغي إليه ولم يحقق المهمة التي سافر من أجلها بل تلقى نصيحة بالعودة إلى طرابلس والتخلي عن المطالبة بعمل ضار بليبيا وشعبها.

وقــد يعــود ســبب التشدد التركي المفاجئ ومعارضة الحكومة التركية للمبادرات الإيطالية، إلى موجة التهديد والتلويح بالحرب والإدعاء بحق إيطاليا فــي ليبيا والتنديد بالإدارة التي أوصلت ليبيا إلى حالة التخلف التي تعاني منها وازداد الــتوتر بين البلدين. وازدادت الحملة الإيطالية حدة بعد استدعاء الوالي حســن حسني المتساهل مع الإيطاليين و إحلال إبراهيم باشا محله الذي طلب مــنه التشــدد فــي وجه المطالب الإيطالية وعرقلة أعمال بنك روما الضارة بالــبلاد. وفشــلت الشــركة الطرابلسية والشركة الرباعية وترددت في روما أصــداء هــذا الفشــل فــتزايد حنقها وعداؤها لتركيا ووجدت الفرصة سانحة للاستعداد للعمل العسكري. انسحبت الشركة الفرنسية من الميدان في شهر مايو 1910 بعــد أن أدركت أنه لا أمل في الحصول على الامتياز بمشاركة إيطاليا وذلــك في وجه منافسة الشركات الفرنسية الأخرى والأمريكية والألمانية التي شجعتها الحكومة التركية على المشاركة في العطاء.

وكانت ردود فعل الليبيين عنيفة على تأسيس الشركة الرباعية واستنكر الــناس ألاعيــب بنك روما وحيله للاستئثار بثروات البلاد واستعانته ببعض الليبييــن الذين انضموا إليه عن حسن نية، باعتبار أنهم يخدمون بلادهم. فلم تكــن الفئات الواعية من الليبيين بغافلة عن نوايا إيطاليا وأهدافها وعما كان يقوم به بنك روما من إعداد وأعمال تمهيدية للغزو والاستعمار الإيطالي، وقد وقفــت هــذه الفئات في وجه مطامع إيطاليا ونشاطات بنك روما رغم الفقر الــذي كــان يطحــن الــناس طحناً ويدفعهم إلى الاقتراض من البنك ورهن عقاراتهم من أجل إطعام أطفالهم. وتفجرت هذه المشاعر بعد تأسيس الشركة الرباعية وعزمها على احتكار ثروات البلاد المعدنية بعد ما احتكر بنك روما الكثير من النشاطات الاقتصادية وسعيه للقيام بأعمال المرافق العامة من مياه وإضــاءة وموانــيء وسكك حديدية ومحاجر وطرق. ولم تخلو ليبيا في تلك الفــترة من تجار متمرسين ورجال أعمال واعين، ومن مفكرين أدركوا منذ

زمـــن أن تقـــاعس الحكومة التركية عن النهوض بالاقتصاد وإصلاح البلاد وتشـــجيع المواطنين على المشاركة في العطاءات هو الذي تسبب في تكالب الشـــركات الأجنبـــية على استغلال خيرات ليبيا وثرواتها الباطنية. ويتساءل المواطـــنون: لمـــاذا بـــناء ميـــناء طرابلس يتسبب في صراع بين الشركات الأجنبـــية فلمـــا لا تتكون شركة وطنية تتعهد ببناء الميناء مستعينة بشركات أجنبـــية لا مطامع لديها في ليبيا؟. وإذا كانت هناك معادن في باطن الأرض فلماذا لا تتحصل شركة وطنية على الامتياز وتستعين بخبرة وقدرات شركات أجنبية تعمل تحت أشرافها ومراقبتها؟ وتمشيًا مع هذه الروح الوطنية الجديدة ورغـــبة الليبييـــن في المساهمة في بناء بلادهم واستغلال خيراتها، فقد تقدم مواطـــنون ليبيون بعريضة إلى الباب العالي وقعها 220 مواطنا جاء فيها ما يلـــي: "يستفاد من الأخبار والبرقيات الصادرة عن روما ومما تكتبه الصحافة الأجنبـــية بأن امتياز بناء طرابلس وإيصال الخطوط الحديدية إلى الدواخل قد مـــنح إلـــى شركة إيطالية وأيد صحة هذا الخبر سفير الدولة العثمانية بروما وبمـــا أن الإيطاليين، الذين يظنون أن لا نصير لنا، نواياهم تجاه هذه الولاية معروفة، فإن منح مثل هذه المشاريع الهامة للشركات الإيطالية يسبب لنا في المســـتقبل الكثـــير من المشاكل، كما يتسبب في أضرار للتجار والرأسماليين المحليين وأننا باسم الصالح العام نرجو تأسيس شركات أهلية برأسمال محلي لتنفيذ المشاريع الهامة المفيدة، وإذ رأت الدولة أن الضرورة توجب الاستعانة برأسمال أجنبي فلا تعطي هذه الامتيازات للبنوك الإيطالية التي تقرض فقراء الناس بشروط مغرية كي تستولي بالتدريج على أراضيهم الزراعية مستهدفة التوسع في التملك لولايتنا كما لا تعطي لأية دولة عظمى بل يجب البحث في هـــذا الشأن عن رأس المال في الدول الصغيرة. ونعرض على دولتنا أننا في ســـبيل التقدم والدفاع عن منافعنا المالية على أهبة لنقدم إلى دولتنا كل أنواع الخدمات المالية والبدنية. لا شك أن التشكيلات الطبيعية لأراضي ولايتنا تنبئ باحـــتوائها على معادن كثيرة وعليه نلتمس بعد أن يجرى الاستكشاف الفني

والـــتأكد من كميات المعادن الموجودة، أن يعقد باسم ولايتنا لضمان ثروتها الطبيعـــية، قرضـــاً لتحقـــيق وتنفـــيذ مـــثل هذه المشروعات النافعة بالأيدي العثمانـــية[105]. إن هـــذه العريضـــة وما تضمنته من أفكار دليل على وعي الليبييـــن فـــي تلـــك الفـــترة وإدراكهـــم لما كان يحاك ضدهم من مؤامرات ومساومات ومطامع، وعزمهم على انتشال بلدهم من التخلف الذي تعيش فيه والســـير بهـــا نحـــو الـــتقدم وتوفير حاجاتها الضرورية من الخدمات العامة وصون ثرواتها الطبيعية من عبث الطامعين.

وتعتبر الفترة الممتدة من عام 1907 حتى 1911 من أهم الفترات التي مرت بها ليبيا خلال الحكم العثماني الذي دام 76 عاماً، فقد بانت نوايا إيطاليا علـــى حقيقـــتها ولم تعد مطامعها خافية على أحد وخاصة بعد بداية تغلغلها الاقتصـــادي والسياسي عن طريق بنك روما الذي فرض نفسه على الحكومة التركـــية وســـلك طريقاً ملتوياً في تصرفاته ومعاملاته، وقد ولد قناعة لدى الليبيين والسلطة المحلية بأنه أداة تمهيد للغزو الذي تخطط لـــه إيطاليا. وقام في هذه الفترة النظام الجديد في تركيا الذي أطاح بالسلطان عبد الحميد وأعلن الدســـتور وبعـــث شعورا في أوربا أن الرجل المريض بدأ يتعافى. واستبشر عـــرب ليبـــيا كغـــيرهم من أبناء الولايات العثمانية، بالدستور وببزوغ فجر الحـــرية والمساواة. واعتقد الكثيرون أن إعلان الدستور إيذانا بأن أفاقاً جديدة من العلم والمعرفة وتحسن الأحوال المعيشية والخدمات والتقدم قد فتحت أمام الليبييـــن. وقد عم البلاد نشاط سياسي غير معروف، فانتخب الليبيون نوابهم فـــي "مجلس المبعوثان" وشاركوا في العمل الحزبي وصدرت صحف جديدة ومجـــلات تعـــبر بحـــرية عـــن وجهـــة النظر الليبية وعن مطالب الليبيين وتوجهـــاتهم. وسيطرت على البلاد روح جديدة، روح الاعتزاز بالوطن في إطـــار الدولـــة العثمانية، وشرعت الصحافة تكتب عن المطامع الإيطالية في

(105) أحمد صدقي الدجاني ـ وثائق السالف الذكر وثيقة 133.

ليبيا وعن بنك روما ومخططاته وكانت صحيفة المرصاد الأكثر شدة في مهاجمة إيطاليا ومساعيها. ونشرت صحيفة الترقي افتتاحية بعنوان "ما أشبه الليلة بالبارحة" هاجمت فيه الاستعمار الأوربي بصورة عامة وكشفت ألاعيبه وأهدافه وتلاعب بريطانيا بحقوق مصر بعد احتلالها. وشنت صحيفة "تعميم حريات" حملة على الوالي حسن حسني لرضوخه لضغط القنصل الإيطالي وإرضاء مطالبه التي تمس كرامة البلاد والدولة - ونشرت المرصاد سلسلة مقالات كشفت فيها عن أهداف إيطاليا ونواياها، وقد عايرت إيطاليا في إحدى مقالاتها بهزيمة عدوه على أيدي الأحباش. وتسبب هذا المقال في غضب إيطاليا وصحافتها وطالبت روما من الباب العالي إغلاق الصحيفة التي تطاولت عليها، وكشفت جرحا يتألم له جميع الإيطاليين. وأخذ صوت الشعب الليبي يرتفع عاليا عن طريق صحافته ليصل إلى أسماع الاستانة وروما وبنك روما لإشعارهم بأن الليبيين هم أصحاب الأرض وهم الرافضون للتوسع الإيطالي وهم المدافعون عن أرضهم ضد أي معتدى. وطلبت الصحف الليبية الصادرة في تلك الفترة السلطة المحلية بالإصلاح وتطوير البلاد حضاريا أسوة بولايات الإمبراطورية الأخرى وشعوب البحر الأبيض المجاورة وانتقدت الصحف الحكومة التركية واتهمتها بالعجز عن تلبية مطالب البلاد الضرورية. وكتبت صحيفة "ابوقشة" مقالاً جاء فيه: "لا نعلم متى ينفخ الله في روح مجلس إدارة طرابلس حتى يصبح مجلسا تدور مذاكرته ومداولاته حول الأمور الإصلاحية لهذه الولاية التي بقيت كالعضو الأشل في جسم الدولة" (106).

وشعرت إيطاليا في تلك الفترة أن الشعب الليبي هو الذي كان يناصبها العداء ويرفض احتلالها وذلك عن طريق صحافته ومواقف رجاله وعداء الناس لبنك روما ومقاطعته في أكثر من مجال. وقد حدث أن الوفد

(106) أحمد صدقي الدجاني، الوثائق - سابق الذكر ص 42.

الطرابلسي الذي زار استطمبول باسم الشركة الرباعية للحصول على امتياز المعـــادن وعاد منها بخفي حنين، عندما وصل ميناء طرابلس رفض البحارة فـــي الميـــناء أن يقدمـــوا لـــه زورقا أو مركبا شراعيا ينقله من الباخرة إلى الرصـــيف وقد نقلوا جميع الركاب إلى الرصيف ما عداه - وبعد تدخل بنك روما و الوالي تمكن من النزول [107].

⋆ خطوط المواصلات البحرية

لـــم تنقطع في القرون الماضية الاتصالات البحرية والعلاقات التجارية مـــا بيـــن الموانيء الليبية والإيطالية، رغم قيام الحروب والصراعات وفي فـــترات الســـلم والاتفاقيات. لقد كانت السفن الإيطالية تطرق معظم المواني الليبية حاملة السلع والمنتوجات التي كان الليبيون في حاجة إليها وكانت تعود وعلى ظهرها الصادرات الليبية من جلود وصوف والدواجن والحديد الخردة والعاج وريش النعام والمصنوعات الأفريقية الواردة من أواسط أفريقيا.

وفـــي بداية القرن العشرين أنشأت إيطاليا خطا ملاحيا أسبوعيا منتظما مـــا بين تونس وطرابلس ورحلات نصف شهرية إلى بنغازي ودرنة. وظلت هـــذه الـــرحلات متواصلة بانتظام وكانت تستوعب كافة أعمال النقل الليبي تقريباً [108].

وعـــندما بـــدأ بـــنك روما أعماله في ليبيا قرر تعزيز النشاط البحري الإيطالـــي على سواحل ليبيا وما بينها وبين المواني الإيطالية للسيطرة على هذا النشاط وانتزاعه من الشركات الأجنبية الأخرى بصورة تدريجية، وذلك بإنشـــاء خطـــوط بحـــرية جديدة. ووافقت الحكومة الإيطالية على إنشاء هذه الخطـــوط ودعمـــتها ماليا بمبلغ مائتي ألف ليرة سنويا. واشترى البنك لهذا

---

(107) طاهر الزاوي - السابق الذكر ص 42.

(108) فرنشسكو كورو - ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني - المصدر السابق ص. 75.

الغـــرض باخرتيـــن قديمتيـــن أطلـــق علـــيهما اسم "روما" و"ماركاوريليو"، وخصصـــت الباخرتان للعمل ما بين طرابلس وبنغازي والإسكندرية أسبوعيا وخط آخر يعمل على طول السواحل الليبية من طرابلس حتى درنة و طبرق. وكانـــت شركة الخطوط الألمانية الشرقية تسير بخطيً منتظمة نصف شهرية ما بين هامبورغ ومالطا وطرابلس وبنغازي والإسكندرية.

كمـــا كانت هناك بواخر أخرى أوربية تطرق الموانيء الليبية بصورة مـــتقطعة. أما الحكومة التركية صاحبة السيادة على ليبيا فلم تهتم بإنشاء خط منـــتظم يربط موانيها بولايتها الأفريقية. وقد اتضح فيما بعد أن "خط الملاحة الـــذي تدعمه الحكومة الإيطالية بمائتي ألف ليرة في العام، كان صالحاً لنقل الحـــيوانات وغـــير صالح إطلاقا لنقل البشر لأن الباخرتين سجلتا منذ البداية تأخـــراً فـــي المواعـــيد وعـــدم انتظام في حالة حدوث عاصفة. وثانيا فأن الباخرتيـــن قديمتيـــن جداً ولا تحتويان على أقل وسائل الراحة التي لا يمكن الاســـتغناء عـــنها كما كانتا في حالة إهمال تام"[109]. واشترى البنك فيما بعد ثـــلاث بواخر أخرى أطلق عليها أسماء "ليبيا" و"برينشي" و"سرت"، واشتعلت الحـــرب قبل أن تنتظم في عملها. وقد استعمل البنك بواخره في الغالب لنقل وارداته من إيطاليا وصادراته من ليبيا وقد كان يخشى منافسة شركة الشرق الألمانـــية التـــي كانت أحسن بواخر وأكثر دقة في المواعيد والمعاملة. وقد طلبت الحكومة الإيطالية من الحكومة الألمانية، كما سبق ذكره، التوقف عن منافسة الشركات الإيطالية العاملة على سواحل ليبيا.

❖ فشل بنك روما في مهمته

أدرك بنك روما في طرابلس في أواخر عام 1910 أن الحظ لم يحالفه فـــي معظم نشاطاته الاقتصادية رغم ما بذله من جهود وأموال. فقد أخفق في

(109) أ. د. اليسانررو ـ بنك روما والحرب الليبية ـ، الملف الثالث ص. 501

تحقــيق الأهداف السياسية التي جاء من أجلها إلى ليبيا، أو الفوائد الاقتصادية التــي كان ينتظرها منه المساهمون. ولا يعود الفشل إلى الروح العدائية التي يدعى البنك أن الحكومة التركية واجهته بها وإنما يعود في معظمه إلى سوء تصــرفات المســئولين عن البنك وسوء تقديرهم للأمور. لقد دخل البنك في صــراعات مع السلطة المحلية قبل بدء أعماله وقام بمشاريع أنفق فيها أموالاً طائلــة دون تــرو أو دراسة. وكان مديره على عجل في كل أموره كأنه في ســباق مــع الزمــن - لم ترم أعمال البنك إلى مساعدة الليبيين على تحسين أوضــاعهم الاقتصــادية والمعيشية وإيجاد الخدمات والمشاريع التي عجزت الحكومة التركية عن تحقيقها، وإنما اندفع البنك نحو تحقيق أهدافه الرامية إلى الاســتئثار بمعظم مشاريع البلاد الصناعية والاقتصادية والمعدنية التي حققت لـــه الفشل والخسائر. وانزعجت الحكومة الإيطالية لهذه النتائج السلبية التي حققها البنك، فكتب وزير الخارجية الإيطالي رسالة إلى قنصليته في طرابلس طلــب مــنه لفــت نظــر مدير فرع البنك بطرابلس إلى ضرورة الحد من تصــرفاته الطائشة والالتزام بالجدية والسرية وعدم الإعلان عن مهمته لأن الأنباء التي وصلت روما حول تصرفات الفرع وتصريحات مديره وتحدياته للســلطة المحلــية تضر بمصالح البنك والبلاد [110]. غير أن رسالة الوزير وصــلت متأخرة فقد كان البنك غارقا في مشاكله وخسائره وشعوره بالإحباط والعجــز عــن تحقــيق المهمة التي كلف بها بعد أن أدركت تركيا والليبيون الأغراض التي كان يعمل على تحقيقها تمهيدا لاستيلاء إيطاليا على البلاد.

ويتساءل المؤرخ الإيطالي ما لجيري عن سبب تعنت تركيا ضد بنك رومــا ويقــول: "إذا كانت الحكومة الإيطالية قد ارتكبت أخطاء في تغلغلها الســلمي فــي ليبيا فلا شك بأن أكبر أخطائها كان عدم إخفائها بقدر كاف للطابع الشبه رسمي الذي اكتسبه البنك في مبادراته الليبية. فقد كان الأتراك

(110) أ. د اليسادرزو _ السالف الذكر ص. 505.

علـــى علم تام بمطامع إيطاليا في طرابلس وبرقة وحتى لو فرضنا أنهم لم يكونـــوا علـــى علم بذلك، فإن الصحافة الإيطالية قد أحاطتهم علماً بذلك"، وســـرعان ما أدركوا من خلال الكثير من المظاهر الواضحة أن بنك روما كـــان عـــبارة عـــن "حصـــان طـــروادة" إيطالـــي داخل الولاية الأفريقية لإمبراطوريـــتهم [111]. وكـــان تصدي الصحافة الطرابليسة للبنك وموقف الليبيين العدائي منه الدليل الكافي على أن مهمة البنك لم تكن خافية لا على الحكومـــة التركية ولا على الليبيين. وتحول هذا الشك إلى يقين بعد أن بدأ البـــنك أعمالـــه واتضـــحت نواياه. ولا شك أن البنك قام ببعض المبادرات كـــالعمل المصـــرفي والرهونات وإنشاء بعض المصانع واستعداده لإضاءة مديـــنة طـــرابلس وتزويدها بالمياه وغيرها، التي كانت تصب في مصلحة البلاد لولا الشكوك التي حامت حوله وأدت إلى معاداة السلطة والشعب لـــه ومقاطعـــته فـــي حدود الإمكان. ولو أن البنك جاء طرابلس بصفته مؤسسة مالـــية اســـتثمارية تـــريد أن تفـــيد وتســـتفيد ولا تنطوي على نوايا الغزو والاحـــتلال لرحبت بها الحكومة والشعب وحققت نجاحا كبيرا في مهمتها. ومـــع ذلك، فعندما بلغ التوتر التركي الإيطالي ذروته في عامي 1910 – 1911 فقد ازدادت العلاقات التجارية بين طرابلس وإيطاليا زيادة كبيرة لا تتناسب مع الأوضاع السياسية المتردية والعداء المستحكم بين الطرفين.

لقـــد حققـــت المبادرات التجارية بين طرابلس وإيطاليا في عام 1910 زيـــادة بلغـــت بالنســـبة 59% لعـــام 1909، حيث انتقلت من أربعة ملايين ونصـــف إلى سبعة ملايين و600 ألف ليرة إيطالية، وبلغت زيادة الصادرات الإيطالـــية إلى طرابلس في نفس الفترة 66%. وبلغت نسبة إيطاليا في تجارة طرابلس الدولية 50%، وهذه الأرقام ذات المصدر الإيطالي [112] تفند كل ما

(111) ف. ما لجيري – الحرب الليبية – الإيطالية سالف الذكر ص 33 .

(112) ف. ما لجيري – الحرب الليبية – إيطالية سالف الذكر ص32.

شـيدت علـيه إيطالـيا دعايتها عن عرقلة الأعمال الاقتصادية الإيطالية في طرابلس والتمييز بين الدول وغيره من الاتهامات التي وجهت إلى تركيا. ولا يمكننا تبرئة تركيا من وضع العراقيل في وجه نشاط البنك، إلا أن أكثر هذه العراقيل كانت تتعلق بشراء الأراضي الذي كانت تركيا والشعب الليبي يرون فيه الخطر على مستقبل البلاد، وكان من حقهم مقاومته والتصدي له.

فقـد قاومـت الحكومـة التركـية ممارسات البنك الخاطئة والضارة بمصـلحة الوطـن فـي حين تركت لـه حرية العمل التجاري والصناعي وتعاملـت معـه الحكومـة نفسها عندما طلبت منه متصرفيه بنغازي وبلدية طرابلس قروضاً كما جاء ذكره. وقد استطاع البنك أن يحقق مكاسب لإيطاليا فـي مجـال المبادرات التجارية بتصديره الحلفاء إلى إيطاليا لصناعة الورق ومعالجـة وتصـدير العديـد من المنتجات الليبية كالجلد والصوف والإسفنج والدواجن وغيرها من المنتجات، وحاول البنك أيضا تحويل جزء من واردات أواسـط أفريقـيا كالعـاج وريش النعام إلى صادرات لإيطاليا. وشجع البنك الاسـتيراد من إيطاليا بفتح الاعتمادات للتجارة وتشجيع التجار على استيراد السـلع الإيطالـية، غير أن استثمارات البنك الكبيرة في مبادراته الصناعية والزراعـية لـم تحقـق لـه المردود المتناسب مع حجم الاستثمارات، ولم تسـتطع مـبادراته الناجحة أن تغطي خسائره. وقد أدرك البنك أن العداء قد اسـتحكم بيـن إيطالـيا وتركـيا وأن الأخيرة سوف تشتد في عرقلة العمل الإيطالـي الاقتصـادي فـي ليبيا وتسهل في نفس الوقت للشركات الأجنبية الأخـرى، وعلى رأسها ألمانيا، الاستثمار والعمل في ليبيا لسد الطريق أمام الطموحـات الإيطالية. وقد اقتنعت إيطاليا أن اعتراف الدول لها بإطلاق يدها في ليبيا لا يعطيها الحق أن تمنع رعايا الدول من العمل في ليبيا أو أن تمنع تركيا صاحبة السيادة على أرضها من التعامل مع من تشاء. وأمر بنك روما بفتح فرع لـه في استانبول ليطمئن تركيا ويهديء من روعها بأن عمله في

طـــرابلس واســـتانبول مصرفي لا علاقة لـــه بالسياسة. وقد جاء في تقرير الجمعـــية العامـــة للمساهمين في 31 - 3 - 1911: "نود إشعاركم بقرارنا بتوســـيع عمـــل بـــنككم في المشرق وذلك بإنشاء فرعين جديدين: واحد في اســـتانبول والثاني في القدس. ويبدو لنا أن وجود فرع للبنك في استانبول في غايـــة الأهمية وضروري الآن حيث أن مصالح ملحوظة لنا ناتجة عن عملنا المتشعب في طرابلس وبرقة والذي يفرض علينا رعايته وتوجيهه حتى يغدو مـــثمراً، وإن ذلـــك يمـــثل مكافـــأة مناسبة لمعهدكم للاهتمام الكبير والعمل المتواصل والمبادرات الشجاعة التي يواصلها بثقة وصبر منذ أعوام ذاكراً أن جـــنوا و فنيسيا كانتا في يوم من الأيام المراكز التجارية للشرق بأجمعه. إن عملكـــم يمثل الاستعمال المفيد لأموالكم والطموح في القيام بمساهمة صادقة لـــنقل الحضارة الاقتصادية إلى ما وراء الحدود. وأننا نؤمل بأن وجود فرع لمعهدكـــم على ضفاف البوسفور سوف يزيل الشكوك وسوء الفهم الموجودة في طرابلس والتي لا داعي لوجودها لأنها تتعارض مع مصالح البلدين ومع ثباتنا في أغراضنا، فإننا قمنا بعمل مباشر بتقديم رؤوس الأموال عن طريق فروعـــنا في بنغازي وطرابلس ووكالتنا في الخمس وزليتن وطابيا ومسراطة ومســـلاته و زواره، وأنشأنا العديد من الصناعات التي نالت رضاء وتعاطف المواطنين" (113).

وهـــذه المرة الأولى التي تعترف فيها جمعية المساهمين لبنك روما أن فرعها في طرابلس يواجه مصاعب وأن البنك أنشأ فرعا في استانبول ليخفف مـــن هـــذه المصـــاعب وأرســـلت حكومة استانبول إبراهيم باشا واليا جديدا لطـــرابلس بـــدلا من حسن حسنى وقد زودته بتعليمات للتشدد مع الإيطاليين والحـــد مـــن نشاطاتهم، غير أنه وجد نفسه عاجزاً عن منع المحتاج من بيع عقاره للإيطاليين إذا لم يجد مشتريًا آخر، وهو نفس الوضع الذي واجه رجب

(113) داليساندرو - المصدر السابق الذكر ص. 498.

باشـــا بسبب غياب أي مصرف أو مؤسسة حكومية مستعدة لشراء العقارات المعروضة للبيع والحيلولة دون بنك روما والحصول عليها.

وتزامن مجيء إبراهيم باشا إلى طرابلس مع فشل الشركة الرباعية في الحصــول علــى امتياز التنقيب عن المعادن، فلاحق أعضاءها الطربلسيين وأجــبر مصــطفى بن زكي على الاستقالة من منصبه كمدير لمدرسة الفنون والصــنائع وشــجع الصــحافة على مهاجمة بنك روما والحكومة الإيطالية والشركة الرباعية التي طالبت بحلها. غير أن الشركة لم تحل وأجريت بعض التعديلات على دستورها ومنحت إذنا بالتنقيب عن المعادن في انتظار إعلان المناقصة التي أعلنت عنها الحكومة من أجل منح الامتيازات، وكانت الشركة تدرك بعد الأحداث التي مرت بها أنه من الصعب الحصول على الامتياز ما دام العــداء قائما بين الدولتين. وكانت المجموعة الفرنسية الأكثر اقتناعا بهذا الوضــع ولذلك قررت الانسحاب من الشركة في شهر مايو 1911، وخاصة مــع تزايد عدد الشركات الفرنسية والأمريكية والألمانية التي كانت الحكومة التركــية تشــجعها على الاشتراك في المناقصة، كما ذكرنا، للحصول على امتياز استغلال المعادن الليبية التي لا وجود لها.

يــبدو أن تصرفات بنك روما في طرابلس قد أزعجت رئيس الوزراء جوليتــي، الــذي كان يعد العدة لاحتلال ليبيا عسكرياً، فكلف عميله الدكتور إنســاباتو ومحمد علوي بالسفر إلى ليبيا لدراسة الأوضاع السياسية في البلاد وموقــف الليبيين من الغزو الإيطالي، ودراسة وضع بنك روما. وقد تضمن تقريــر إنساباتو إلى رئيس مجلس الوزراء، والذي سبق و أشرنا إليه، جزءاً يتعلق ببنك روما نورده فيما يلي :

"يعــتقد الأتراك والعرب أن بنك روما خلقته ومولته الحكومة الإيطالية للتمهــيد لاحتلال طرابلس ولم يأت من أجل الأعمال المصرفية ونشر النفوذ الإيطالــي. يقول الأتراك إن أكبر دليل على ذلك أن القنصليات الإيطالية في

ليبيا اعتبرت حتى الآن المحامي عن البنك حتى ضد الرعايا الإيطاليين أنفسهم، والدليل الثاني أن البنك يحاول أن يحتل ويستولي على جميع المبادرات والمشاريع والأعمال، وإن نشاطه كان موجها بصورة خاصة إلى امتصاص وتدمير التجارة الصغيرة والمؤسسات الصغيرة سواء كان أصحابها من العرب أو الإيطاليين. فعندما كان يلجأ إلى البنك تاجر صغير طالبا المساعدة فإن الأول يرفض تقديم المساعدة ويعرض على التاجر التنازل عن مؤسسته، فإذا رفض يقوم البنك بخلق نشاط مماثل ينافس طالب القرض سواء كان تاجرا أو صاحب مصنع، ويعمل على تدميره. وقد أحدث أسلوب التعامل هذا تيارا من السخط في طرابلس وبرقة لدى المواطنين العرب الذين نسعى لاكتسابهم، وإذا ما فكرنا بأن كل تاجر من هؤلاء التجار له زبائنه الذين يشاركونه مشاعر الخير والشر وأن الأتراك من مصلحتهم النفخ في النار والمبالغة في الأمور وأن الإيطاليين واليونانيين واليهود يشعرون بأنهم مهددون في مصالحهم، فسوف نقتنع قريباً بأن الإشاعات التي ترددت برفع العرب السلاح في وجه إيطاليا أو قيام ثورة ضد الإيطاليين لا تعتبر أمرا مبالغاً فيه. وقد أخبرني في مساء أمس شخص نمساوي يدعى كاردالي قدم من الإسكندرية وقد أوصى به البنك خيراً، أن كبار التجار العرب يرفضون التعامل مع البنك أو طلب البضائع الإيطالية، وإذا حدث و أوصوا ببضائع عن طريقه خلافاً للمتبع، لا يدفعون عربونا ولا يدفعون ثمن البضاعة إلا عندما تصل مخازنهم فقط. وأخبرني مهندس الولاية يوحانس، وهو أرمني كاثوليكي، أن جميع عملاء البنك فقراء أو من ذوي السمعة السيئة الذين يريدون الاحتيال على البنك، وبما أن أغلب العاملين مع البنك من اليهود الذين لا يرتاح إليهم العرب، فإن كراهية العرب للبنك أخذت في التزايد، وبالأمس طالبت صحيفة طرابلسية بمقاطعة البضائع الإيطالية، وغداً سوف يقومون بطرد الإيطاليين" (114). ويواصل إنساباتو حديثه عن بنك

---

(114) ك. بوشيناري ـ العلاقات العربية ـ الإيطالية ـ سابق الذكر ص 161.

روما فيقول: "لقد ألقى البنك بالأموال جزافا لشراء الأراضي بدون سندات الملكية وأعطى قروضا لأشخاص مشكوك في ذمتهم، ويقال في البلد إن البنك لو كان مجبراً على تقديم حسابه للمساهمين لما سمح لنفسه بهذه النفقات الجنونية، فهناك إذن مساعدات لتغطية الأخطاء التي تتسبب فيها العمليات السيئة. ونذكر بعض هذه العمليات وهي قليلة لأنه من الطبيعي لا نستطيع الإطلاع على دفاتر البنك للحصول على المزيد.

أولاً - دفع البنك إلى أحمد .... من زليتن المالك لعقار قيمته 100 ليرة تركية، قرضاً بمبلغ عشرة آلاف ليرة إيطالية.

ثانيا - دفع إلى المدعو محمد خطاب أفندي مبلغ 200 ليرة تركية لشراء أراضٍ في الدواخل باسمه للتحايل على الحكومة التركية، غير أنه استلم المبلغ ولم يشتر الأرض، وبعث البنك برسالة إلى الدفتر دار (المحاسب) كي يخصم المئتى ليرة من مخصصات محمد أفندي الخاصة ببناء طريق طرابلس جنزور. وسخر الأتراك من طلب البنك الغريب.

ثالثا - توجد محاجر قديمة ما بين قرقارش وغريان شمال طريق طرابلس جنزور تعود بداية استغلالها إلى العصر الروماني. وأراد البنك أن يضع يده على المحاجر بالنظر لقرب طرح عطاء طريق طرابلس جنزور وإنشاء الميناء في المستقبل رغم أن هذه الأحجار لا تصلح لبناء الميناء لأنها تتحلل في المياه - و أرسل البنك عملاءه للبحث عن أصحاب المحاجر وادعى البدو الساكنين بقربها أنهم يملكونها وقام البنك باستئجارها منهم دون التأكد من صحة ملكيتهم للمحاجر، وعندما رسي عطاء طريق جنزورعلى أحد المقاولين وذهب إلى المحاجر المذكورة لأخذ ما يلزمه من أحجار احتج بنك روما عليه وطلب من المقاول أن يأتي إلى البنك للتفاهم، وحول المقاول رسالة البنك إلى الحكومة فأمرته أن يأخذ ما يشاء من الأحجار لأن المحاجر ملك للدولة.

رابعاً- الطاحونة التي أقامها البنك في طرابلس عظيمة بدون شك وقد تجاوز ثمن بنائها المليون ليرة إيطالية في حين كان يكفي نصف هذا المبلغ.

خامســـاً- جميع الأراضي التي اشتراها البنك دفع فيها عشرة أضعاف ثمـــنها الجاري الأمر الذي أشعر الحكومة التركية أن البنك كان يشتري بأي ثمن ليستولي على الأراضي لا لأغراض تجارية.

سادســـاً - اشـــترى البـــنك العديد من الأراضي من ملاك مزعومين واضطر إلى شراء هذه الأراضي مرة ثانية من أصحابها الشرعيين واشترى نفس الأراضي في بعض الحالات ثلاث أو أربع مرات ولا تزال ملكية بعض العقـــارات محـــل طعن. وهذا الوضع يشمل معظم السواني والأراضي التي اشـــتراها برنابـــي BERNABEI قنصل إيطاليا في بنغازي نيابة عن بنك رومـــا. وكـــان القناصل والبنك والأفراد الذين قاموا بهذا العمل يرمون إلى إجـــبار الحكومة التركية على التصديق على هذه العمليات، غير أن الحكومة التركية كانت تستغل جميع المخالفات لمنع الإيطاليين من شراء الأراضي.

هـــذه المعلومـــات ومـــا يليها استقيتها من السنوسيين ومشايخ الزوايا السنوســـية ومـــن رئيس بلدية بنغازي أحمد الجهاني ومن عمر باشا الكيخيا أكـــثر الشخصـــيات نفوذا في بنغازي ومن حسونة باشا رئيس بلدية طرابلس وغـــيرهم الذين بالنظر لوجود محمد على علوي ، الذي يحظى باحترام كبير قد أفصحوا بصراحة عما بنفوسهم"[115].

لـــم يعلـــق جولتي أهمية على تقرير إنساباتو من طرابلس لأنه لم يكن مهـــتماً بنشـــاط بنك روما في ليبيا ونجاحه أو فشله فمرحلة التوغل السلمي ودور بـــنك رومـــا فيه قد تجاوزتها الأحداث والاستعدادات للحرب، فما كان يهمـــه معرفة مشاعر الليبيين ومواقفهم بعد إعلان الحرب، وهل سيقفون إلى

(115) ك. برشيناري ـ العلاقات العربية ـ الإيطالية ـ المذكور ص. 160 ـ 176.

جانـــب تركيا أو يلتزمون الحياد. وقد حاول جوليتي في اللحظات الأخيرة أن يبعـــث ببعض الأموال لتوزع، عن طريق قنصل إيطاليا في طرابلس ومدير فـــرع بـــنك رومـــا، على الأعيان والمشائخ لشراء ذممهم وفشلت الفكرة لأن الأموال لم تصل والأحداث تطورت بسرعة.

وظل تقرير إسناباتو حول بنك روما وثيقة تاريخية عكست أعمال بنك رومـــا فـــي طرابلس وممارساته الخاطئة وألاعيبه وتحديه المستمر للسلطة المحلية والأهم من كل ذلك إشعار الجميع بأنه مقدمة الاحتلال الإيطالي.

وضـــاق قنصـــل إيطاليا في بنغازي ذرعا بتصرفات بنك روما فبعث برسالة إلى وزير خارجيته بتاريخ 6 – 9 – 1911 أي قبل الغزو بشهر جاء فـــيها: " إن برنامج تغلغلنا السلمي لم يحقق حتى الآن ما يحق لنا أن ننتظره، ويعـــود ذلـــك في جزء كبير منه إلى مسؤولية الأتراك الواضحة وأيضا إلى الطـــريقة الســـريعة القافزة التي بدأ بها البنك عمله دون دراسة دقيقة للوسط الاجتماعي الوطني الذي يتوقف عليه مستقبلنا في طرابلس [116].

❖ دور بنك روما في التعجيل بالغزو

عندما تحقق بريشاني مدير فرع بنك روما في طرابلس من بداية فشل معظـــم مشـــاريعه ومبادراته على المستويين الاقتصادي والسياسي، باستثناء العمل المصرفي، أدرك أن حلقة إنفاذه تكمن في الإسراع بالاحتلال الإيطالي، لأن الاحـــتلال وحـــده ســـوف يصـــحح أخطاءه ويعيد إليه أمواله الضائعة، ويضـــاعف أرباحه، بصفته المصرف الإيطالي الوحيد بالبلاد والذي استطاع أن يســـيطر علـــى جـــزء مـــن اقتصادها وأن يشتري آلاف الهكتارات من الأراضـــي ويصـــبح المؤسســـة الاقتصـــادية الأولى التي تعددت نشاطاتها

(116) ما لجيري ـ الحرب الليبية السابق الذكر ص. 42.

الاقتصـــادية والزراعـــية والصـــناعية فـــي البلاد. وكان البنك يخطط لتقديم الخدمـــات التـــي ســـتحتاجها القوات الغازية في الفترة الأولى من عملياتها. وتزامن ظهور صعوبات البنك مع حملة الإعلام الإيطالي لدفع الحكومة إلى امـــتلاك ليبيا عسكريا، فساهم البنك في تغذية الحملة بتمويل بعض الصحف وبتجنـــيد أعوانـــه في إيطاليا وقد اشتدت هذه الحملة في صيف عام 1911 وكـــان القومـــيون فـــي طليعتها. وقد ركزت هجماتها على الحكومة التركية واتهمتها بعرقلة النشاط الاقتصادي الإيطالي وإساءة معاملة الرعايا الإيطاليين وممارسة سياسة التمييز بين الدول صاحبة المصالح في ليبيا وألمانيا بصورة خاصـــة التـــي بـــدأت تتغلغل في ليبيا وتوسع نشاطاتها بتشجيع من الحكومة التركـــية. وعندما تتحدث الصحافة الإيطالية عن العراقيل التي كانت تضعها تركيا في وجه النشاطات الاقتصادية الإيطالية، كانت تعني بنك روما لأنه لم تكـــن توجد في ليبيا نشاطات اقتصادية إيطالية أخرى. وكان البنك ينتظر من الحملـــة أن تحقـــق لـــه أحد الهدفين: أن تسارع الحكومة الإيطالية باحتلال ليبـــيا، وذلـــك مـــا كـــان يتمشى مع مخططاته لتخليصه من ورطته وزيادة نشاطاته ومكاسبه أو أن تكتفي إيطاليا بتهديد تركيا الأمر الذي سيجعلها أكثر تســـاهلا مع البنك وتجاوزا عن أخطائه. ومن المفهوم في الأوساط السياسية الإيطالـــية أن بـــنك روما بذل جهودا لحماية مصالحه في ليبيا بالضغط على الـــرأي العـــام وعلـــى الحكومة عن طريق تقديم مبالغ كبيرة إلى الصحافة، وتســـبب هذا العمل في إحراج القنصل الإيطالي بطرابلس الذي بعث برسالة إلـــى وزيـــر الخارجـــية الإيطالية بتاريخ 15 ـ 8 ـ 1911 جاء فيها: "إن التدخلات الصحفية لبنك روما تضر بالبنك نفسه وتزيد من العداء ضد مديره بريشاني رغم محاولة الأخير أن يظهر العكس. وهنا يتكرر القول بين الطبقة الذكـــية بأنـــه إذا ما انتهت الحملة الصحافية التي يقودها باسيتي PASETTI تقـــوم حملـــة أخرى أقل علانية يقودها بريشاني عن طريق أعوانه الدكتور زكريا وفيتوريو حسان وفيشي بياتساو فاساللو الذي يكتب في صحيفة تريبونا

باســم مستعار ILLICUM، والخبير الأستاذ شيبولليني الذي يكتب في صحيفة جورنالـــي د يطالــيا والجمــيع يســاهمون في تغذية الحملة القومية. ويملك بريشـــاني صـــحيفة أيكودي تريبولى التي بعد أن كانت من أشهر معارضي البـــنك أصبحت الناطقة باسمه. ويلاحظ الجمهور أن البنك لديه أموال كثيرة ومديره ينفقها بسخاء (117).

وزار بعـض الصـــحفيين القوميـــن أمـــثال بياتسا وبفيوني طرابلس واتصـــلوا بمديـــر بنك روما الذي وجدوا فيه خير مشجع لهم والتقت أهدافهم بأهدافه، وركزوا مقالاتهم حول ثلاثة مواضيع رئيسة وهي:

أولاً- التأكـــيد علـــى أن ليبـــيا سوف تؤمن الحياة والعمل والاستقرار لأعداد كبيرة من الإيطاليين.

ثانـــياً - الـــتهويل من حجم العراقيل التي تضعها الحكومة التركية في طـــريق النشاط الإيطالي والمعاملة السيئة التي يلقاها الإيطاليون، الأمر الذي يخدش كرامة إيطاليا وشرفها ويتطلب عملا حاسماً لصون حقوق إيطاليا في ليبيا التي اعترفت لها بها الدول الكبرى.

ثالـــثاً- المـــبالغة في وصف تخلف ليبيا وهمجيتها لدرجة وجود سوق للرقـــيق في مدينة بنغازي وانه من واجب إيطاليا أن لا تسمح ببقاء بلد بهذه الدرجة من التخلف في مواجهة شواطئها.

وكـــان مديـــر البـــنك يلتقي بالصحفيين الزائرين لطرابلس ويزودهم بالمعلومـــات ويغذي مطالبتهم باحتلال سريع لليبيا وفقا لرغبته من أجل حل هذا المشكل بصورة نهائية.

---

(117) أ. د الديساندرو - المصدر السابق الذكر ص. 505.

❖ المساومة والابتزاز

مثل التغلغل الاقتصادي الألماني في ليبيا كابوساً مزعجا لإيطاليا وكان أكثره قائما على الإشاعات التي ظلت تسيّر سياسة إيطاليا تجاه ليبيا على مدى عقدين. وتزايدت هذه الإشاعات في صيف عام 1911 حول قيام الشركات الألمانية بمبادرات اقتصادية مخططة تشجعها الحكومة التركية وترضاها. فأشِيع بأن الألمان تحصّلوا على الموافقة على إنشاء مزرعة نموذجية في برقة حيث يقوم بنك روما بإنشاء مزرعة مماثلة في القوارشة، وبإنشاء معصرة للزيتون لمنافسة المعاصر الإيطالية، وتأسيس خط بحري بين أوربا والمواني الليبية تتولى تسييره شركة دوتش ليفانتي لاين. ولم تقف الإشاعات عند هذا بل أضافت بأن الشركات الألمانية تتفاوض مع السلطة التركية للقيام ببناء ميناء طرابلس وغيره من الخدمات.

واحتلت هذه الإشاعات حيزا في الصحافة الإيطالية و أقلقت وزارة الخارجية، فأسرع وزير الخارجية دي سان جوليانو فبعثت برسالة إلى سفيره باستانبول يطلب منه الاتصال بسفيري ألمانيا والنمسا و أشعار سفير ألمانيا بصورة خاصة أن هناك واجب أدبي يلزم دولته بالعمل بكل إمكانياتها لمنع مواطنيها من منافسة الإيطاليين في منطقة ليس لهم فيها مصالح ملحوظة، وهذا الواجب ناتج عن علاقات التحالف التي تربط بين الدول الثلاث. ومن المعلوم أن ألمانيا في كل مرة توترت فيها العلاقات بين إيطاليا وتركيا كانت تنصح الأولى بالصبر والحذر وجاء في رسالة الوزير لسفيره المذكورة: "إن صبرنا وحذرنا نفذا وأصبح من المستحيل علينا أن نصبر أكثر عندما نرى الوضع الذي كوناه في أفريقيا العثمانية بتضحيات كبيرة أصبح مهدداً" (118). وازدادت في هذه الفترة مواقف الوالي إبراهيم باشا تصلباً في وجه التغلغل

(118) ر. موري ـ المصدر السابق الذكر ص. 113.

الإيطالي وأخذ يحث الليبيين على عدم التعامل مع البنك، وعارض كل مبادرة جديـدة لـه و لاحق الليبيين المتعاونين مع البنك وطلب من منتجي الزيتون أن لا يبيعوا منتوجهم للبنك، وذلك بالإضافة إلى التشدد في تسجيل الأراضي التـي كان يشتريها البنك بطرق أحيانا صحيحة وأحيانا ملتوية. وبدأت تتبلور امام البنك النتائج السلبية والإخفاق للعمل الذي بدأه منذ أربع سنوات. وازداد قلـق البـنك لتأخر الاحتلال الإيطالي و خشي أن يمتد هذه التأخر إلى فترة أخـرى طويلـة ولذلك ارتأى أن يساهم في الضغط على الحكومة الإيطالية للـتحرك وغزو ليبيا، فأشاع مديره في صيف عام 1911 بداية التفاوض مع مجموعـة من الشركات الألمانية ليتنازل لها فرع بنك روما في طرابلس عن جمـيع حقوقه. ونزل هذا الخبر كالصاعقة على الأوساط الإيطالية السياسية التي رأت في هذا التهديد أو الابتزاز خطراً يعرّض كل ما شيّدته إيطاليا في ليبيا من مشاريع للضياع، ويمكن ألمانيا من توطيد أقدامها في البلاد بموافقة الحكومـة التركـية، وربمـا اقتطاع جزء من ليبيا ليكون موطئ قدم لها في الـبحر الأبـيض المتوسط – أمنيتها الكبيرة. وتحركت الدبلوماسية الإيطالية للـتأكد من النبأ أولاً ثم إيقافه فيما بعد. وبعث وزير الخارجية رسالة لرئيس الـوزراء بهذا الخصوص جاء فيها: " علمت أن بنك روما يتفاوض وقارب علـى الوصول إلى اتفاق بخصوص التنازل عن أعماله إلى شركة مؤلفة من رجال المصالح الألمان والنمساويين. سأقوم في الحال بالتحقيق لمعرفة مدى صحة هذا الخبرالذي إذا تأكدت صحته سنحول دون تنفيذه. وأرى من واجبي أن أعلمك أن باتشيللي (رئيس البنك) كرر هذه التهديدات أكثر من مرة، غير أننـي لا أعتقد أنه يقوم بتطبيقها طالما يغذيه الأمل باحتلال إيطاليا لطرابلس وحصـوله علـى تعويضات عن الخسائر التي تكبدها. ومن المحتمل، وهذا رأي، أن باتشـيللي يعمـل بكل جهد لإيهام الرأي العام أن عملية التنازل قد تمـت أوهـي في طريقها إلى الإتمام. وأكرر أنه لن يفعلها لعدة أسباب ومن بينها أنه في 24 – 25 يوليو كان مقتنعاً أن الحكومة سوف تعوضه تعويضاً

جديـــاً بالإضـــافة إلى أشياء أخرى قد لا يحصل عليها. وكان على قناعة من جهة أخرى أن الحكومة سواء أرادت أم لا فالأحداث ستضطرها إلى احتلال طـــرابلس. وقد بدأ عليه العزم على شراء أراضي جديدة في برقة، وشعرت كذلــك أنه اصبح أقل اعتراضاً على القيام بالعمل في ميناء طرابلس كما بدا لـــي فـــي محادثاتنا السابقة. ومع ذلك فقد يكون قد غيّر رأيه وأننا في حالة الشـــك لا يجـــب أن نضـــيع دقيقة واحدة لإتخاذ جميع الاحتياطات التي في مقدورنـــا للحيلولة دون وقوع أعمال البنك بأيدي أجنبية، سواء كانت خسائره كاملة أم جزئية" (119). وبالرغم من تفاؤل الوزير المحدود بأن البنك لن يقوم بهذا العمل، غير أنه وضع الحكومة الإيطالية بين خيارين: أما أن تحتل ليبيا، أو يتنازل عن حقوقه في طرابلس للألمان. وتظاهر البنك بالتمسك بموقفه وقد كتـــب مدير فرع طرابلس رسالة إلى القنصل الإيطالي في طرابلس يبين فيها أنـــه تحدث مع باتشيللي في الموضوع وقد قال لـــه بالحرف الواحد: " لتقدم لـــي الحكومة تأكيدات حتى ولو كانت شفوية بأن عملية طرابلس ستجد الحل المرضـــي، وسوف أتحدى أي خصم وأضمن حتى بمواردي الخاصة تغطية الخسائر المحتملة " (120).

أدركت الحكومة الإيطالية أن تهديدات بنك روما ببيع حقوقه في طرابلس إلـــى شركات ألمانية، قد قضت على عملية التوغل السلمي والتغلغل الاقتصادي اللتان علقت عليهما إيطاليا أمالاً كثير في الاستيلاء على ليبيا دون حرب. وفشل عملـــية التوغل السلمي جر معه توتر العلاقات بين تركيا وإيطاليا وكشف القناع عن نوايا إيطاليا الحقيقية تجاه ليبيا، وعداء الشعب الليبي لإيطاليا.

وكتب سالفيميني SALVEMINI السياسي الإيطالي المعارض لاحتلال ليبيا يقول في هذا الصدد:

---

(119) أ. د اليساندرو ـ المصدر السابق الذكر ص 507.

(120) أ. د اليساندرو ـ المصدر السابق الذكر ص 507.

"علينا أولاً أن نفهم بدقة ما هي عملية توغل بنك روما الاقتصادي في ليبـــيا. الجميع يتحدث عنها ولا أحد يزودنا بمعلومات عنها. وعلينا أيضا أن نفـــرق بدقة نوعية الأضرار التي لحقت بالبنك بسبب سؤ نية الأتراك. وهل ســـؤ النـــيّة هذه لم تسببه وتبرره حملة صحيفة "كوريري ديتاليا" والصحافة القومية؟ وحتى ولو فرضنا أن البنك ذهب إلى طرابلس بالاتفاق مع الحكومة، فذلـــك لا يعطـــي البـــنك وصحيفة كوريري ديتاليا الحق في إرشاد الحكومة الإيطالـــية إلى الوقت والكيفية التي تقوم فيها باحتلال بلد عسكرياً. فالحكومة تملـــك جمـــيع عناصر الحكم التي تنصحها، من أجل صالح البلاد، أن تعدل السياســـة التـــي كانـــت تراها صالحة في تلك الفترة عندما أذنت لبنك روما بالذهاب إلى طرابلس (121).

وبـــإعلان البنك عن تخليه عن حقوقه في ليبيا لشركات أجنبية دخلت المشكلة الليبية في مرحلة جديدة من تصعيد التوتر المتبادل بين الطرفين، فقد عملـــت الحكومة الإيطالية في الفترة الأخيرة على استمرار حالة التوتر بينها وبيـــن تركـــيا واستمرار الشكوى إلى الدول الكبرى من سؤ معاملة الأتراك لمواطنـــيها وعرقلة المبادرات الاقتصادية التي يقوم بها بنك روما، وذلك إلى أن تســـمح لها ظروفها الداخلية والدولية بتحقيق حلمها بالاستيلاء على ليبيا. والعراقـــيل والمعاكسات وسياسة التمييز التي تشكو منها إيطاليا لا أساس لها في معظمها، فقد تمكن البنك، دون الحصول على الترخيص المنصوص عليه قانونـــيا، أن يمـــارس الأعمال المصرفية وأن يشيّد طاحونا ضخماً ومعاصر الزيـــتون ومصـــنع للثلج ومطبعة وأن ينشئ مزرعة نموذجية بقرب بنغازي وأن يؤســـس خطـــوط ملاحة بحرية وأن يعالج الإسفنج ويصدره، ودخل في مفاوضـــات مـــع السلطة المعنية في طرابلس وبنغازي لإنارة الأولى وتزويد

---

(121) سالفيميني - بخصوص طرابلس وجوليتي ـ صحيفة " لافوشي" 28- 11- 1911 روما
G. SALVEMINI - LA VOCE, ROMA 28-11-1911

الثانـــية بالمياه، هذا بالإضافة إلى بعثته للتنقيب عن المعادن، فالسلطة التركية كانـــت تـــبدى بعض المعارضة ثم تتراجع تحت الضغط الإيطالي. غير أن الحكومـــة التركـــية، بعد أن صعدت إيطاليا تهديداتها وحملاتها الصحافية في صـــيف 1911، اضـــطرت إلى اتخاذ موقف أكثر حزمًا وخاصة في ولاية إبراهـــيم باشـــا، غـــير أن هـــذا الحزم سرعان ما تحوّل إلى استسلام أمام الـــتهديدات الإيطالـــية والضـــغط الألماني، وضحت بواليها في سبيل أرضاً إيطالـــيا. إلا أن الأخـــيرة كانت تريد استمرار التوتر والتصعيد فإذا حصلت على الترضية في موضوع من المواضيع التي كان يدور حولها الجدل، تولى البـــنك اخـــتلاق موضوع جديد يرفع حدة التوتر ويقرب البلدين من الحرب. وكان رئيس الوزراء جوليتي قد قرر الحرب بعد حادث أغادير وتأمين فرنسا اســـتيلائها على المغرب ودخول الاتفاقية الفرنسية الإيطالية لعام 1900 حيز التنفـــيذ. وفي الوقت الذي كان جوليتي يعد العدة لإعلان الحرب على تركيا، كانت وزارة الخارجية تعمل على زيادة التوتر وخلق المبررات لإدانة تركيا، وكان لبنك روما دوره في النفخ في النار بإطلاق مختلف الإشاعات المثيرة. واتخـــذت الحكومة الإيطالية عذراً من إشاعة إسناد مهمة بناء ميناء طرابلس إلـــى شركة غير إيطالية، كي يسارع وزير الخارجية بالتهديد بإعلان الحرب علـــى تركيا إذا إيطاليا لم تفز بعطاء ميناء طرابلس. وبعث وزير الخارجية الإيطالـــي برقية إلى سفيريه في برلين وفيينا جاء فيها: "أن الحكومة التركية تبذل قصارى جهدها، حسب المعلومات التي وصلت سفارتنا باستانبول، كي لا تحصل الشركات الإيطالية والإنكليزية على امتياز بناء الميناء الطربلسي. ولـــن يعـــتقد أحد داخل إيطاليا في سلامة العطاء، وأن الرأي العام الإيطالي سوف يجر الحكومة إلى حلول قصوى"(122) .

وهـــذه العجـــرفة الإيطالية والتطاول على دولة كبرى من دول أوربا،

---

(122) أ. د ما لجيري ـ الحرب الليبية - سالف الذكر ص 1481.

صـــاحبة السيادة على أراضيها، لم تقدم عليها إيطاليا إلا بعد أن تعودت على رضـــوخ تركـــيا واستســـلامها في كل مرة هددتها إيطاليا، وتقوم نتيجة لهذا التهديد بتلبية مطالبها والإذعان لما تريده. وكان حقي باشا سفير تركيا عامل ضـــغط إضـــافي علـــى حكومة استانبول كي تتساهل مع إيطاليا ولا تعرقل مبادراتها الليبية مبادرات بنك روما بصورة خاصة.

ولـــم تكن تركيا بدولة ضعيفة تخيفها إيطاليا ولم تكن عاجزة عسكريا فقـــد كان لديها آنذاك ما يزيد عن نصف مليون جندي تحت السلاح، ولم تكن فقـــيرة بالقدر الذي تعجز فيه عن إصلاح طرابلس وبناء مرافقها الضرورية. إنما العيب كان يكمن في حكامها القدماء والجدد على السواء الذين لم يلتفتوا إلى طرابلس أو يهتموا بها، بل التزموا الصمت إزاء إدعاء إيطاليا بحقها في ليبـــيا ولم يحتجوا على الدول التي أبرمت مع إيطاليا اتفاقيات بالموافقة على إطـــلاق يدها في ليبيا، ولم يستعدوا لمواجهة الغزو الإيطالي لليبيا الذي كانت إيطالـــيا تلوح به، بل على العكس فقد سحبوا قواتهم من ليبيا قبل الغزو بفترة قصـــيرة ولم يتركوا في البلاد سوى بضعة آلاف من الجنود ينقصهم السلاح الحديث المتطور، وكانوا في طرابلس وبرقة من الزاهدين. ولم يرسلوا بعض كبار الضباط إلى ليبيا لمساعدة المقاومين إلا بعد أن رأوا الشعب الليبي يهب بأكمله لمواجهه الغزو وإيقاف زحفهم نحو الداخل .

❖ حصيلة بنك روما من احتلال ليبيا

أعلنـــت إيطالـــيا الحرب على تركيا واحتلت قواتها طرابلس وبنغازي وبعـــض المـــدن الســـاحلية، وحقق بنك روما أمنيته الكبرى في حدوث هذا الاحـــتلال الـــذي ساهم في تحقيقه بنصيب وافر .. إلا أن هذا الاحتلال كلفه الكثـــير مـــن الخســـائر وخرج من المعركة محطم الأوصال. فقد تعرضت وكالاتـــه ومؤسســـاته الزراعية والصناعية ومخازنه في طرابلس وبرقة إلى

النهـب والأعمال الانتقامية وذلك بعد إعلان الحرب، وفي الفترة التي سبقت وصـول القوات الإيطالية، ولحقته الخسائر أيضا في استانبول بعد أن أمرت السـلطات التركية بإغلاق مقره، وفي مصر حيث تعرضت جميع مشاريعه ومصـالحه إلـى أعمـال انتقامية. واضطر البنك إلى التخلي عن مشاريعه الزراعـية والصـناعية فـي ليبيا، كما جاء في تقرير مجلس إدارته بتاريخ 30 - 3- 1912:

" لا يجب علينا الآن أن نخفي عليكم، أن الأوقات الأولى من الاحتلال تسـببت لنا في بعض الأضرار بسبب السرقات والنهب التي لحقت بوكالاتنا حيث استولت جماعات غاضبة من الأعداء على الحيوانات والبضائع بصورة خاصـة التـي كانت بالمخازن وبممتلكات معهدكم، ووصل الأمر إلى أعمال متوحشـة ضـد وكلائـنا العرب الذين دفعهم إخلاصهم الشجاع إلى محاولة مقاومـة الاعـتداءات الوحشية لإنقاذ ما كان بعهدتهم. وتأكدوا أن إضرارنا سـتجد الاعتراف الواجب بها فقد شرعنا في العمليات اللازمة لدى الحكومة الملكـية ... وهناك أحداث أخرى تسببت فيها الحرب الإيطالية التركية وهي إغلاق مركزنا في استانبول الذي فرضته علينا السلطات العثمانية وأنذرتنا به يـوم 3 يـناير 1912. وكان لأعمال الحرب بعض الوقع على مراكزنا في مصر حيث التعصب المطلق الخارج عن محله حاول القيام بانتقامات مؤسفة نحونا" [123].

إن ردود فعـل العـرب فـي ليبـيا ومصر ضد مؤسسات بنك روما ومـنقولاته، التـي وصـفها تقرير مجلس إدارة البنك المذكور بأنها أعمال وحشـية، هـي ردود فعل طبيعية لبلد أُعلن عليه الحرب وكان العدو يتحرك لاحـتلاله. واقتصـرت عملـية النهب على المنقولات في حين احتفظ البنك

(123) ف. ما لجيرى ـ الحرب الليبية السابق الذكر ص. 439 .

بجميع أراضيه وعقاراته أما الأعمال الوحشية الحقيقية فقد اقترفتها القوات الإيطالية ضد السكان المدنيين العزل بعد معركة الهاني وشارع الشاطئ حيث أنتقم الجنود الإيطاليون لقتلاهم بمذابح لم ينج منها شيخ أو طفل أو امرأة، وقد استنكرتها أوربا وصحافتها وإدانتها، غير أن الضر الكبير الذي أصاب البنك ألحقه به الجيش الإيطالي المحارب في ليبيا.

فمن المعروف أن بنك روما تولى تقديم الخدمات وتوفير الحاجات المحلية للقوات المسلحة، وذلك في الفترة الأولى من الاحتلال بتزويد الجيش بالحطب لطهي طعام عشرات الآلاف من الجنود، وبالتبن والشوفان لإطعام آلاف الدواب التي صحبت الجيش. وقد جند البنك أعوانه لشراء الحطب والأعلاف بأسعار بخسة وبيعها إلى السلطات العسكرية بأضعاف ثمنها، كما تفق البنك مع القيادة العسكرية بالقيام بجميع أعمال الميناء المتعلقة بإنزال الجنود والمؤن والأسلحة والعتاد الحربي من البواخر إلى اليابسة، وإيجاد المخازن لحفظها. واشترى البنك لهذا الغرض من إيطاليا ومصر ومالطا المعدات اللازمة لهذا العمل من قاطرات ومواعين وقوارب ومراكب شراعية وجسور عائمة وغيرها. ومارس البنك عمله هذا الذي كان يتوقع منه أرباحاً وفيرة لفترة من الزمن، إلا أن الجيش فاجأه بالاستيلاء على جميع هذه المعدات والتجهيزات ليتول القيام بهذه العمليات، وحرم البنك من تفريغ وارداته إلا في حدود ضيقة. وارتفع صوت مجلس إدارة البنك بالشكوى والتذمر بعد التفاؤل والآمال، وقد جاء في تقريره بتاريخ 31 – 3 – 1915 ما يلي: " وقع علينا الاختيار، خلال الحرب، في تموين جيش الاحتلال وهناك شهادات مؤهلة جداً. لقد قمنا بتقديم وتسهيل كل شئ من تحويل الأموال وتقديم الناقلات للجرحى والمرضى، إلى توفير الأماكن للتخزين وللجنود وإلى تموين هؤلاء الجنود، وبسرعة، وتحت الضرورة القصوى وبدون شكليات رسمية، تقرر برسالة بسيطة تموين القوات بحطب الوقود

والشـــوفان والتبن والقش وقمنا بذلك بعجلة دون النظر إلى النفقات. وأعددنا كـــل مـــا يلزم للوفاء بالتعاقد، فجهزت المخازن وتم شراء الأجهزة اللازمة للـــتفريغ من جنوا ومالطا والإسكندرية، وهي القاطرات والمعدات والمواعين والـــزوارق، وتم إنشاء جسر عائم بطرابلس وآخر ببنغازي وإبرام عقد للنقل بواسطة الإبل والعربات، واستئجرت بواخر ومراكب شراعية، واحتكرت في نفـــس الوقـــت البضائع المطلوب تقديمها ولكن سرعان، لضروريات الحرب التي لا نريد أن نناقشها، احتل الجنود الكثير من مخازننا وتم الاستيلاء على القوارب والقاطرات والمواعين المخصصة لانزال الجنود والمدفعية إلى البر، واخـــذوا منا الجسر العائم واستولوا على وقود السيارات. وفي الخلاصة قد أفســـدوا التنظـــيم الخـــاص بخدمـــات الإنزال والنقل وبالنظر إلى أن أسبقية عملـــيات التفريغ كانت لخدمات الدولة، فلم يسمح لسفننا أن تنقل إلى الأرض أكثر من مائة طن في اليوم، ولذلك ظلت وارداتنا على ظهر السفن الشراعية والـــبواخر زمناً أكثر مما يجب وكبدنا ذلك زيادات ضخمة في الأجور. ومن الســـخرية أن إدارة المهمـــات العسكرية كانت تحرر ضدنا المخالفات عندما كانت لا تجد في مخازنها جميع كميات البضائع التي تريدها والتي لم نتمكن من نقلها لاستيلائهم على وسائل تفريغنا. وعلى كل فمن الضروري أن نذكر أنـــه بســـبب الحرب قد أغلق المطحن والمعصرة ونهبت حيواناتنا وضاعت البذور واشتعلت النيران في مستودعات الحلفاء وتوقفت كل أعمالنا الصناعية والـــتجارية، ألا نســـتحق لجمـــيع هذه الأضرار تعويضاً عادلاً ؟ إننا نؤكده والحكومة الملكية لا تنكره، غير أنه مع الأسف فإن مثل هذه الإجراءات تأخذ وقـــتاً طويـــلاً لتصل إلى النهاية وإزاء هذا الوضع رأينا من الواجب ضغط الحســـابات والشروع في عملية تخفيض واسعة لنشاطاًتنا في ليبيا ولائتماناتنا لدى الحكومة" (124).

---

(124) ف. مالجيرى ـ الحرب الليبية ـ المصدر السابق ـ ص 441 ـ 442 .

واضــطر البنك بعد مرور عام تقريباً على الاحتلال أن يصفي الكثير من مشاريعه التي أقامها في ليبيا، وقد جاء في تقرير مجلس الإدارة المؤرخ فــي 31 ـ 3- 1914: " لقــد واصــلنا فــي ليبــيا مثلما أخبرناكم تصفيه المؤسســات ذات الطابع الصناعي لا المصرفي، التي أنشأناها قبل الاحتلال فقــط مــن أجــل تغلغــل اسم بنككم والرأسمال الإيطالي بين أولئك السكان المهمليــن. وهكــذا تنازلــنا في العام الماضي إلى شركة "سيشليا" عن خطنا الملاحــي الســاحلي الذي يربط بين مالطا ومصر، وكذلك قدمنا إلى الشركة الاســتعمارية للكهــرباء بميلانو آلات منشأتنا الكهربائية الحرارية والامتياز المــتعلق بهــا، وأيضــاً أسندنا تجارة الإسفنج إلى شركة يتكوّن أغلبها من رأســمال إيطالي ولدينا فيها مصالح كبيرة، ومع ترك الحديث عن العمليات الصــغيرة، فإننا نتفاوض بخصوص التنازل عن مطحننا ومعصرة الزيت في طرابلس" [125].

❖ مطالبة بنك روما بالتعويضات

على عكس ما كان يتوقع بنك روما ويرجو من تحقيق أرباح واعتراف وتقديــر بعــد الاحتلال الإيطالي لليبيا، إلا أن هذا الاحتلال قد اضطره إلى تقلــيص أعمالــه في ليبيا وحصرها في العمل المصرفي بعد خسارة أمواله وموجوداتــه وبعــد أن استولى الجيش على جهازه البحري لتفريغ السفن في مينائــي طــربلس وبنغازي. وأصبح هم البنك الوحيد بعد هذه الأحداث هو البحــث عن اعتراف الحكومة بالإضرار التي لحقته والمصاريف التي أنفقها لتمويــن الجيش بحاجته في الفترة الأولى من الغزو، وظل البنك لمدة عامين يطالب الحكومة بحقوقه دون جدوى. وعبّر البنك عن قلقه وغضبه من خلال تقرير مجلس الإدارة بتاريخ 31-3-1914 :

---

(125) ف. مالجيرى ـ المصدر السابق الذكر ص 440 .

" أقوياء بحقنا ولازلنا واثقين في عدالة الحكومة، فلدينا من الأسباب ما يدفعـــنا إلـــى الاعتقاد أن التعويضات المشروعة التي نطالب بها ستمنح لنا. فـــتأكدوا على كل حال أن مصالحكم سنرعاها بقوة"[126]. وظل الخلاف قائماً بين الحكومة والبنك دون الوصول إلى اتفاق حتى نهاية عام 1914، فاضطر البـــنك أمـــام خسائره الكبيرة أن يخفض رأسماله بنسبة 25%، أي من 200 ملـــيون لـــيرة إلى 150 مليون ليرة، وكان هذا التخفيض ناتجاً في أغلبه عن الأضرار والمصاريف التي لحقت به في اشهر الحرب الأولى.

وتأزمـــت العلاقـــات ما بين الحكومة والبنك إلى درجة أن البنك حمّل الحكومة مسئولية فتح فرعين في استانبول والقدس بناء على طلبها، وأنه كان البنك الوحيد الذي كانت لـــه نشاطات في مالطا والإسكندرية [127]. ويبدو أن الحكومـــة كانت تصرّ على أن البنك ذهب إلى ليبيا بمحض إرادته وهي غير مسئولة عن خسائره، واضطر رئيس البنك إلى اللجوء إلى دى سان جوليانو وزير الخارجية السابق لأنه كان ملماً بالدور الذي أسندته الحكومة للبنك للقيام به في ليبيا، ومطالبته بالوساطة في الخلاف القائم بين الحكومة والبنك. وكتب دي ســـان جوليانو رسالة إلى زميله الذي خلفه في وزارة الخارجية أكد فيها الدور الذي قام به البنك في التغلغل الاقتصادي والسياسي في ليبيا وقال: إنه من المناسب جداً إزالة العقبات التي تحول دون استئناف العلاقات الطيبة بين الحكومة وبنك روما، وقد يستطيع البنك أن يمارس من جديد بنجاح عمله في ســـوريا ومصـــر وفـــي الشـــرق الأقصـــى وذلك لصالح السياسة الخارجية الإيطالـــية، غير أنه من المناسب أيضاً الإشارة إلى الضرر الذي قد ينتج عن موقف معاد للبنك نفسه نتيجة للتوتر الحالي في العلاقات مع الحكومة الملكية ... وبمـــا أن أســـباباً كثيرة إيجابية وأسبابا سلبية تتفق في دفعنا نحو تسوية

---

(126) ف مالجيرى ـ المصدر السابق ص. 440.

(127) ف. مالجيري ـ المصدر السابق ص 440.

الخـــلاف الحالي في أقرب وقت ممكن، فإن عملنا الدبلوماسي قد يستفيد من هذه الإدارة التي لا تزال ضرورية اكثر من كونها مفيدة" [128].

ولـــم تـــأت وســـاطة دي سان جوليانو بأية نتيجة، بل إن الخلاف بين الطرفيـــن ازداد وتوســـع و أصـــرت الحكومـــة الإيطالـــية علـــى عدم دفع التعويضـــات إلـــى البـــنك، ودخـــل عامل جديد على الساحة وهو المصرف الإيطالـــي التجاري الذي أسسه اليهودي الألماني جويل في بداية القرن، فقد اختارته وزارة الخارجية الإيطالية ليكون المساعد المباشر للحكومة في القيام بنشـــاطات فـــي الخـــارج، وقد قام هذا المصرف بعمليات في الجبل الأسود وألبانـــيا واشترك في سكك حديد صربيا وساعد في المشاريع الاقتصادية في أسيا الصغرى، وهي مبادرات كان في إمكان الحكومة إسنادها إلى بنك روما لتعويضه عن خسائره في ليبيا، علماً بأنه المصرف الوحيد الذي قام بالأعمال المصرفية خارج حدود إيطاليا.

وفـــي شـــهر ســـبتمبر 1915 لجأ البنك إلى القضاء وقدم دعوى أمام محكمـــة رومـــا ضد وزارء الخارجية والمستعمرات والخزينة من أجل دفع جمـــيع نفقـــات التغلغل التجاري والاقتصادي في ليبيا، والتعويض عن جميع الأضـــرار التي نتجت عن الحرب الإيطالية التركية. واستند الطلب على أن الأعمـــال التي قام بها البنك في ليبيا كانت بناءً على دعوة تفاهم مع الحكومة الإيطالـــية التي استخدمت أعمال البنك المصرفية والصناعية لتحقيق أهدافها السياســـية، الأمر الذي يبرر تعويضاً مشروعاً وشريفاً للبنك. وطلب محامي البـــنك بوثـــيقة أخـــرى من وزيرالخزينة دفع قيمة تموينات الجيش بالحطب والأعـــلاف، والبالغة قيمتها قرابة ثمانية ملايين ليرة إيطالية، وذلك بالإضافة إلـــى الـــتعويض المطلوب بالوثيقة الأخرى الذي يتجاوز عشرة ملايين ليرة

(128) ف- مالجيري _ المصدر المذكور ص 444.

إيطالـــية. واستمرت الدعوى وطال الخصام ورفض البنك عروض الحكومة التي كانت لا تتناسب وطلباته، وأخيراً خشيت الحكومة خطر تصفية قضائية قد تفرض على الدولة دفع مبلغ أعلى من الذي يمكن الوصول إليه عن طريق الـــتفاوض والمصالحة، فقرر وزير الخزانة بالتشاور مع الوزراء المختصين أن يعرض على البنك مبلغ إجمالي قدره 4.766.000 ليرة إيطالية. وقبل بنك رومـــا المبلغ المقترح رغم أنه أقل بكثير مما كان يطالب به وذلك لوضع حد للخـــلاف فـــي هذه الظروف التي كانت تواجهها إيطاليا بعد دخولها الحرب، وللتدليل من جديد على احترام البنك للحكومة واستعداده لخدمتها.

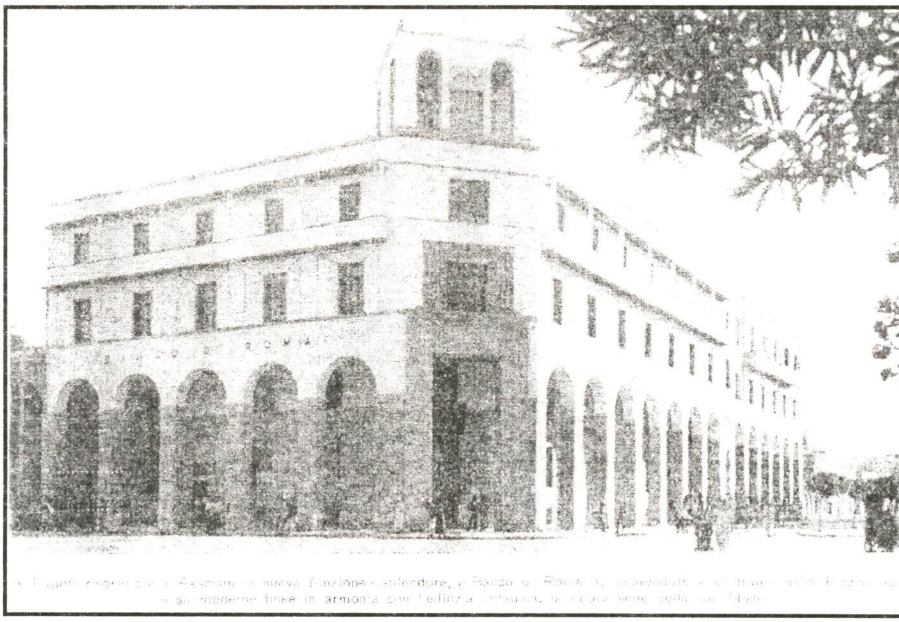
وهكذا أنهي بنك روما مغامرته الكبرى في ليبيا التي اتخذت منها إيطاليا وســيلة للاســتيلاء عليها دون قتال أو سفك دماء وبترحيب حار من السكان، وهـــدف من ورائها البنك إلى زيادة رأسماله وأرباحه وتوسيع نشاطه الخارجي وريادتـــه للمصارف التي ستعمل في ليبيا في ظل الاحتلال الإيطالي. والغريب أن الحكومـــة الإيطالـــية، بعـــد الغزو والتوقيع على معاهدة الصلح مع تركيا، تجاهلـــت بـــنك روما وتنكرت لـــه ولما قدمه من خدمات، وللدور الذي قام به للتمهيد لغزو ليبيا سلمياً أولا وعسكرياً فيما بعد. ولم تكتف الحكومة بتجاهله بل رفضـــت تعويضه عن خسائره في ليبيا باعتباره أنه ذهب إليها بمحض إرادته وهـــو المسؤول عن أرباحه وخسائره، ولم توافق روما على تعويض البنك إلا بعـــد أن لجـــأ إلـــى القضـــاء. ومع ذلك فقد ظل البنك يعمل في إيطاليا كأحد مصـــارفها الكبيرة، وظل فرعاه في طرابلس وبنغازي يعملان حتى قيام ثورة الفاتح من سبتمبر عام 1969 وتأميم المصارف الأجنبية.

وتناول الكتاب المعاصرون مهمة بنك روما في ليبيا بالتحليل والدراسة ويرى بعضهم أن العمل الاقتصادي والتنموي الذي قام به بنك روما في ليبيا في فترة 1907 ـ1911 لم يكن كارثة استغلالية كما يشاع، وإنما كان عاملاً فعـــالاً لمـــنع تغلغـــل الاقتصاد الأجنبي في ليبيا في وقت لم تكن فيه إيطاليا

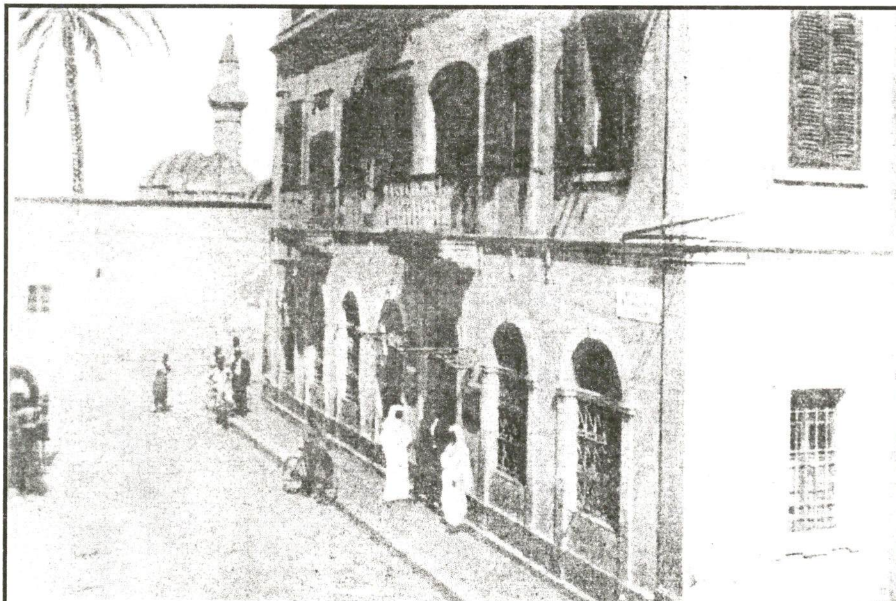
مستعدة للقيام بعمل عسكري. ويعتبر نشاط البنك ومبادراته الصناعية والزراعية المذكورة قد زودت الحكومة الإيطالية بالأسباب والمبررات التي استندت عليها في إعلان الحرب على تركيا واحتلال طرابلس وبنغازي دفاعاً عن المصالح الإيطالية المهددة، كما كانت تزعم إيطاليا. وذهب بعض الكتاب إلى أبعد من ذلك، فقد شبهوا تغلغل إيطاليا الاقتصادي في ليبيا في بداية القرن العشرين بالمساعدات التي تقوم بها اليوم الدول المقتدرة من أجل النهوض باقتصاديات ومجتمعات الدول الفقيرة. وقال الكاتب ريناتوموري بأن "لنشاط بنك روما في ليبيا وجه آخر خفي يستحق إلقاء الضوء عليه اليوم، فقد مثل تعاون الأوربيين والشعوب النامية من أجل النهوض اقتصادياً واجتماعياً ببلد أفريقي، ولم يقتصر هذا التعاون على توفير العمل لليد العاملة في ميدان الزراعة فقط، بل امتد إلى رفع المعاناة عن الطبقات الفقيرة وإلى إشراك رجال الأعمال المحليين، بنفس الحقوق، في المبادرات الرامية إلى تنمية البلاد اقتصادياً" (129). والغريب في الأمر أنه بعد مرور تسعين عاماً لا يزال هناك مفكرون إيطاليون يعتقدون أن بنك روما قام بعمل مفيد لصالح السكان الليبيين وأنه أراد تنمية اقتصادهم وتحسين أحوالهم المعيشية، مع علمهم بأن البنك كان يمهد للاستعمار والاستيطان الإيطالي الذي سلب الليبيين حريتهم وأراضيهم وممتلكاتهم، و أراد تحويل ليبيا إلى جزء متمم لإيطاليا يكون فيه الليبيون مواطنين من الدرجة الثانية.

---

(129) ر. موري ـ المصدر السابق ذكره ـ ص 115.



بنك روما بعد الاحتلال البريطاني

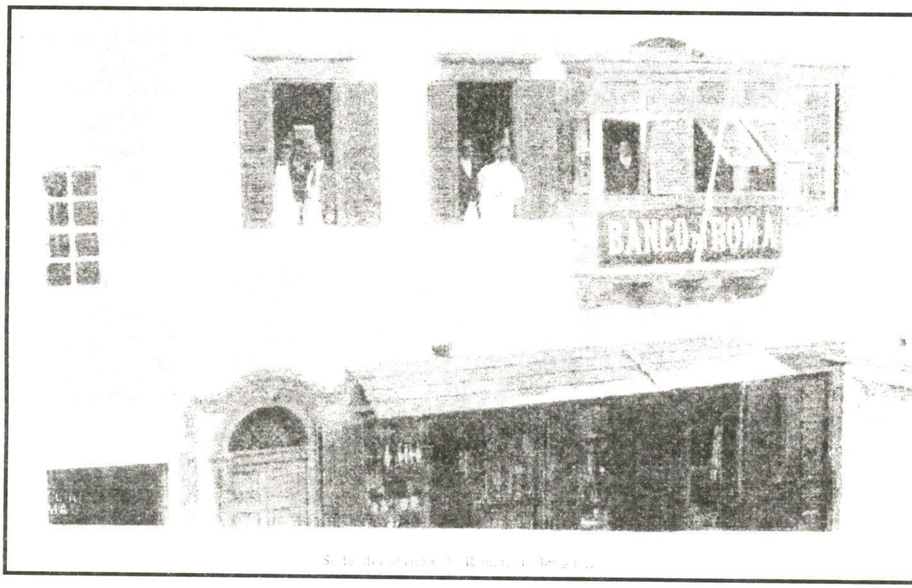


[illegible] degli affari dove sorge lo stabile che [illegible] dal 1907 [illegible]
Banco di Roma", nome che tuttora conserva

بنك روما في حريقه



بنك روما في درنة



بنك روما في بنغازى

المصادر الأجنبية

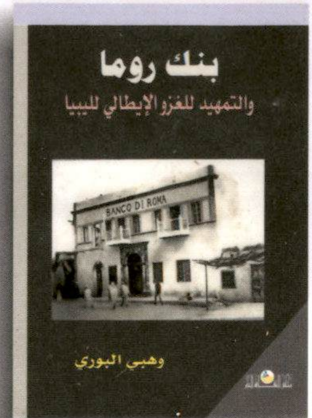
- A LE 55 NORD _L'AFRICA SETTENTRIONALE NELLA POLITCA MEDITERRANEA _ ROMA _ 1942.
- J. PICHON - LA QUESTIONNE DE LIBYE _ PARIS _ 1945.
- MINISTERO AFFARI ESTERI _ L'ITALIA IN AFRICA _ SERIA STORICA _ ETIOPIA MAR ROSSO _ ROMA _1952.
- PAOLO MALTESE _ LA TERRA PROMESSA _ ROMA _ 1976.
- MINISTERO AFFARI ESTERI _ L'ITALIA IN AFRICA _LE PRIME RICERCHE DI UNA COLONIA _ ROMA _ 1955.
- ANGELO DEL BOCA _ GLI ITALIANI IN LIBIA _ ROMA VOL. I _ 1993.
- INDRO MONTANELLI _ L'ITALIA DI GIOLTTI.
- ANNA BALDINETTI - ORIENTALISMO E COLONIALISMO _ ROMA 1977.
- EVANS-PRITCHARD _ THE SANUSI OF CYRENAICA _ OXFORD 1940.
- E. TOMMASINI _ L'ITALIA ALLA VIGILIA DELLA GUERRA - BOLOGNA VOL. II, 1934.
- ROBERTO MORI _ LA PENETRAZIONE PACIFICA IN LIBIA E IL BANCO DI ROMA _ RIV. DI STUDI INT, ROMA 1957.
- GUERRA DI LIBIA _ RIV. STORIA POLITICA, 1968 .
- GIUSEPPE BEVIONE - COME SIAMO ANDATI A TRIPOLI, TORINO 1912.
- C. WILLIAM ASKEW- EUROPE AND ITALY: ACQUISITION OF LIBYA 1911-1912, DURHAM 1912 .
- MARCELLA PINCHERLE _ LA PREPARAZIONE DELL OPINIONE PUBLICA ALL'IMPRESA DI LIBIA-RASSEGNA STORICA DEL RISORGIMENTO 1969-FASC.111.
- DE MARTINO FERDINANDO _ DIARIO _ MILANO, 1966.
- RAFFAELE CIASCA - STORIA COLONIALE DELL'ITALIA CONTEMPORANIA.
- BENEDETTO CROCE _ STORIA D'ITALIA DAL 1871 AL 1915-BARI _ 1959.
- ENRICO CORRADINI _ L'ORA DI TRIPOLI _ MILANO 1911.

- ALDO BRANDINI MALVEZZI _ L'ITALIA E L'ISLAM- FIRENZE- 1913.
- GIUSEPPE PIAZZA _ COME CONQUISTIAMMO TRIPOLI _ ROMA 1912.
- L. SPLENDIRE _ IL BANCO DI ROMA _ ROMA 1913 .
- GIOACCHINO VOLPE _ L'IMPRESA DI TRIPOLI _ ROMA 1946 .
- F.GABRIELI- APOLOGIE DELLI ORIENTALISME "DIOGENE", 50 1965.
- MAGALI BOISNARD _ LE PROBLEME DU KHALIFAT _ PARIS, 1965.
- SCARABEL A. UNA RIVISTA ITALO-ARABA D'INIZIO SECOLO.
- AL NADI _ RIV " PRIENTE MODERNO " 1978.
- U. RIZZITANO _ LINGUA E CULTURA ITALIANA IN EGITTO CAIRO 1955.

المصادر العربية

- كـادو بوريشناري ـ العلاقات الإيطالية ـ العربية ترجمة عمر الباروني طرابلس ـ مركز جهاد الليبيين ـ 1980.
- فرنشسكو مالجيرى ـ الحرب الليبية ـ ترجمة وهبي البوري ـ دار الكتاب العربي طرابلس 1978 .
- إدوارد سعيد - الاستشراق ـ الترجمة الإيطالية ـ تورينو 1990.
- أنـور عـبدالملك ـ الاستشراق في أزمة (بالفرنسية) ـ مجلة ديوجين ـ العدد ـ 1963 باريس .
- طاهر الزاوي ـ جهاد الأبطال ـ طرابلس .
- د. فؤاد سكري ـ استقلال ليبيا ـ القاهرة .
- جان ديبوا ـ الاستعمار الإيطالي في ليبيا ـ الترجمة العربية ـ طرابلس 1997.
- أ. كاكيا ـ ليبيا خلال الاحتلال العثماني الثاني ـ الترجمة العربية دار الفرجاني ـ طرابلس 1967 .
- محمد ناجي ـ طرابلس غرب .
- ل. فـيراود ـ حولـيات طرابلس ترجمة الدكتور محمد الوافي منشورات جامعة بنغازي ـ 1994 .
- أحمـد صدقي الدجاني ـ ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي ـ القاهرة 1971 أحمد صدقي الدجاني وعبدالسلام أدهم ـ وثائق تاريخ ليبيا الحديثة ـ القاهرة 1976 .
- جوفاني جوليتي ـ مذكرات ـ ترجمة خليفة التليسي ـ دار الكتاب العربي ـ طرابلس.
- أحمد عبدالفتاح بدير ـ الأمير أحمد فؤاد ونشأة الجامعة المصرية القاهرة 1950 .

المحتويات



▪ يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًّا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام